كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام
محمد جمال الدين القاسمي
١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء السادس عشر

ويبتدئ بتفسير : ٥٦ ـ سورة الواقعة ، وينتهي بتفسير ٧٥ ـ سورة القيامة

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

obeikandl.com

obeikandl.com

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطا كان أو مطبوعا ، خاليا من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٦ – سورة الواقعة

سميت بها لأنها مملوءة بوقائع القيامة ، التي هى الواقعة العظمى ، لوقوعها فى أشد الأحوال ـ قاله المهايمىّ ـ .

وهى مكية . وآيها ست وتسعون .

وعن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ! قد شبتَ ! قال : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت ـ رواه الترمذىّ [1] وقال : حسن غريب .

وعن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الصلوات كنحوٍ من صلاتكم التى تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم . وكان يقرأ فى الفجر الواقعة ونحوها من السور .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٦ ـ حدثنا أبو كريبٍ . حدثنا معاوية بن هشام .

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مكتبة ... المدينة المنورة

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

[٢] (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ)

[٣] (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » أى نزلت وجاءت . و(الواقعة) علم بالغلبة على القيامة، أومنقول، سميت بذلك لتحقق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التى لابد من وقوعها . واختيار (إذا) مع صيغة المضىّ ، للدلالة على ماذكر . « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى كذب أو تكذيب . وقد جاء المصدر على زنة (فاعلة) كالعاقبة ، والعافية . واللام للاختصاص . أو المعنى : ليس حين وقعتها نفس كاذبة ، أى تكذب على الله ، أو تكذب فى نفيها . واللام للتوقيت .

قال الشهاب : و(الواقعة) السقطة القوية ، وشاعت فى وقوع الأمر العظيم. وقد تخص بالحرب ، ولذا عبر بها هنا . « خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ » أى تخفض الأشقياء إلى الدركات ، وترفع السعداء إلى الدرجات . وقيل ، الجملة مقررة لعظمة الواقعة على طريق الكناية ، لأن من شأن الوقائع العظام أنها تخفض قوماً وترفع آخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا)

[٥] (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا)

[٦] (فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا)

« إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا » أى زلزلت زلزالا شديداً « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا »

أى فتّت، أو سيقت وأذهبت، كقوله(١) (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ) «فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا» أى متفرقاً . قال قتادة : الهباء ماتذْرُوهُ الريح من حطام الشجر . وقال غيره : هو ماترى من الكوة كهيأة الغبار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً)

[٨] (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

[٩] (وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

[١٠] (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

[١١] (أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

[١٢] (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

« وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا » أى أصنافاً « ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة ، مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها. وإطلاق (الميمنة) و(المشأمة) اللتين هما الجهتان المعروفتان، على منزلة السعداء الذين هم الأبرار والمصلحون من الناس، وعلى دركة الأشقياء الذين هم الأشرار والمفسدون من الناس ـ أصله من تيمُّنِ العرب باليمين ، وتشاؤمهم بالشمال ، كما فى السانح والبارح ، وقولهم للرفيع : هو منى باليمين ، وللوضيع : هو منى بالشمال ، تجوّزًا به ، أو كناية به عما ذكر .

وقيل : الميمنة والمشأمة بمعنى اليمن والشؤم، فليس بمعنى الجهة، بل بمعنى البركة وضدها،

(١) [٧٨ / النبأ / ٢٠] .

لما عاد عليهم من أنفسهم وأفعالهم . وفى جملتى الاستفهام إشارة إلى ترقّى أحوالهما فى الخير والشر ، تعجُّباً منه .

« وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ » أى الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، بعد ظهور الحق ، وأوذوا لأجله ، وصبروا على ما أصابهم ، وكانوا الدعاة إليه .

فإن قيل : لم خولف بين المذكورين فى السابقين ، وفى أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ؟

فنقول : التعظيم المؤدى بقوله (ٱلسَّٰبِقُونَ) أبلغ من قرينه . وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين ، وعظمة شأنه ، مالا يكاد يخفى . وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور فى قوله (وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ) فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق. ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ) فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف ، وبين الإخبار عنه بقوله (ٱلْمُقَرَّبُونَ) معرفاً بالألف واللام العهدية ؟ وليس مثل هذا مذكوراً فى بسط حال أصحاب اليمين ، فإنه مصدر بقوله (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) ـ أفاده الناصر ـ .

و (ٱلسَّٰبِقُونَ) الثانى إما خبر ، أى الذين عرفت حالهم ، واشتهرت أوصافهم على حدّ (وشِعرى شعرى) ، أو تأكيد ، والخبر قوله :

« أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ » أى الذين يقرّبهم الله منه بإعلاء منازلهم « فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٤] (وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ)

« ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ » أى هم جماعة كثيرة من الذين سبقوا ، لرسوخ إيمانهم ، وظهور أثره فى أعمالهم من العمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد فى سبيله ،

إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم. « وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ » أي الذين جاءوا من بعدهم في الأزمنة التي حدثت فيها الغير، وتبرّجت الدنيا لخطّابها، ونسي معها سر البعثة، وحكمة الدعوة . فما أقلّ الماشين على قدم النبيّ صلوات الله عليه وصحابه ! لاجرم أنهم وقتئذ الغُرَباء ، لقلّتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)

[١٦] (مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ)

[١٧] (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ)

[١٨] (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

[١٩] (لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ)

[٢٠] (وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

[٢١] (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٢] (وَحُورٌ عِينٌ)

[٢٣] (كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ)

[٢٤] (جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

[٢٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا)

[٢٦] (إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا)

« عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ » أي مصفوفة، أو مشبكة بالدرّ والياقوت أو الذهب. و(الوَضْنُ)

التشبيك والنسج . « مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ » أى بوجوههم ، متساوين فى الرتب ، لا حجاب بينهم أصلًا . « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى للخدمة « وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ » أى مبقون على سنّ واحدة لا يموتون . « بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ » أى حال الشرب . و(الكوب)إناء لا عروة ولا خرطوم له . و(الإبريق) إناء له ذلك . « وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى خمر جارية .

ثم أشار إلى أنها لذّة كلها ، لا ألم معها ولا خمار « لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا » أى لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار ، كخمور الدنيا. والصداع: وجع الرأس. وقرئ بالتشديد من التفعل . أى لا يتفرقون . « وَلَا يُنزِفُونَ » بكسر الزاى وفتحها . أى لا تذهب عقولهم بسكرها . « وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ » أى يختارون ويرتضون . وأصله أخذ الخيار والخير .

قال ابن كثير : وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لها ، ثم استشهد له بحديث عكراش لما أتى النبيّ ﷺ بثريد ، وأقبل عكراش يخبط بيده فى جوانبه، فقبض النبيّ ﷺ بيده وقال : يا عكراش ! كلْ من موضع واحد، فإنه طعام واحد . ثم أتى بطبق فيه تمر أو رطب ، فجعل عكراش يأكل من بين يديه ، وجالت يد رسول الله ﷺ فى الطبق فقال : يا عكراش ! كلْ من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد ـ رواه الترمذيّ [١] واستغربه ـ .

« وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى يتمنون . « وَحُورٌ عِينٌ » أى وأزواج بيض واسعة الأعين . عطف على (وِلْدَانٌ) أو مبتدأ محذوف الخبر . أى وفيها ، أو ولهم حور . وقرئ بالجرّ عطف على (بِأَكْوَابٍ) . قال الشهاب : وحينئذ إما أن يقال (يَطُوفُ) بمعنى ينعمون مجازاً أو كناية ، على حدّ قوله [٢] :

* وزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا *

---

(١) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٤١ ـ باب ما جاء فى التسمية فى الطعام .

(٢) صدره : * إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا *

استشهد به فى اللسان ، وقال : إنما أراد (وكحّلْنَ العيونا) .

أو يبقى على حقيقته وظاهره ، وأن الولدان تطوف عليهم بالحور أيضاً ، لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح ، كما تأتى الخدام بالسرارى للملوك ويعرضونهن عليهم . وإلى هذا ذهب أبو عمرو وقطرب وجوّز جعله من الجر الجوارى . قيل : والفصل يأباه ويضعفه . وأما عطفه على (جَنَّٰتِ) بتقدير مضاف . أى هم فى جنات، ومصاحبة حور۔ فقال أبو حيّان : هو فهم أعجمىّ ، فيه بُعد وتفكيك للكلام المرتبط ، وهو ظاهر . ومَن عصّبه فقد تعصّب .

« كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ » أى صفاؤهنّ كصفاء الدرّ فى الأصداف الذى لا تمسّه الأيدى . وأصل (ٱلْمَكْنُونِ) الذى صِينَ فى كِنّ . « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى من الصالحات . « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » أى هذياناً وكلاماً غير مفيد، باطلًا من القول . « وَلَا تَأْثِيمًا » أى ما يؤثم من الفحش والكذب والغيبة وأمثالها . « إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا » قال القاشانىّ : أى قولًا هو سلام فى نفسه منزّه عن النقائص، مبرّأ عن الفضول والزوائد . أو قولًا يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص ، ويوجب سروره وكرامته ، ويبيّن كماله وبهجته ، لكون كلامهم كله معارف وحقائق ، وتحايا ولطائف ، على اختلاف وجهى الإعراب ، أى من كون (سَلَٰمًا) بدلا من (قِيلًا) ، أو مفعوله . والتكرير للدلالة على فشوّ السلام بينهم وكثرته ، لأن المراد : سلاماً بعد سلام ، كقرأت النحو باباً باباً ، فيدلّ على تكرّره وكثرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ)

[٢٨] (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ)

[٢٩] (وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ)

[٣٠] (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)

[٣١] (وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ)

[٣٢] (وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ)

[٣٣] (لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

[٣٤] (وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ)

[٣٥] (إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً)

[٣٦] (فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا)

[٣٧] (عُرُبًا أَتْرَابًا)

[٣٨] (لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٣٩] (ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٤٠] (وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ)

« وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ » أى: أىّ شىء هم! أى هم شرفاء ، عظماء كرماء ، يتعجب من أوصافهم فى السعادة « فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ » أى لا شوك له . أو موقر بالثمار « وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ » يعنى شجر الموز الذى نضد ثمره من أسفله إلى أعلاه . قال مجاهد : كانوا يعجبون بوجّ ، من طلحه وسدره . وشجرة الموز ثمرتها حلوة دسمة لذيذة لانوى لها «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ » أى ممتد منبسط لا يتقلّص « وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ » أى مصبوب دائم الجريان« وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ» أى لا تنقطع عنهم متى أرادوها، لكونها غير متناهية، «وَلَا مَمْنُوعَةٍ أى لا تمنع عن طالبها . والقصد مباينتها لفاكهة الدنيا ، فإنها تنقطع أحياناً ، كفاكهة الصيف فى الشتاء ، وتمتنع أحيانا لعزتها أو جدبها « وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » أى مرتفعة فى منازلها ، أو على الأرائك للرقود والمضاجعة . وقد يؤيده تأثره بوصف من يضاجعهن

obeikandl.com

فيها . وهو قوله تعالى « إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً » أي بديعا فائق الوصف . فالضمير يعود على ما فهم من السياق والسباق . وقيل : قد يكنى عن الحور بالفرش ، كما يكنى عنهن باللباس . فالضمير للمذكور على طريق الاستخدام ، إذ عاد إلى الفرش بمعنى النساء ، بعد إرادة معناها المعروف منها. وقيل: على طريق الحقيقة. أي مرفوعة على الأرائك، كآية[1] (هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ) « فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا » أي لم يطمثن . « عُرُبًا » جمع عروب ، وهي المتحببة إلى زوجها ، المحبوبة لتبعلها « أَتْرَابًا » أي على سن واحدة « لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ » متعلق بـ (أَنشَأْنَا) أو (جَعَلْنَا) أو صفة لـ (أَبْكَارًا) أو خبر لمحذوف ، مثل هن . « ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ » أي جماعة وأمة من المتقدمين في الإيمان، وممن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة. والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين في أواخرهم دون السابقين ، كما بينا أولا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ)

[٤٢] (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

[٤٣] (وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ)

[٤٤] (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

[٤٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ)

[٤٦] (وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ)

[٤٧] (وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[٤٨] (أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ)

(١) [٣٦ / يس / ٥٦] .

« وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ » أىّ حر نار ينفذ فى المسامّ « وَحَمِيمٍ » أى ماء متناهى الحرارة « وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ » أى من دخان أسود ، طبق أهويتهم المردية ، وعقائدهم الفاسدة ، وهيآت نفوسهم المسودة ، بالصفات المظلمة ، والهيآت السود الرديئة « لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » أى ليس له صفتا الظل الذى يأوى إليـه الناس من الروح، ونفع من يأوى إليه بالراحة، بل له إيذاء وإيلام وضرّ، بإيصال التعب واللهب والكرب « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ » أى منهمكين فى اللذات والشهوات، منغمسين فى الأمور الطبيعية ، والغواشى البدنية ، فبذلك اكتسبوا هذه الهيآت الموبقة ، والتبعات المهلكة . « وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ » أى الذنب العظيم ، من الأقاويل الباطلة ، والعقائد الفاسدة ، التى استحقوا بها العذاب المخلد ، والعقاب المؤبد . وفسره (السبكىّ) بالقسم على إنكار البعث المشار إليـه بقوله تعالى[1] (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ) . قال الشهاب : وهو تفسير حسن ، لأن الحنث ، وإن فسر بالذنب مطلقاً أو الذنب العظيم ، فالمعروف استعماله فى عدم البر بالقسم . ولذا تأثره بما كانوا يعتقدونه من إنكار البعث بقوله « وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ)

[٥٠] (لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[٥١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ)

[٥٢] (لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ)

---

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

obeikandi.com

[٥٣] ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾

[٥٤] ﴿فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾

[٥٥] ﴿فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾

[٥٦] ﴿هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

« قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى معين عنده تعالى ، وهو يوم القيامة « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ » أى الجاهلون المصرّون على جهالاتهم ، والجاحدون للبعث . « لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ » وهو من أخبث شجر البادية فى المرارة ، وبشاعة المنظر ، ونتن الريح « فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ » أى من ثمراتها الوبيئة البشعة المحرقة « فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الذى انتهى حره وغليانه . قال الزمخشرىّ : وأنّث ضمير الشجر على المعنى ، وذكّره على اللفظ فى قوله (مِنْهَا) و (عَلَيْهِ) « فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ » أى الإبل التى بها الهيام . وهو داء لا رىّ معه ، لشدة الشغف والكلب بها « هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى جزاؤهم فى الآخرة . وفيه مبالغة بديعة ، لأن النزل ما يعدّ للقادم عاجلاً إذا نزل ، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة ، فلما جعل هذا ، مع أنه أمر مهول ، كالنزل ، دلّ على أن بعده مالا يطيق البيان شرحه . وجعله نزلًا ، مع أنه ما يكرم به النازل ، متهكماً ، كما فى قوله :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافنَا جعلنا القنَا والمُرْهَفَاتِ له نُزُلَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾

[٥٨] ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾

[٥٩] ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾

[٦٠] (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٦١] (عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[٦٢] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ » أى معشر قريش ، والمكذبين بالبعث ، فأوجدناكم بشراً ، ولم تكونوا شيئاً « فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ » أى بالخلق . وهم، وإن كانوا مقرين به لقوله[1] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ، لأنه إذا لم يقترن بالطاعة ، والأعمال الصالحة ، لايعد تصديقاً . أو المعنى : فلولا تصدقون بالبعث ، فإن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة « أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ » أى ماتقذفونه فى الرحم من النطف. « ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ » أى بجعله بشراً سويًّا «أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ» أى بإفاضة الصورة الإنسانية عليه . « نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ » أى كتبنا على كل نفس ذوقه . أى: ومن كان سبيله ذلك، فشأنه أن يرهب من نزوله، ويتأهب لما يخوف به من بعده . والجملة مقررة لما قبلها بإيذان أنهم فى قبضة القدرة ، فلا يغترون بالإمهال ، بدليل ماقدره عليهم من الموت . وفى قوله تعالى (بينكم) زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانيهم ، ثم أكد ما قرره بقوله تعالى « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين « عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ » أى بعدمهلككم، فنجئ بآخرين من جنسكم «وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ» من صور وأشكال أخرى ، فكيف نعجز عن إعادتكم ؟

قال الشهاب : والظاهر أن قوله (وَنُنشِئَكُمْ) المراد به إذا بدلناكم بغيركم ، لافى الدار الآخرة ، كما توهم . وهذا كقوله تعالى[2] (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ » أى أنه أنشأكم بعدأن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . « فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى، وهى الإعادة، وأنها أهون عليه .

---

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ)

[٦٤] (ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ)

[٦٥] (لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

[٦٦] (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ)

[٦٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ » أى ماتحرثون الأرض لأجله، وهو الحب . و(الحرث): شق الأرض للزراعة ، وإثارتها ، وإلقاء البذر فيها . « ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ » أى تنبتونه « أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ » أى المنبتون. وعن بعض السلف أنه كان إذا قرأ هذه الآية وأمثالها يقول: بل أنت يارب ! « لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا » أى أيبسناه قبل استوائه واستحصاده. وأصل (الحطام) ماتحطم وتفتت لشدة يبسه « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تعجبون من هلاكه ويبسه بعد خضرته . أو تندمون على اجتهادكم فيه الذى ضاع وخسر . أو (تفكهون) على ماأصبتم لأجله من المعاصى ، فتتحدثون فيه . و(التفكه) التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ، لأنه ذو شجون . وقوله تعالى « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مقول قولٍ مقدّر ، هو حال . أى قائلين ، أو يقولون : إنا لمغرمون . أى ملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا . من (الغرام) بمعنى الهلاك ، قال(1) :

إن يعذّب يكن غراماً وإن يعـط جزيلًا فإنه لايُبالِى

« بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى حرمنا رزقنا .

---

(1) هذا هو البيت الخامس والأربعون من القصيدة رقم ١ من ديوان الأعشى، ومطلعها:

ما بكاء الكبير بالأطلالِ وسؤالى ! فهل تردّ سؤالى ؟

والرواية فى الديوان (إن يعاقبْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾

[٦٩] ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾

[٧٠] ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ » يعنى العذب الصالح للشرب. « ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ » أى السحاب المعبر عنه بالسماء فى غير ما آية « أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ » أى لكم إلى قرار الأرض ، ومسلكوه ينابيع فيها . « لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا » أى ملحاً لا يصلح لشراب ولا زرع « فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله عليكم فى جعله عذباً فراتاً ، لشربكم وزرعكم ، وصلاح معايشكم ومنافعكم .

لطيفة :

قال الإمام ابن الأثير فى (المثل السائر) فى النوع الحادى عشر من المقالة الثانية ، فى بحث ورود لام التوكيد فى الكلام ، وأنها لا تجىء إلا لضرب من المبالغة ، فى سر مجىء اللام فى قوله تعالى (لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا) دون قوله (جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا) ما مثاله :

أدخلت اللام فى آية المطعوم ، دون آية المشروب . وإنما جاءت كذلك ، لأن جعل الماء العذب ملحاً ، أسهل إمكاناً فى العرف والعادة . والموجودُ من الماء الملح ، أكثر من الماء العذب . وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضى المتغيرة التربة ، أحالتها إلى الملوحة . فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً ، إلى زيادة تأكيد . فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق. وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد ، زيادة فى تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧١] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴾

[٧٢] ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾

[٧٣] ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾

[٧٤] ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ » أى تقدحون. أى تستخرجونها من الزند، وهو العود الذى تقدح منه . « ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ » أى بل نحن جعلناها مودعة فى موضعها . وللعرب شجرتان : إحداهما المرخ ، والأخرى العفار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فَحُكَّ أحدهما بالآخر ، تباين من بينهما شرر النار. وقد تقدم بيانه فى آخر سورة يس . « نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً » أى جعلنا نار الزناد تبصرة فى أمر البعث ، لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضادّ لها ، قادر على إعادة ماتفرقت مواده . أو تذكيراً لنار جهنم . « وَمَتَـٰعًا » أى منفعة « لِّلْمُقْوِينَ » أى المسافرين الذين ينزلون القواء ، وهى القفر . يقال : أقوى إذا نزل القواء ، كأصحر إذا دخل الصحراء، فإن الإفعال يكون للدخول فى معنى مصدر مجرده .

وعن مجاهد : (المقوين) المستمتعين ، المسافر والحاضر .

وعن ابن زيد : هم الجائعون . تقول العرب : أقويت منه كذا وكذا ، أى : ما أكلت منه . وأقوت الدار : خلت من ساكنيها وانتفاعهم بها ، لأنهم يطبخون بها . ولشدة احتياجهم لها ، خصوا بالذكر مع انتفاع غيرهم بها .

« فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى سبح اسمه. قال الزمخشريّ : بأن تقول: سبحان الله ، إما تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته .

وإما تعجباً من أمرهم فى غمط آلائه وأياديه الظاهرة . وإما شكراً لله على النعم التى عدها ونبه عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ)

[٧٦] (وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[٧٧] (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ)

[٧٨] (فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ)

[٧٩] (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ » أى منازل الكواكب ومراكزها البهيجة فى السماء . أو بمساقطها ومغاربها ، وهى أوقات غيبتها عن الحواس . أو بمساقطها وانتشارها يوم القيامة . و (لا) فى (لا أقسم) إما مزيدة للتأكيد ، وتقوية الكلام ، وقد عهدت زيادتها فى كلامهم ، كما أوضحه فى (فقه اللغة) . وإما (لا أقسم) بتمامها صيغة من صيغ القسم ، على ما ارتضاه بعض المحققين . « وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » أى لما فى القسم من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة . « إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ » أى له كرم وشرف وقدر رفيع ، لاشتماله على أمهات الحكم والأحكام ، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام « فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ » أى محفوظ مصون ، لا يتغير ولا يتبدل . أو محفوظ عن ترداد الأيدى عليه ، كغيره من الكتب ، بل هو كالدر المصون إلا عن أهله ، كما قال « لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ » اعلم أن فى الآية أقوالًا عديدة ، مرجعها إلى أن المس مجاز أو حقيقة ، وأن الضمير عائد للكتاب بمعنى الوحى المتلقَّى ، أو المصحف ، وأن (المطهرون) هم الملائكة ، أو المتقون ، أو المتطهرون من الأحداث والأخباث . وذلك لاتساع ألفاظها الكريمة ، لما ذكر بطريق الاشتراك أو الحقيقة والمجاز . وهاك ملخص ذلك ولبابه :

obeikandl.com

فأما أكثر المفسرين ، فعلى أنه عنى بالآية الملائكة . فنفىُ مسّه كناية عن لازمه، وهو نفى الاطلاع عليه ، وعلى ما فيه . والمراد بـ (المطهرين) حينئذ إما جنس الملائكة ، أو من نزل به وهو روح القدس . وطهارتهم نقاء ذواتهم عن كدورات الأجسام ، ودنس الهيولى، أو عن المخالفة والعصيان .

وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) كما قال(١) (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) انتهى. قال ابن كثير : وهذا القول قول جيد .

وقال الفرّاء : لايجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . ومثله قول محمد بن الفضل : لايقرؤه إلا الموحدون .

فنفىُ مسّه كناية عن ترك تقبّله ، والاهتداء به ، والعناية به ، فإن مسّ الشيء سبب حب الملموس ، وأثر الإقبال عليه ، ورائد الانصياع له . والطهارة حينئذ هى نظافة القلب من دنس الشرك والنفاق ، والملكات الرديئة ، والغرائز الفاسدة .

وقال آخرون : عنى بـ (المطهرين) المتطهرون من الجنابة والحدث. قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها النهى ، إشارة إلى أن تلك الصفة طبيعة من طبائعه ، ولازم من لوازمه ، لشرفه وعظم شأنه .

قالوا : والمراد بـ (الكتاب) المصحف ، واحتجوا بما رواه الإمام مالك فى موطئه عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ؛ أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم، أن لايمس القرآن إلا طاهر . وبما روى الدارقطنىّ فى قصة إسلام عمر؛ أن أخته قالت له قبل أن يسلم : إنه رجس و (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) إلا أن فيهما مقالًا

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠ ـ ٢١٢] .

بيّنه الحافظ ابن حجر فى (تلخيص الحبير) وأشار له ابن كثير أيضاً . ومع ذلك فالدلالة ليست قطعية . وقد أوضح ذلك الشوكانىّ فى (نيل الأوطار) وعبارته :

(الطاهر) يطلق بالاشتراك على المؤمن ـ والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر ـ ومن ليس على بدنه نجاسة . ويدل لإطلاقه على الأول قول الله تعالى[١] : (إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) وقوله ﷺ لأبى هريرة[٢] : المؤمن لاينجس . وعلى الثانى[٣] (وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَٱطَّهَّرُواْ) وعلى الثالث : قوله[٤] ﷺ فى المسح على الخفين : دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين. وعلى الرابع : الإجماع على أن الشىء الذى ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمية يسمى طاهراً. وقد ورد إطلاق ذلك فى كثير . فمن أجاز حمل المشترك على جميع معانيه ، حمله عليها هنا . والمسألة مدونة فى الأصول ، وفيها مذاهب . والذى يترجح أن المشترك مجمل فيها ، فلا يعمل به حتى يبين . وقد وقع الإجماع على أنه لايجوز للمحدث حدثاً أكبر أن يمس المصحف . وخالف فى ذلك داود . استدل المانعون للجنب بقوله تعالى : (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) وهو لايتم إلا بعد جعل الضمير راجعاً إلى القرآن ، والظاهر رجوعه إلى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأنه الأقرب . و (المطهرون) الملائكة. ولو سلم عدم الظهور ، فلا أقل من الاحتمال ، فيمتنع العمل بأحد الأمرين ، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية . ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين ، لكانت دلالته على المطلوب ، وهو منع الجنب من مسه ، غير مسلمة . لأن المطهر من ليس بنجس ، والمؤمن ليس بنجس دائما ، لحديث : المؤمن لا ينجس . وهو متفق عليه . فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أومتنجس بنجاسة عينية ، بل يتعين حمله على من ليس بمشرك ، كما فى قوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) لهذا الحديث ، ولحديث النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدوّ. ولو

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الغسل ، ٢٣ ـ باب عرق الجنب وأن المؤمن لا ينجس ، حديث ٢٠٤ . (٣) [٥ / المائدة / ٦] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٤٩ ـ باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان ، حديث رقم ١٤٥ ، عن المغيرة .

سلم صدق اسم (الطاهر) على من ليس بمحدث حدثاً أكبر أو أصغر . فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملًا فى معانيه ، فلا يعين حتى يبين . وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره ، لحديث (المؤمن لا ينجس) . ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته ، لكان تعيينه لمحل النزاع ترجيحاً بلا مرجح، وتعيينه لجميعها استعمالا للمشترك فى جميع معانيه، وفيه الخلاف. ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشترك فى جميع معانيه، لما صح، لوجود المانع، وهو حديث: المؤمن لا ينجس . واستدلوا أيضاً بحديث عمرو بن حزم المتقدم ، وأجيب بأنه غير صالح للاحتجاج . لأنه من صحيفة غير مسموعة، وفى رجال إسناده خلاف شديد، ولو سلم صلاحيته للاحتجاج ، لعاد البحث السابق فى لفظ (طاهر) وقد عرفته .

قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير: إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذى ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر ، لا يصح لا حقيقة ولا مجازاً ولا لغة. صرح بذلك فى جواب سؤال ورد عليه . فإن ثبت هذا فالمؤمن طاهر دائماً ، فلا يتناوله الحديث ، سواء كان جنباً أو حائضاً أو محدثاً ، أو على بدنه نجاسة .

فإن قلت : إذا تم ماتريد من حمل (الطاهر) على من ليس بمشرك ، فما جوابك فيما ثبت فى المتفق عليه من حديث ابن عباس[1] أنه ﷺ كتب إلى هرقل عظيم الروم : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين. و[2] (يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ ..) إلى قوله : (مُسْلِمُونَ) مع كونهم جامعين بين نجاستى الشرك والاجتناب ووقوع اللمس منهم له معلوم ؟

قلت : أجعله خاصاً بمثل الآية والآيتين، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار، لمصلحة ، كدعائه إلى الإسلام . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع ، حديث رقم ٧ .
(٢) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

لا يحرم لمسه ، كـكتب التفسير ، فلا تخصص به الآية والحديث . إذا تقرر لك هذا ، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرك . وقد عرفت الخلاف فى الجنب . وأما المحدث حدثاً أصغر ، فذهب ابن عباس والشعبيّ والضحاك وزيد بن عليّ والمؤيد بالله والهادوية وقاضي القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف . وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيي : لا يجوز . واستدلوا بما سلف ، وقد سلف ما فيه . انتهى كلام الشوكانيّ .

تنبيه :

فى لطف دلالة هذه الآية وما تشير إليه من العلم المكنون

قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) فى مباحث أمثال القرآن الكريم، ما مثاله : الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعانى ، أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ، ولا يقصّر بها ، ويعطى اللفظ حقه ، والمعنى وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط فى كتابه ، وأخبر أنهم أهل العلم . ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعانى والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض، فيعتبر مايصح منها بصحة مثله وشبهه ونظيره ، ويلغى ما لا يصح، هذا الذى يعقله الناس من الاستنباط .

قال الجوهريّ: الاستنباط كالاستخراج . ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط ، وإنما تنال به العلل والمعانى والأشباه والنظائر ، ومقاصد المتكلم. والله سبحانه ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاه ، وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه . يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذى من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه . ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين . ومن هذا قول[1] عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهماً

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٦ـ كتاب الجهاد، ١٧١ـ باب فكاك الأسير، حديث ٩٥

يؤتيه الله عبداً فى كتابه ! ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه ، فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب ، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ، ومراد المتكلم بكلامه، ومعرفة حدود كلامه ، بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد . وأنت إذا تأملت قوله تعالى[(١)] : (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبىّ ﷺ ، وأن القرآن جاء من عند الله وأن الذى جاء به روح مطهرة، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ، ووجدت الآية أخت قوله[(٢)] (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، ووجدتها دالة أيضاً بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به ، وعمل به ، كما فهمه البخارىّ من الآية، فقال فى صحيحه فى باب[(٣)] (قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ): (لَّا يَمَسُّهُۥٓ) لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله[(٤)] (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا) وتجد تحته أيضاً : لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغى، إلا القلوب الطاهرة ، وإن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه، مصروفة عنه . فتأمل هذا النسب القريب ، وعَقْدَ هذه الأخوة بين هذه المعانى وبين المعنى الظاهر من الآية ، واستنباط هذه المعانى كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه . فهذا من الفهم الذى أشار إليه علىّ رضى الله عنه . انتهى .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٧٧ ـ ٧٩] . (٢) [٢٦ الشعراء / ٢١٠] .
(٣) [٣ / آل عمران / ٩٣] . (٤) [٦٢ / الجمعة / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[٨١] (أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ)

[٨٢] (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

« تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى الذى رباهم بالكمالات، وهداهم إليها بتنزيلها منه. « أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص عليكم فخامة شأنه ، وعظمة مقداره . « أَنتُم مُّدْهِنُونَ » . قال ابن جرير(١) : أى تلينون القول للمكذبين ، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . وأصل (الإدهان) ـ كما قال الشهاب ـ جعل الأديم ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن . ولما كان ذلك ملينا له محسوسًا ، أريد به اللين المعنوىّ . على أنه تجوز به عن مطلق اللين ، أو استعير له . ولذا سميت المداراة والملاينة ، مداهنة . وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضًا ، لأن المتهاون بالأمر ، لا يتصلب فيه . « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكر رزقكم إياه تكذيبكم به ، كفراً لنعمته ، وجحداً لمنته .

قال ابن جرير(١) : أى وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم ، التكذيب . وذلك كقول القائل لآخر : جعلت إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، بمعنى جعلت شكر إحسانى ، أو ثواب إحسانى إليك ، إساءة منك إلىّ .

وقد ذكر عن الهيثم بن عدىّ : أن من لغة أزدشنوءة (مارزق فلان) بمعنى ما شكر. انتهى .

وقد حمل بعضهم (الرزق) هنا على النعمة مطلقًا ، والأظهر أنه نعمة القرآن ، للسياق.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقال القاشانيّ : أي وتجعلون قُوتَكُمُ القلبيّ ورزقكم الحقيقيّ، تكذيبه ، لاحتجابكم بعلومكم ، وإنكاركم ما ليس من جنسه ، كإنكار رجل جاهل ما يخالف اعتقاده ، كأن علمه نفس تكذيبه . أو رزقكم الصوريّ . أي لمداومتكم على التكذيب ، كأنكم تجعلون التكذيب غذاءكم . كما تقول للمواظب على الكذب : الكذب غذاؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾

[٨٤] ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾

[٨٥] ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾

« فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ » أي النفس ، لدلالة الكلام عليها « ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ » أي حالة نزعه ، أو تنتظرون لفظه النفس الأخير . والخطاب لمن حول المحتضر . « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ » قال جمهور السلف : يعني ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . أو لا تدركون كنه ما يقاسيه . وبعضهم فسر القرب بالعلم والقدرة . وتقدم بسط الأقوال ، وترجيح الأول في تفسير آية[١] ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ في سورة (ق) فارجع إليه فإنه مهم .

وهذه الجملة معترضة ، أو حالية كالتي قبلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾

[٨٧] ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

---

(١) [٥٠ / ق / ١٦] .

[٨٨] (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ)

[٨٩] (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ)

[٩٠] (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٩١] (فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٩٢] (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ)

[٩٣] (فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ)

[٩٤] (وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)

[٩٥] (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ)

[٩٦] (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ)

« فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ » أى غير مجزيين يوم القيامة . أو مملوكين مقهورين . من (دانه) أذله واستعبده . « تَرْجِعُونَهَآ » أى تردّون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى أنكم غير مسوسين ، مربوبين مقهورين . يعنى أنكم مجبرون عاجزون تحت قهر الربوبية ، وإلا لأمكنكم دفع ماتكرهون أشد الكراهية ، وهو الموت . « فَأَمَّآ إِن كَانَ » أى الميت « مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ » أى السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة فى أول السورة « فَرَوْحٌ » أى فله راحة « وَرَيْحَانٌ » أى رزق طيب ، أو شجر ناضر يتفيأ ظلاله « وَجَنَّتُ نَعِيمٍ » أى يتنعم فيها مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين « وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ » .

قال ابن كثير : أى تبشرهم الملائكة بذلك . تقول لأحدهم: سلام لك، أى لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن . ويكون ذلك كقول الله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . .) الآيات . انتهى .

وقال الرازىّ : فى السلام وجوه :

أولها ـ يسلم به صاحب اليمين ، على صاحب اليمين كما قال تعالى[2] من قبل : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا) .

ثانيها ـ (فَسَلَٰمٌ لَّكَ) أى سلامة لك من أمرٍ خاف قلبُكَ منه ، فإنه فى أعلى المراتب . وهـــذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم : كن فارغاً من جانب ولدك ، فإنه فى راحة .

ثالثها ـ أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان . إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد الفضل . انتهى .

ثم قال الرازىّ : والخطاب بقوله (لَّكَ) يحتمل أن يكون للنبىّ ﷺ ، وحينئذ فيه وجه ، وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبىّ ﷺ ، فإنهم غير محتاجين إلى شىء من الشفاعة وغيرها . فسلام لك يا محمد منهم ، فإنهم فى سلامة وعافية ، لا يهمك أمرهم . أو فسلام لك يا محمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم . انتهى .

« وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله « ٱلضَّآلِّينَ » أى الجائرين عن سبيله . « فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ » أى ماء انتهى حرّه ، فهو شرابه « وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ » أى إحراق بالنار « إِنَّ هَٰذَا » أى المذكور من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم « لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ »

---

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] .   (٢) [٥٦ / الواقعة / ٢٥] .

أى حقيقة الأمر ، وجلية الحال ، لا لبس فيه ولا ارتياب . والإضافة إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الحق اليقين، كما يقال : دار الآخرة ، والدار الآخرة ؛ أو بالعكس، أى اليقين الحق. أو من إضافة العام للخاص، أى كعلم الأمر اليقين. فالإضافة حينئذ لامية، أو بمعنى (من) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن، منعّمة أو معذّبة، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكافرين فى النار .

« فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى نزهه عما يصفونه به من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل ، قولًا وعملًا .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٧ ـ سورة الحديد

سميت به لأنه ناصر لله ولرسوله فى الجهاد ، فنزل منزلة الآيات الناصرة لله ولرسوله ، على أنه سبب لإقامة العدل ، كالقرآن . وأيضاً أنه جامع للمنافع ، فأشبهه أيضاً ، فسميت سورة ذكر فيه ، بذلك ـ أفاده المهايمىّ ـ .

وهى مدنية على الأصح ، بل قال النقاش : إنها مدنية بإجماع المفسرين ، ونظم آياتها ، وما تشير إليه ، يؤيده قطعاً .

وآيها تسع وعشرون .

روى الإمام أحمد[١] عن عرباض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد . وقال : إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية . وهكذا رواه أبو داود والترمذىّ والنسائىّ . قال ابن كثير : والآية المشار إليها فى الحديث هى ـ والله أعلم ـ قوله تعالى (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ . . .) الآية ، لما سيأتى بيانه ـ والله أعلم ـ .

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى أظهر كل موجود تنزيهه عن الشريك والولد ، وكل ما لا يليق به ، وآذن بانفراده فى ألوهيته ، وتدبيره وعلمه وقدرته . فإن من شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على حال من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لاتنقضى عجائبه ، ولا تنتهى غاياته ـ فبالضرورة يقضى بأن هذا الترتيب المحكم هو أثر خالق واحد ، مدبر لنظامه ، مريد لسيره فى سننه ، كما بسطناه فى (دلائل التوحيد) . « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القوىّ الذى يقهر كل ما فى السموات والأرض « الْحَكِيمُ » أى الذى رتب نظام كل موجود على ترتيب حكمىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى سلطانهما ، ونفوذ الأمر فيهما « يُحْيِي وَيُمِيتُ » أى يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء ، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى تام القدرة ، فلا يتعذر عليه شىء أراده من إحياء وإماتة وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ الْأَوَّلُ » أى السابق على كل موجود، من حيث إنه موجده ومحدثه «وَالْآخِرُ»

أى الباقى بعد فناء كل شىء « وَٱلظَّٰهِرُ » أى وجوده بالأدلة الدالة عليه. وقال ابن جرير[١]. أى الظاهر على كل شىء دونه ، وهو العالى فوق كل شىء ، فلا شىء أعلى منه «وَٱلْبَاطِنُ» أى باحتجابه بذاته وماهيته . أو العالم بباطن كل شىء . قال ابن جرير[١] : أى الباطن جميعَ الأشياء ، فلا شىء أقرب إلى شىء منه ، كما قال[٢] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) « وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » أى تام العلم ، فلا يخفى عليه شىء .

وقد روى الإمام أحمد[٣] عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم : اللهم ! رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شىء. وأنت الآخر فليس بعدك شىء. وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن ليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر ـ ورواه مسلم[٤] وغيره ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » قال القاشانى : أى من الأيام الإلهية ، وقيل : المعهودة ـ والله أعلم ـ . « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ » قال ابن جرير[٥] :

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٥٠ / قٓ / ١٦] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٤) أخرجه فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٦١ (طبعتنا).

(٥) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أى هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبّرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه ، فارتفع عليه وعلا . « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ » أى من خلقه كالأموات والبذور والحيوانات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى كالزروع « وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرَد والأقدار والأحكام « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة والأعمال وغيرهما . « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ » قال ابن جرير(١) : أى وهو شاهد لكم ، أينما كنتم ، يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى (شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى سورة الحديد والمجادلة، فى آيتيهما، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم . قالوا :هو معهم بعلمه. وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتدّ بقوله . وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثورىّ وأحمد بن حنبل وغيرهم . قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية : هو على العرش وعلمه معهم ، وهكذا عمن ذكر معه . وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية فى (الرد على الجهمية) . ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى هاتين الآيتين ، وجاء خاصًّا كما فى قوله تعالى(٢) (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) وقوله(٣) (إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) وقوله(٤) (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) فلو كان المراد بذاته مع كل شىء، لكان التعميم يناقض التخصيص ، فإنه قد علم أن قوله (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) أراد به تخصيصه وأبا بكر، دون عدوّهم من الكفار . وكذلك قوله (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)، خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية، ليست فى لغة العرب، ولا شىء من

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] . (٣) [٢٠ / طه / ٤٦] .
(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] .

القرآن ، أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى ، كما فى قوله[١] (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ) وقوله[٢] (فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقوله[٣] (ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ) وقوله[٤] (وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله[٥] (وَهُوَ مَعَكُمْ) يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً ، فإنه افتتح الآية بالعلم ، وختمها بالعلم ، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به . وقد بُسِط الكلام عليه فى موضع آخر ، وبيّن أن لفظ المعية فى اللغة ، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقاربة ، فهو إذا كان مع العباد، لم ينافِ ذلك علوّه على عرشه، ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه .فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد . انتهى .

وقال الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسىّ رضى الله عنه فى كتاب (ذم التأويل) :

فإن قيل :فقد تأولتم آيات وأخباراً ، فقلتم فى قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) أى بالعلم ، ونحو هذا من الآيات والأخبار ، فيلزمكم ما لزمنا ؟

قلنا : نحن لم نتأول شيئاً، وحملُ هذه اللفظات على هذه المعانى ليس بتأويل، لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعانى هى الظاهر من هذه الألفاظ ، بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها . وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه ، حقيقة كان أو مجازاً . ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية، المجاز دون الحقيقة، كاسم الراوية والظعينة وغيرهما من الأسماء العرفية، فإن ظاهر هذا ، المجاز دون الحقيقة . وصرفها إلى الحقيقة يكون تأويلاً يحتاج إلى دليل . وكذلك الألفاظ التى لها عرف شرعىّ ، وحقيقة لغوية ، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنما ظاهرها العرف الشرعىّ دون الحقيقة اللغوية . وإذا تقرر هذا ، فالمتبادر

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٦] .
(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] . (٤) [٨ / الأنفال / ٧٥] .
(٥) [٥٧ / الحديد / ٤] .

إلى الفهم من قولهم (إن الله معك) أى بالحفظ والكلاءة . ولذلك قال الله تعالى فيما أخبر عن نبيّه[١] (إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا)، وقال لموسى[٢] (إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) ، ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص ، لوجوده فى حق غيرهم ، كوجوده فيهم ، ولم يكن ذلك موجباً لنفى الحزن عن أبى بكر ، ولا علة له . فعلم أن ظاهر هذه الألفاظ هو ما حملت عليه ، فلم يكن تأويلا . ثم لو كان تأويلا فما نحن تأوّلناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم ، الذين ثبت صوابهم ، ووجب اتباعهم ، هم الذين تأوّلوه . فإن ابن عباس والضحاك ومالكا وسفيان وكثيراً من العلماء قالوا فى قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) أى علمه . ثم قد ثبت بكتاب الله ، والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف ؛ أن الله تعالى فى السماء على عرشه ، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوفة بها دالة على إرادة العلم منها ، وهو قوله[٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) ثم قال فى آخرها (إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) . فبدأها بالعلم ، وختمها به ، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم ، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه ، وهذه قرائن كلها دالة على إرادة العلم ، فقد اتفق فيها هذه القرائن ، ودلالة الأخبار على معناها ، ومقالة السلف وتأويلهم . فكيف يلحق بها مايخالف الكتاب والأخبار ومقالات السلف ؟ فهذا لايخفى على عاقل إن شاء الله تعالى ، وإن خفى فقد كشفناه وبيّناه بحمد الله تعالى . ومع هذا لو سكت إنسان عن تفسيرها وتأويلها لم يخرج ولم يلزمه شيء ، فإنه لايلزم أحداً الكلام فى التأويل إن شاء الله تعالى . انتهى كلام ابن قدامة رحمه الله .

« وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

---

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ)

[٦] (يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) .

« لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ » أى أمور جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه . « يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ » أى يدخل ما نقص من ساعات أحدهما فيجعله زيادة فى الآخر بحكمته وتقديره . « وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم من خير أو شر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

« ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » أى آمنوا الإيمان اليقينىّ ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذى موّلكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرّف فيه بحكم الشرع ، إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرّف إنما هو بحكمه فى شريعته ـ أفاده القاشانىّ ـ .

وقال الشهاب : الخلافة إمّا عمّن له التصرّف الحقيقىّ ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله (لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ، أو عمّن تصرّف فيها قبلهم ممن كانت فى أيديهم فانتقلت لهم . وعلى كلٍّ ، ففيه حثّ على الإنفاق ، وتهوينٌ له . أما على الأول فظاهر . لأنه أذن له فى الإنفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتكثيره . وعلى الثانى أيضاً، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لا يدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولابدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ[1]

« فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ » أى وما يصدّكم عنه، وقد ظهرت دواعيه، واتضحت سبله لذويه كما قال « وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ » أى يدعوكم من طريق النظر والتفكُّر إلى الإيمان بالذى ربّاكم بنعمه ، وصرّفكم بآلائه ، فوجب عليكم شكره . « وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ » أى بالإيمان ، إذ ركّب فيكم العقول ، ونصب الأدلّة ، ومكّنكم من النظر ، بل أودع فى فطركم ما يضطركم لذلك إذا نُبهتم، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول، فما عليكم إلا أن تأخذوا فى سبيله . « إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » قال القاشانىّ : أى إن بقى نور الفطرة والإيمان الأزلىّ فيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

« هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » أى حُجَجًا واضحات، وبراهين قاطعات، « لِّيُخْرِجَكُم » أى الله ، أو عبده بآياته « مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » أى من ظلمات

(١) قائله لبيد ، من قصيدته التى مطلعها :

بَلينا وما تبلَى النجومُ الطوالعُ وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانعُ

(الشعر والشعراء ص ٢٣٦).

الجهل والكفر والأهواء المتضادّة، إلى نور الهدى واليقين، الذى تشعر به النفوس، وتطمئن به القلوب . « وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » أى فى إنزاله الكتب ، وإرساله الرسل لهدايتكم ، إزاحة للعلل ، وإزالة للشبه .

ولما كان إنزال هذه السورة للأمر بالإنفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه، أكثر من ذكره فى ضروب من البيان ، وفنون من الأحكام . ولذا قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ، أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ، وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى يرث كل شىء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال . وإذا كان كذلك ، فما أجدر أن ينفق المرء فى حياته ، ويتخذه ذخراً يجده بعد مماته .

قال الشهاب : هذا من أبلغ ما يكون فى الحث على الإنفاق ، لأنه قرنه بالإيمان أولًا لما أمرهم به ، ثم وبخهم على ترك الإيمان ، مع سطوع براهينه، وعلى ترك الإنفاق فى سبيل من أعطاه لهم ، مع أنهم على شرف الموت، وعدم بقائه لهم إن لم ينفقوه. وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه ، أعم من الجهاد وغيره . وقصر بعضهم إياه على الجهاد، لأنه فرده الأكمل ، وجزؤه الأفضل ، من باب قصر العامّ على أهم أفراده وأشملها ، لاسيما وسبب النزول كان لذلك .

« لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ » أى من قبل فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، وقاتل لتعلو كلمة الحق . ومن أنفق من بعد وقاتل فى حال قوة الإسلام ، وعزة

أهله . فحذف الثـاني لوضوح الدلالة عليه . فإن الاستواء لايتم إلا بذكر شيئين . على أنه أشير إليه بقوله مستأنفاً عنهم ، زيادة فى التنويه بهم: « أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ » أى لعظم موقع نصرة الرسول ، صلوات الله عليه ، بالنفس ، وإنفاق المال فى تلك الحال ، وفى المسلمين قلة ، وفى الكافرين شوكة وكثرة عدد . فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح ، فإن الإسلام صار فى ذلك الوقت قوياً ، والكفر ضعيفاً . ويدل عليه قوله تعالى[1] (وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ) وقوله عليه الصلاة والسلام [2] : لاتسبوا أصحابى ، فلو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً مابلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه . وهذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ ـ أفاده الرازيّ ـ .

وفى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن للصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم ، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، لأن الأجر على قدر النصب . انتهى .

« وَكُلًّا » أى وكل واحد من الفريقين « وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، لا الأولين فقط ، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء .

قال ابن كثير : وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر ، فيمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه .

« وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى من النفقة فى سبيله ، وجهاد أعدائه ، وغير ذلك فيجازيكم على جميع ذلك .

قال ابن كثير : ولخبرته تعالى ، فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك . وماذاك إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التامّ ، وإنفاقه فى حال الجهد

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٢١ (طبعتنا) . عن أبى هريرة .

والقلة والضيق . وفى الحديث(١) :سبق درهم مائة ألف . ولاشك عند أهل الإيمان أن الصدّيق أبا بكر رضى الله عنه ، له الحظّ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

« مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال أبو السعود : ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين . أى : من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه . وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات له . فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً فى أفضل جهات الإنفاق . وذلك إما بالتجوز فى الفعل ، فيكون استعارة تبعية تصريحية ، أو فى مجموع الجملة ، فيكون استعارة تمثيلية . وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة فى القتال ، وآخرون على نفقة العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكلّ من أنفق فى سبيل الله بنيّة خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية .

وهو جلىّ ، وقد أسلفنا بيانه مراراً .

وقوله تعالى « فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ » أى يعطيه ثوابه أضعافاً مضاعفة ، « وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ » أى جزاء شريف جميل . والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كَمُّهُ ، زاد كَيْفُهُ .

---

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٤٩ ـ باب جهد المقلّ ، عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

« يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم » أى : لكونهم على الصراط المستقيم ، متوجهين إليه تعالى . و (النور) إما حقيقىّ حسىّ ، على ما روى عن ابن مسعود : أن نورهم على قدر أعمالهم ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، فدون ذلك . قيل : وإنما خصصت تلك الجهات ، لأن منها أخذت صحف الأعمال ، فجعل الله معها نوراً يعرف به أنهم من أصحاب اليمين وإما مجازىّ معنوىّ مراد به ما يكون سبباً للنجاة ، واختاره ابن جرير [١] ، وأيده بقوله : لو عنى بذلك النور ، الضوءَ المعروف ، لم يخص عنه الخبر بالسعى بين الأيدى والأيمان ، دون الشمائل ، لأن ضياء المؤمنين الذين يؤتونه فى الآخرة يضىء لهم جميع ماحولهم ، وفى تخصيص الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم ، دون الشمائل ، ما يدل على أنه معنىّ به غير الضياء وإن كانوا لا يخلون من الضياء . فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا : وكلاًّ وعد الله الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعى ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى أيمانهم كتب أعمالهم تطايَرُ . ويعنى بقوله (يسعى) يمضى والباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (فى) وكان بعض نحويى البصرة يقول : الباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (على أيمانهم)وقوله « يوم ترى » من صلة (وَعَدَ) . انتهى .

« بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ » أى : يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة : بشراكم أى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

المبشَّر به جنات أو بشرا كم دخول جنات . وقد قيل: إن البشارة تكون بالأعيان فلا حاجة لتقدير مضاف تصحيحاً للحمل .

« تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ)

« يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ » أى: نُصِبْ منه . يقال : اقتبس ، أى : أخذ قبساً ، وهو الشعلة . و (انظرونا) بمعنى انظروا إلينا ، على الحذف والإيصال، لأن النظر بمعنى مجرد الرؤية، يتعدى بـ (إلى) فإن أريد التأمل تعدى بـ (فى). وقولهم ذلك، إما حينما يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً، والمنافقون فى العرصات شاخصون إليهم ، أو حينما يشرفون من الغرف على المنافقين ، وهم فى ضوضائهم وجلبتهم فى جهنم، كقوله تعالى[(١)] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ...) الآية . وقيل: (انظرونا) بمعنى انتظرونا، وهو الذى عول عليه ابن جرير[(٢)] . والمراد حينئذ من الانتظار للاقتباس ، هو رجاء شفاعتهم لهم ، أو دخولهم الجنة معهم طمعاً فى غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حينما يسرع بهم إلى الجنة .

« قِيلَ » أى : قالت الملائكة أو المؤمنون ، « ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا » قال الزمخشرىّ : طردٌ لهم ، وتهكم بهم . أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هـذا النور

(١) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فالتمسوه هناك ، فمن ثم يقتبس . أو ارجعوا إلى الدنيـــا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا ، فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لانور وراءهم ، وإنما هو تخييب وإقناط لهم . وكلامه يدل على حمل النور على حقيقته . ولا مانع من أنه كنى به عن الإيمان والعمل الصالح . أى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا إيماناً وعملًا طيباً يهديكم إلى النجاة ، كما أن النور يهدى فى الظلمات، على طريق الاستعارة . والأمر للتخسير والتنديم . وهذا ، مع ما ذكره الزمخشرىّ رحمه الله ، وجه رابع .

ونقل الرازىّ عن أبى مسلم؛ أن المراد من قول المؤمنين (ارجعوا) منع المنافقين عن الاستضاءة. كقول الرجل لمن يريد القرب منه: وراءك أوسع لك. قال الرازىّ: فعلى هذا القول، المقصودُ من قوله (ارجعوا) أن يقطعوا بأنه لاسبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب، لأنه أمرهم بالرجوع. انتهى . وهذا وجه خامس .

ثم أشار إلى امتياز الفريقين فى المنازل وتباينهما فيها، بقوله سبحانه: « فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ » أى : بين المؤمنين والمنافقين بحائط متين ، يحجزهم عن أنوار المؤمنين، لتتم ظلمتهم « لَّهُۥ » أى: لذلك السور « بَابُۢ » أى: لأهل الجنة يدخلون منه، ويرى به المنافقون المؤمنين ليكلموهم « بَاطِنُهُۥ » وهو الجانب الذى يلى المؤمنين « فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ » يعنى: الجنة وما فيها من رضوان الله والنعيم المقيم . « وَظَٰهِرُهُۥ » وهو الذى يلى المنافقين ، « مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ» أى : من عنده ، ومن جهته الظلمة والنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ)

[١٥] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ، هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

« يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ » يريدون موافقتهم فى الظاهر « قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ » أى محنتموها بالنفاق وأهلكتموها « وَتَرَبَّصْتُمْ » أى بالمؤمنين الدوائر، ليظهر الكفر فتظهروا ما فى أنفسكم « وَٱرْتَبْتُمْ » أى فى توحيد الله ، ونبوّة نبيّه ، أو فى البعث بعد الموت ، أو فى قوله[1] ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ووعده بنصر المؤمنين، أو فى جميع ذلك . « وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ » أى طول الآمال، والطمع فى امتداد الأعمار. أو قولهم: (سيغفر لنا) . « حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ » يعنى: الموت، أو مصداق وعده بنصره رسوله، وإظهاره دينه ، أو عذاب النار « وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ » أى الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة والفوز والغلبة . وقرئ (الغُرور) بالضم . « فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ » هذا من تتمة قول المؤمنين للمنافقين ، بعد أن ميز بينهم . أى فاليوم لا يقبل منكم ما يفتدى به ، بدلًا من عذابكم ، وعوضًا من عقابكم « وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » يعنى المجاهرين بالكفر من المحادّين لله ولرسوله « مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ » أى أولى بكم ، أو تتولاكم كما توليتم موجباتها فى الدنيا « وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » أى النار .

ثم نعى عليهم رخاوة عقدهم فيما ندبوا إليه من التصدق فى سبيل الله، بأن ذلك من أثر قلة العناية بالخضوع لذكره وتنزيله ، تعريضًا بالمنافقين ، وسوقًا للمؤمنين إلى الكمال ، فقال سبحانه :

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٣] و [٤٨ / الفتح / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ)

« أَلَمْ يَأْنِ » أى ألم يحن . من (أنى الأمر) يأنى ، إذا جاء إناه ، أى وقته « لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ » أى أن تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم وما يوجبه من الوجل منه والخشية ، أو لذكر وعده ووعيده . « وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ » يعنى القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع . قال أبو السعود : ومعنى الخشوع له ، الانقياد التامّ لأوامره ونواهيه ، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ، التى من جملتها ماسبق وما لحق من الإنفاق فى سبيل الله تعالى . وقد قيل : إن عطفه على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر ، وأن ذكر الله كلام الله ، بمعنى القرآن . وكذا مانزل من الحق ، فالعطف لتغاير العنوانين ، فإنه ذكر وموعظة ، كما أنه حق نازل . « وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ » أى الأجل والإمهال والاستدراج « فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » أى لزوال الخشية والروعة التى كانت تأتيهم من الكتابين « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ » أى خارجون عن دينهم ، نابذون لما فى كتابهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : فى الآية نهى للمؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فإنهم لما تطاول عليهم الأمد ، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فقست قلوبهم ، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه . ولهذا نهى المؤمنون أن يتشبهوا بهم فى شىء من

الأمور الأصلية والفرعية . ونظير الآية قوله تعالى[1] (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ...) إلى آخرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى فهو محييكم بعد مماتكم ومحاسبكم ، فلا منتدح لكم عن الجزاء . أى فاحذروا مغبة القسوة والفسق . «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ» أى الحجج وضروب الأمثال « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتثوبوا إلى عقولكم ومراشدكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[١٩] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ، وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ)

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ » أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله «وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ، وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ» أى لتصديقهم بجميع أخبار الله وأحكامه ، وشهادتهم بحقية جميع ذلك . وقد جوز فى الشهداء وجهان :

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] و [٥ / المائدة / ١٣] .

obeikandl.com

أحدهما ـ أن يكون معطوفاً على ما قبله ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وهو الظاهر ، لأن الأصل الوصل لا التفكيك .

والثانى ـ أن يكون مبتدأ ، خبره (لَهُمْ أَجْرُهُمْ) . و (ٱلشُّهَدَآءُ) حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم ، أو الذين قتلوا فى سبيل الله . واختار الوجه الثانى ابن جرير[١] ، قال : لأن الإيمان غير موجب فى المتعارف للمؤمن اسم (شهيد) لا بمعنى غيره ، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان فيه بعض البعد ، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل[٢] فتأويل قوله (وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ) إذن ، والشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ، أو هلكوا فى سبيله ، عند ربهم ، لهم ثواب الله فى الآخرة ونورهم . انتهى .

ثم رأيت لابن القيّم فى (طريق الهجرتين) بسطاً لهذين الوجهين فى بحث الصديقية . ننقله لنفاسته . قال رحمه الله فى مراتب المكلفين فى الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة ـ ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق ، بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصديقية . ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى[٣] (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقاً) . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة . وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون فى العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته . فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه . وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) قوله : بغير وصل ، أى كقوله : (شهداء على الناس) .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] .

obeikandi.com

الحق ، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. وقال تعالى[١] (وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) قيل : إن الوقف على قوله (هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ) ثم يبتدئ (وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ) فيكون الكلام جملتين ، أخبر فى إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه .وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين، هنا، وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء فى كلام النبي ـ[٢] فى قوله : (اثبت أُحُدُ فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيد) ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصديق . ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضى الله عنه .

وقيل : إن الكلام جملة واحدة ، أخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم . وعلى هذا ، فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهى قوله[٣] : (لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا، وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة (المؤمنين الصديقين) .

وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله . وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قوله (وَٱلشُّهَدَآءُ) مبتدأ خبره مابعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً فى سبيل الله . ويرجحه أيضاً أنه لو كان (الشهداء) داخلاً فى جملة الخبر ، لكان قوله (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) داخلاً أيضاً فى جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبي ﷺ : لو كنت متخذاً خليلًا، حديث ١٧٢٨ ، عن أنس .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

أحدها ـ أنهم هم الصدّيقون .

والثانى ـ أنهم هم الشهداء .

والثالث ـ أن لهم أجرهم ونورهم .

وذلك يتضمن عطف الخبر الثانى على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف . وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال . والأحسن فى هذا تناسب الأخبار ، بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعا ، فتقول . زيد كريم عالم له مال ؛ أو كريم وعالم وله مال ، فتأمله ! ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملًا مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون فى الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً . فهؤلاء ثلاثة أصناف . ثم ذكر الرسل فى قوله تعالى [١] ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة فى سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار ومنافقون ، فقال [٢] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ ..﴾ الآية. وذكر المنافقين فى قوله [٣] ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ﴾ الآية فهؤلاء أصناف العالم كلهم . وترك سبحانه ذكر المخلّط صاحب الشائبتين، على طريق القرآن فى ذكر السعداء والأشقياء ، دون المخلطين غالباً ، لسرٍّ اقتضته حكمته . فليحذر صاحب التخليط ، فإنه لاضمان له على الله ، فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولاييأس من روح الله، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب ، ولكنه بين الجنة والنار ، واقف بين الوعد والوعيد ، كل منهما يدعوه إلى موجبه لأنه أتى بسببه . وهذا هو الذى لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين ، ولكن غلطوا فى تخليده فى النار ، ولو نزلوه بين المنزلتين ، ووكلوه إلى المشيئة لأصابوا . انتهى كلام ابن القيم ، وفيه موافقة لما اختاره ابن جرير فى الآية .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ١٣] .

ولما ذكر تعالى السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء ، وبين حالهم بقوله : «وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ» .

ثم حقر تعالى أمر الدنيا ، وبين حاصل أمرها عند أهلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ، وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ، وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ)

«ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ» أى تفريح نفس «وَلَهْوٌ» أى باطل «وَزِينَةٌ» أى منظر حسن «وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ» أى فى الحسب والنسب «وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ» أى مطر «أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ» أى الزراع «نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ» أى يجف بعد خضرته ونضرته «فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا» أى من اليبس «ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا» أى هشيماً متكسراً ، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات «وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ» أى لمن ترك طاعة الله، ومنع حق الله «وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ» أى فى الآخرة لمن أطاع الله ، وأدى حق الله من ماله. «وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ» قال المهايمى : يأخذ صاحبها ملاعب الدنيا بدل ملاعب الحور العين . ولهوها بملاذ الجنة . وزينتها بزينة الجنة . والتفاخر بدل التفاخر بجوار الله والقرب، والتكاثر بالأموال والأولاد بدل نعم الله والولدان المخلدين فى الجنة .

ولما حقر الحياة الحسية النفسية الفانية ، وصورها فى صورة الخضراء السريعة الانقضاء، دعاهم إلى الحياة الباقية ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)

« سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » أى بادروا بالتوبة من ذنوبكم ، إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ » أى الإيمان اليقينىّ . « ذَٰلِكَ » أى المغفرة والجنة «فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ » أى ممن كان أهلا له« وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »قال ابن جرير[(١)] أى بما بسط لخلقه من الرزق فى الدنيا ، ووهب لهم من النعم ، وعرّفهم موضع الشكر ، ثم جزاهم فى الآخرة على الطاعة ، ما وصف أنه أعدّه لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)

[٢٣] (لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[٢٤] (ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ)

« مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ » أى من قحط وجدب ووباء وغلاء « وَلَا فِى

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandi.com

أَنفُسِكُمْ » أى من خوف ومرض وموت أهل وولد ، وذهاب مال « إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ » أى إلا فى علم أزلىّ من قبل خلق المصيبة أو الأنفس . وما علم الله كونه فلابد من حصوله « إِنَّ ذَٰلِكَ » أى حفظه وتقديره على الأنفس المبروءة ما قدر ، « عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أى لسعة علمه وإحاطته « لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ » أى تحزنوا « عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ » أى من عافية ورزق ونحوها « وَلَا تَفْرَحُوا۟ » أى تبطروا « بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ » أى من نعم الدنيا . والمعنى : أعلمناكم بأنا قد فرغنا من التقدير ، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير ، فلا الحزن يدفعه ، ولا السرور يجلبه ويجمعه . قال القاشانىّ : أى لتعلموا علماً يقينيًّا أن ليس لكسبكم وحفظكم وحذركم وحراستكم فيما آتاكم ، مدخل وتأثير . ولا لعجزكم وإهمالكم وغفلتكم وقلة حيلتكم ، وعدم احترازكم واحتفاظكم فيما فاتكم مدخل . فلا تحزنوا على فوات خير ، ونزول شر ، ولا تفرحوا بوصول خير . وزوال شر ، إذ كلها مقدرة « وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ » أى متبختر من شدة الفرح بما آتاه « فَخُورٍ » أى به على الناس ، لعدم يقينه ، وبعده عن الحق ، بحب الدنيا ، واحتجابه بالظلمات عن النور « ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ » أى بالإنفاق فى سبيل الله ، لشدة محبة المال « وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ » أى لاستيلاء الرذيلة عليهم . والموصول إما مبتدأ وخبره محذوف ، أى لهم وعيد شديد ، أو خبر ومبتدؤه محذوف ، أى هم الذين ، أو بدل من (كل). « وَمَن يَتَوَلَّ » أى يعرض عن ذكر الله ، وما أمر به « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ » أى عنه ، لاستغنائه بذاته « ٱلْحَمِيدُ » أى لاستقلاله بكماله . وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ، لا لما يعود عليه تعالى ، فإنه الغنىّ المطلق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالحجج والبراهين القاطعة على صحة مايدعون إليه «وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ» أى التامّ فى الحكم والأحكام «وَالْمِيزَانَ» أى العدل ـ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ـ قال ابن كثير : وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أى بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا عنه. فإن الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق، كما قال[١] (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلًا فى الأوامر والنواهى ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات[٢] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعنى القتال به ، فإن آلات الحروب متخذة منه «وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ» أى فى مصالحهم ومعايشهم ، فما من صناعة إلا وللحديد يدٌ فيها .

فإن قيل : الجمل المتعاطفة لابد فيها من المناسبة ، وأين هى فى إنزال الحديد مع ما قبله ؟

فالجواب : أن بينهما مناسبة تامة، لأن المقصود ذكر مايتم به انتظام أمور العالم فى الدنيا، حتى ينالوا السعادة فى الأخرى . ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله فى الدارين بالكتب والشرائع المطهرة. ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم. ومن تمرد وطغا وقسا يضرب بالحديد ، الرادّ لكل مريد . وإلى الأولين أشار بقوله[٣]

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٣] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

(وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ) لجمعهم وأتباعهم فى جملة واحدة . وإلى الثالث أشار بقوله (١) (وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ) فكأنه قال : أنزلنا ما يهتدى به الخواصّ ، وما يهتدى به أتباعهم ، ومايهتدى به من لم يتبعهم ، فهى حينئذ معطوفة ، لامعترضة لتقوية الكلام كما توهم ، إذ لا داعى له ، وليس فى الكلام مايقتضيه ، بل فيه ما ينافيه .

قال العتبيّ فى أول (تاريخه) : كان يختلج فى صدرى أن فى الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافراً ، وسألت عنه فلم أحصل على مايزيح العلة وينقع الغلة ، حتى أعملت التفكر ، فوجدت (الكتاب) قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادى والتظالم ، ودفع التباغى والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة ، فلذا جمع (ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ) وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف ، وجذوة عقابه ، وعذب عذابه ، وهو (الحديد) الذى وصفه الله بالبأس الشديد . فجمع بالقول الوجيز ، معانى كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادئ والمقاطع ـ نقله الشهاب ـ .

وأوّل القاشانىّ (البينات) بالمعارف والحكم ، و (الكتاب) بالكتابة ، و(الميزان) بالعدل ، لأنه آلته ، و (الحديد) بالسيف ، لأنه مادته . قال : وهى الأمور التى بها يتم الكمال النوعىّ ، وينضبط النظام الكلىّ ، المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد ، إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول ، هو العلم والحكمة . والأصل المعول عليه فى العمل ، والاستقامة فى طريق الكمال ، هو العدل . ثم لاينضبط النظام ، ولايتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم اللذين يتم بهما أمر السياسة . فالأربعة هى أركان كمال النوع ، وصلاح الجمهور . ويجوز أن تكون (البينات) إشارة إلى المعارف والحقائق النظرية و (الكتاب) إشارة إلى الشريعة والحكم العملية و (الميزان) إلى العمل بالعدل والسوية و (الحديد) إلى القهر ودفع شرور

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

البرية . وقيل : (البينات) العلوم الحقيقية ، والثلاثة الباقية هى النواميس الثلاثة المشهورة المذكورة فى الكتب الحكمية . أى الشرع ، والدينار المعدل للأشياء فى المعاوضات ، والملك. وأيًّا ما كان فهي الأمور المتضمنة للكمال الشخصىّ والنوعىّ فى الدارين ، إذ لا يحصل كمال الشخص إلا بالعلم والعمل ، ولا كمال النوع إلا بالسيف والقلم . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن الإنسان مدنىّ بالطبع ، محتاج إلى التعامل والتعاون ، لا تمكن معيشته إلا بالاجتماع. والنفوسُ إما خيّرة أحرار بالطبع ، منقادة للشرع ، وإما شريرة عبيد بالطبع آبية للشرع . فالأولى يكفيها فى السلوك طريق الكمال والعمل بالعدالة واللطف وسياسة الشرع . والثانية لابدّ لها من القهر وسياسة الملك . انتهى .

تنبيه :

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة فى معنى نزول القرآن ولفظ النزول ، حيث ذكر فى كتاب الله تعالى ، بيّن فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول فى مواضع من القرآن بغير ماهو معناه المعروف ، لاشتباه المعنى فى تلك المواضع . وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع . وحقق رحمه الله أن ليس فى القرآن ولا فى السنة لفظ (نزول) إلا فيه معنى النزول المعروف . قال : وهو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب منزولًا إلا بهذا المعنى . ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها . ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى ، فى معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا . قال : وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق فى المعادن . وما يذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة ـ فهو كذب لا يثبت مثله . وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبىّ عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبيّ ﷺ ؛ أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، فأنزل الحديد والماء والنار والملح ـ حديث موضوع مكذوب والناس يشهدون أن هـذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون .

فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للعيان .

وإن قيل : بل نزل معه آلة واحدة ، وتلك لا تعرف ، فأي فائدة في هذا لسائر الناس ؟ ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات ؟ وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه ، الذي به يُنصر الله ورسوله ﷺ . وهذا لم ينزل من السماء .

فإن قيل: نزلت الآلة التي يطبع بها. قيل: فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعاني المتقدمة، والآلة وحدها لا تكفي ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد .

ثم قال : وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق ، لأنه أخرجه من المعادن ، وعلمهم صنعته ، فإن الحديد إنما يخلق في المعادن ، والمعادن إنما تكون في الجبال . فالحديد ينزله الله من معادنه التي في الجبال ، لينتفع به بنو آدم . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى « وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ » أي باستعمال الحديد في مجاهدة أعدائه . عطف على محذوف دلّ عليه ما قبله . أي لينتفعوا به ويستعملوه في الجهاد ، وليعلم الله . . . الخ . وحذف المعطوف عليه إيماء إلى أنه مقدمة لما ذكر، وهذا المقصود منه. أواللام متعلقة بمحذوف . أي أنزله ليعلم. . . الخ والجملة معطوفة على ماقبلها . فحذف المعطوف، وأقيم متعلقه مقامه. وقيل عطف على (لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ) . قال الشهاب : وهو قريب بحسب اللفظ ، بعيد بحسب المعنى .

« إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ » أي على إهلاك من أراد إهلاكه « عَزِيزٌ » أي غالب قاهر لمن شاء .

---

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ، فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

[٢٧] ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم » أى من الذرية « مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ » أى خارجون عن طاعته ، بترك نصوص كتبه وتحريفها ، وإيثار آراء الأحبار والرهبان عليها ، واجترام ما نهوا عنه « ثُمَّ قَفَّيْنَا » أى أتبعنا « عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً » أى حناناً ورقة على الخلق ، لكثرة ما وصى به عيسى عليه السلام ، من الشفقة وهضم النفس والمحبة . وكان فى عهده أمتان عظيمتا القسوة والشدة : اليهود والرومان . وهؤلاء أشد قسوة ، وأعظم بطشاً ، لاسيما فى العقوبات . فقد كان لهم أفانين فى تعذيب النوع البشرىّ بها . ومنها تسليط الوحوش المفترسة عليه ، وتربيتها لذلك ، مما جاءت البعثة المسيحية على أثرها ، وجاهدت فى مطاردتها ، وصبرت على منازلتها ، حتى ظهرت عليها بتأييده تعالى ونصره ـ كما بيّنه آخر سورة الصف ـ . « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ » أى ما فرضناها عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم . « إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ » استثناء منقطع . أى ولكنهم ابتدعوها طلبَ مرضاة الله عنهم . « فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » أى ما قاموا بما التزموه منها حق القيام من التزهّد ، والتخلّى

للعبادة وعلم الكتاب ، بل اتخذوها آلة للترؤس والسؤدد ، وإخضاع الشعب لأهوائهم . « فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ » يعنى الذين آمنوا الإيمان الخالص عن شوائب الشرك والابتداع . ومنه الإيمان بمحمد صلوات الله عليه ، المبشر به عندهم . « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ » أى خارجون عن مواجب الإيمان ومقاصده .

تنبيهات

الأول ـ (الرهبانية) هى المبالغة فى العبادة والرياضة ، والانقطاع عن الناس ، وإيثار العزلة والتبتل . وأصلها الفعلة المنسوبة إلى الرَّهبان ، وهو الخائف . (فعلان) من رهب ، كـ (خشيان) من خشى .

الثانى ـ قال ابن كثير فى قوله تعالى : (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) : ذمٌّ لهم من وجهين :

أحدهما ـ فى الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله .

والثانى ـ فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل .

الثالث ـ رأيت فى كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة (الرهبنة) وما كان لتأثيرها فى النفوس والأخلاق من المفاسد والأضرار . فقد قال صاحب (ريحانة النفوس) منهم ، فى الباب السابع عشر ، فى الرهبنة :

إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشرة الناس ، واستعمال التقشفات والتأملات الدينية ، هى ذات شأن عظيم . ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم فى الكتب المقدسة لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادانه باستقامة ، فإنهم لم يعتزلوا عن الاختلاط بالناس ، لكى يعيشوا بالانفراد ، بل إنما كانوا دائماً مختلطين بالعالم ، يعلّمون وينصحون . ونحن نقول بكل جراءة : إنه لا يوجد فى جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة ، ولا يوجد أمر من أوامره يلزم بها . بل بالعكس ، فإن روح الكتاب وفحواه يضادّ كل دعوى مبنية على العيشة المنفردة المقرونة بالتقشفات . ولكن مع أن الكتاب المقدس لا يمدح العيشة الانفرادية ، فقد

ظهر الميل الشديد إليها فى الكنيسة ، فى أواخر الجيل الثانى وأوائل الجيل الثالث . وأيد بعض الباحثين المقاومين لها وقتئذ، أنها عادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانيين. فإن لهم أنواعا كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأموراً أخرى مقرونة بخرافات .

ثم قال: ومع أن الرهبنة حصل عليها مقاومة من العقلاء، امتدت وانتشرت فى المسكونة. وكان ابتداؤها فى مصر فى الجيل الرابع ، على أثر اشتهار أحد الرهبان وممارسته التقشفات ، بسبب الاضطهاد الذى أصابه ، وآثر لأجله الطواف فى البرارى، فراراً من أيادى مضطهديه. ثم عكف على الوحدة ، وعاش بها، وذلك فى الجيل الثالث. ثم امتدت من مصر إلى فلسطين وسورية إلى أكثر الجهات. توهما بأن رسم المسيحية الكاملة لايوجد إلا فى العيشة الضيقة القشفة ، فدعا ذلك كثيرين إلى ترك العيشة المألوفة بالاعتزال فى الأديرة . مع أن ذلك الوهم باطل ، ومضادّ للكتب المقدسة . ولما كثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار عظيمة للمجتمع ، أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هذه العادة ، إلا أنها لم تنجح كثيراً .

وأما بدعة العزوبة والتبتل ، فنشأت مِنْ حَضّ بولس عليها ، وترغيبهم فيها ، كما أفصح عنه كلامه فى آخر الفصل السابع من رسالته الأولى .

وقد قال صاحب (ريحانة النفوس) أيضا : إن هذه العادة لايوجد لها برهان فى الكتاب المقدس . وإنما دخلت بالتدريج ، لما خامرهم من توهم أفضلية البتولية ، وظنهم أنها أزكى من الزواج، ومدح من جاء على أثرهم لها مدحاً بالغاً النهاية فى الإطراء، فحسبوها من الواجبات الأدبية المأمور بها ، ووضع نظام وقوانين لوجوبها فى الجيل الثالث ، حتى قاومتها كنائس أخرى ، ورفضت بدعة البتولية وقوانينها ، لمغايرتها للطبيعة ، ومضادتها لنص الكتب الإلهية ، واستقرائها أديرة الراهبات ، بأنها فى بعض الأماكن كانت بيوتاً للفواحش والفساد .

وفى كتاب (البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابا وية) إن ذم الزيجة خطأ لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة ، وإن الأكثرين من رسل المسيح كانو ذوى نساء ، تجول معهم . ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن تستوفيه ، وليس بمحرم عليها استيفاؤه حسب الشريعة ، ولا استطاعة لجميع البشر على حفظ البتولية . ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والقسوس والشمامسة ، لابل من الباباوات المدعين بالعصمة ، قد تكردسوا فى هوة الزنا ، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعىّ . هذا وإن ذات النذر بالامتناع عن الزواج هو غير عادل ، لتضمنه سلب حقوق الطبيعة ، وكونه يضع الإنسان تحت خطر السقوط فى الزنا ، ويفتح باباً واسعا لدخول الشيطان . وكأن الراهب ينذر على نفسه مقاومة أمر الله ، ويعدم وجود ألوف ألوف ، ربما كانت تتولد من ذريته ، فكأنه قد قتلها . وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية قط . فالطريقة الرهبانية هى اختراع شيطانىّ قبيح ، لم يكن له رسم فى الكتب المقدسة ، ولا فى أجيال الكنيسة الأولى ، وهو مضر على أنفس الرهبان ، وعلى الشعب ، فمن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لا نفع منهم للرعية ، إنما هم كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران ، فيتنعمون وحدهم فى أديرتهم ، ويسلبون أموال الشعب بالحيل والمخادعات وهم كسالى بطّالون ، يعيشون من أتعاب غيرهم ، خلافاً لسلوك رسل المسيح ، والمبشرين القدماء ، الذين لم نر واحداً منهم انفرد عن العالم فى مكان نزهته ، واحتال بأن يعيش من أتعاب الشعب . إن بولس كان يخدم الكنائس ، ويعيش من شغل يديه ، وهو يوصى بأن الذى لا يعمل ، فلا يطعم . ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التى وقعت على العالم بسبب الرهبنات . انتهى ، وهو حجة عليهم ، منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » قال ابن كثير: حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما فى الآية التى فى (القصص) وكما فى حديث[(١)] الشعبيّ عن أبى بردة ، عن أبيه أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، فله أجران. وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مولاه، فله أجران. ورجل أدب أمَتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ـ أخرجاه فى الصحيحين ـ ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاكُ وعتبة بن أبى حكيم وغيرهما. وهو اختيار ابن جرير[(٢)] .

وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية فى حق هذه الأمة . والظاهر أن لفظها أعم ، وأن المقصود بها حث كل من آمن بالنبيّ ﷺ على الثبات فى الإيمان والرسوخ فيه ، والانصياع لأوامره . ومنه ماحرض عليه فى الآيات قبلها من الإنفاق فى سبيله ، وسخاوة النفس فيه . وأن لهم فى مقابلة ذلك أجراً وافراً، كما قال فى أول السورة: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فآخر السورة ، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به ، وماسبق نزولها لأجله .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣١ ـ باب تعليم الرجل أمَتَهُ وأهله ، حديث رقم ٨٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وأصل (الكفل) الحظ . وأصله ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط . والتثنية فى مثله إما على حقيقتها ، أو هى كناية عن المضاعفة . و (النور) هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده ، كما قال سبحانه[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)

« لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط . والتقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم ما ذكر ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا عدم قدرتهم على شيء من فضل الله ، وثبوت أن الفضل بيد الله . والمراد بالفضل ما آتاه المسلمين وخصهم به . لأنهم كانوا يرون أن الله فضلهم على جميع الخلق ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم ، ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فضلًا عن أن يتصرفوا فى أعظمه ، وهو النبوة ، فيخصوا بها من أرادوا ، وأن الفضل بيد الله دونهم ، ودون غيرهم من الخلق ، يؤتيه من يشاء من عباده .

و (لا) فى (لئلا) صلة . قال السمين : وهو حرف شاعت زيادته .

(١) [٨ / الأنفال / ٢٩] .

وقال ابن جرير[١] : وذكر أنّ فى قراءة عبد الله (لكى يعلم) . قال : لأن العرب تجعل (لا) صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحدٌ غير مصرح كقوله فى الجحد السابق الذى لم يصرح به[٢]: (مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) وقوله[٣] : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) . وقوله[٤] : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ...) الآية. ومعنى ذلك : أهلكناها أنهم يرجعون . انتهى .

ونقل الثعالبىّ فى (فقه اللغة) زيادتها فى عدة شواهد . فى فصل الزوائد والصلات التى هى من سنن العرب . فانظره ، تزدد علماً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٩] .
(٤) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٨ — سورة المجادلة

سميت بها ، لأنها لما كانت لطلب الحق والصواب ، أشبهت مجادلة الأنبياء والقرآن ، ولذلك سمع الله لصاحبها ـ قاله المهايمىّ ـ .

وهى مدنية ، وآيها اثنتان وعشرون .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ)

«قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ» روى الإمام أحمد[١] عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادِلة إلى النبيّ ﷺ تكلمه، وأنا فى ناحية البيت، ماأسمع ماتقول! فأنزل الله عز وجل (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ...) إلى آخر الآية. ورواه البخاريّ معلقاً. وفى رواية لابن أبى حاتم عن عائشة أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء . إنى أسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى عليّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول: يارسول الله ! أكل شبابى ، ونثرتُ له بطنى ، حتى إذا كبرت سنّى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ! اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت، حتى نزل جبريل بهذه الآية (قَدْ سَمِعَ ...) الخ. قال ابن كثير : ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقد تصغر فيقال (خويلة) . ولامنافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب .

وفى (العناية) . المرادمن قوله (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ) الخ قَبِل قولها وأجابه. كما فى: سمع الله لمن حمده ، مجازاً بعلاقة السببية أو كناية . انتهى .

وقوله : (وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ) أى تشتكى المجادِلةمالديها من الهم، بظهار زوجهامنها، إلى الله ، وتسأله الفرج .

---

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

ومعنى (تَحَاوُرَكُمَآ) ترجيعكما الكلام فى هذه النازلة . وذلك أن الظهار كان طلاق الرجل امرأته فى الجاهلية ، فإذا تكلم به لم يرجع إلى امرأته أبداً. وقد طمعت المشتكية أن يكون غير قاطع علقة النكاح، والنبىّ ﷺ لم يبت لها فيه الأمر، حتى ينزل الوحى الذى يردّ التنازع إليه . ثم أنزل تعالى فيه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

« ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم » يعنى قول الرجل لامرأته إذا غضب عليها: أنت علىّ كظهر أمى ، يعنى : فى حرمة الركوب . « مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ » أى ما نساؤهم اللاتى ظاهروا منهن بأمهاتهم . أى يصرن بهذا القول كأمهاتهم فى التحريم الأبدىّ .

قال المهايمىّ : ماهن أمهاتهم بالحقيقة، ولافى حكمهن بالمجاز، إذ لايقتضي المجاز أن يكون فى حكم الحقيقة ، إلا بقلب الحقائق ، لكنها لاتنقلب .

« إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ » أى فلا يشبه بهن فى الحرمة الأزواج «وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ » أى قولاً تنكره العقلاء ، وتتجافاه الكرماء. « وَزُورًا » أى باطلًا لاحقيقة له، لأنه يتضمن إلحاقها بالأمّ المنافى لمقتضى الزوجية . « وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ » أى لذنوب عباده ، إذا تابوا منها وأنابوا ، فلا يعاقبهم عليها بعد التوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ، ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

[٤] (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ، فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ » أى يرجعون إلى لفظ الظهار ثانية ، فالقول على حقيقته ، أو يعزمون على غشيانهن ووطئهن رغبة فى تحليلهن بعد تحريمهن ، فالقول بمعنى المقول فيه « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى الإمام أحمد (١) عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فىّ والله ! وفى أوس بن صامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً ، قد ساء خلقه وضجر . فدخل علىّ يوماً فراجعته بشىء ، فغضب فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل علىّ ، فإذا هو يريدنى على نفسى . قالت : قلت : والذى نفس خويلة بيده ! لا تخلص إلىّ وقد قلتَ ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم . قالت : فواثبنى ، فامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى . قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى ،

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤١٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

فاستعرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا خويلة ! ابن عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه . قالت : فو الله ! ما برحت حتى نزل فىّ القرآن ، فتغشى رسولَ الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرِّى عنه ، فقال لى : ياخويلة ! قد أنزل الله فيك وفى صاحبك . ثم قرأ على : (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ..) إلى قوله تعالى: (وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قالت: فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : مريه فليعتق رقبة . قالت : فقلت : يا رسول الله ! ماعنده ما يعتق! قال : فليصم شهرين متتابعين . قالت : فقلت : والله ! إنه لشيخ كبير ، مابه من صيام . قال: فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر. قالت : فقلت: والله ! يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنا سنعينه بفرق من تمر. قالت : فقلت : يارسول الله! وأنا سأعينه بفرق آخر . قال : قد أصبت وأحسنت ، فاذهبى فتصدق بهعنه ، ثم استوصى بابن عمك خيراً . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود : وعنده (خولة بنت ثعلبة) ، ولا منافاة كما تقدم ، فإن العرب كثيراً ما تصغرّ الأعلام .

وروى ابن جرير(1) عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية: أنت علىّ كظهر أمى، حرمت فى الإسلام . فكان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها ، فأسقط فى يديه ، وقال : ماأراك إلا قد حرُمت علىّ ، وقالت له مثل ذلك . قال : فانطلقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتت رسول الله ﷺ ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فأخبرته فقال : يا خويلة ! ما أُمِرْنا فى أمرك بشىء . فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ياخويلة ! أبشرى. قالت خيراً. قال فقرأعليها (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ . . .) إلى قوله : (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا) . قالت :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وأىّ رقبة لنا ؟ والله ! ما نجد رقبة غيرى! قال : (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ) قالت : والله ! لولا أنه يشرب فى اليوم ثلاث مرات لذهب بصره . قال: (فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً) . قالت : من أين ؟ ماهى إلا أكلة إلى مثلها ! قال : فرعاه بشطر وسق ثلاثين صاعاً ، والوَسق ستون صاعاً ، فقال : ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك . قال ابن كثير : إسناده جيّد قوىّ ، وسياق غريب . وقد روى عن أبى العالية نحو هذا .

تنبيهات :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية حكم الظهار ، وأنه من الكبائر ، وأنه خاص بالزوجات ، دون الأجنبيات ، وأن فيه بالعود كفارة ، وأنه يحرم الوطء قبلها ، وأنها مرتبة : العتقُ ، ثم صوم شهرين متتابعين ، ثم إطعام ستين مسكيناً . واستدلّ مالك بقوله (مِنكُم) على أن الكافر لايدخل فى هذا الحكم . وبقوله (مِّن نِّسَآئِهِم) على صحته من الزوجات والسرارىّ ، لشمول النساء لهنّ .

واستدلّ ابن جرير وداود وفرقة بقوله (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ) على أن العود الموجب للكفارة ، أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرر .

واستدلّ بإطلاق الرقبة من جوّز فى كفارة الظهار عتق الكافرة .

واستدلّ بظاهر الآية من لم ير الظهار إلا فى التشبيه بظهر الأمّ خاصّة ، دون سائر الأعضاء ، ودون الاقتصار على قوله (كأمى) ، وبالأم خاصة دون الجدّات وسائر المحارم من النسب أو الرضاع أو المصاهرة والأب والابن ونحو ذلك . ومن قال لاحكم لظهار الزوجة من زوجها ، لأنه تعالى خص الظهار بالرجل . ومن قال بصحة ظهار العبد لعموم (ٱلَّذِينَ) له . ومن قال بإباحة الاستمتاعات بناء على عدم دخولها فى لفظ المماسّة . ومن قال يجوز الوطء ونحوه قبل الإطعام إذا كان يكفر به ، لأنه لم يذكر فيه (مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا) .

وفى الآية ردٌّ على من أوجب الكفارة بمجرد لفظ الظهار ، ولم يعتبر العود . ووجه ما قاله أنه جعل العود فعله فى الإسلام بعد تحريمه .

وفيها رد على من اكتفى بإطعام مسكين واحد ، ستين يوما . انتهى .

وقوله تعالى (ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ) أى الحكم بالكفارة العظمى المذكورة ، تزجرون به .

وقوله تعالى (ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) أى ذلك البيان أو التعليم للأحكام، لتصدّقوا بالله ورسوله فى قبول شرائعه ، والانتهاء عن قول الزور الجاهلىّ .

والمراد بقوله تعالى (وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الجاحدون لفرائضه وحدوده التى بيّنها. فالكفر على حقيقته ، أو المتعدّون لها ، وعنوان (الكفر) تغليظا لزجرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ، وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فى مخالفة حدوده وفرائضه . وأصله من المحادّة ، بمعنى المعاداة ، لأن كُلًّا من المتعاديين فى حدّ غير حدّ الآخر . « كُبِتُوا۟ » أى أخزوا « كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » يعنى كفار الأمم الماضية . « وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » قال ابن جرير (١) : أى دلالات مفصّلات ، وعلامات محكمات ، تدلّ على حقائق حدود الله . « وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ » يعنى منكرى تلك الآيات وجاحديها .

تنبيه :

فسّر بعضهم (يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) بمعنى يضعون أو يختارون حدودًا غير حدودها.

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال محشّيه : ففيه وعيد عظيم للملوك ، وأمراء السوء ، الذين وضعوا أموراً خلاف ما حدّه الشرع، وسموها قانوناً .

وقال : وقد صنّف العارف بالله تعالى الشيخ بهاء الدين، قدّس الله روحه، رسالة في كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع ، إذا قابل بينهما، وقد قال الله تعالى[1] ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال لاتقبل التكميل . وإذا جاء نهر الله، بطل نهر معقل[2] . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن إطلاق الكفر لمجرد ذلك من غير تفصيل، فيه نظر . لأنه من تنطع الغالين من الفقهاء ، الذين زيّف أقوالهم في التكفير كثير من العلماء النحارير ، فإن التكفير ليس بالأمر اليسير . والحق في ذلك أن القانون الذي يهدم نصوص الشرع التي لا تحتمل التأويل ويبطلها وينسخها ، فإنه كفر وضلال . لايقول به ، ولا يعول عليه، إلا المارقون الجاحدون. وأما غير المنصوص عليه ، أعني ما لم يكن قاطعاً في بابه ، من آية محكمة ، أو خبر متواتر ، أو إجماع من الفروع النظرية، والمسائل الاجتهادية المدوّنة ، فمخالفتها إلى قانون عادل لايعدّ ضلالًا ولا كفرا ، لأنه ليس من مخالفة الشرع في شيء ، إذ الشرع ما شرعه الله ورسوله ، وأحكم الأمر فيه ، وبين بيانا رفع كل لبس ، لا ما تخالف فيه الفقهاء ، وكان مأخذه من الاجتهاد ، وإعمال الرأي ، فإن ذلك ، لا عصمة فيه من الخطأ، مهما بلغ رائيه من المكانة ، إذ لا عصمة إلا في نص الله ورسوله ﷺ . وكثيراً ما تتشابه فروع الفقهاء بمواد القانون ، ولذا ألف بعض المتأخرين كتابا في مطابقة المواد النظامية للفروع الفقهية . وذلك لأن مورد الجميع واحد ، وهو الرأي والاجتهاد ورعاية المصلحة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب في هذا المعنى سماه (السياسة الشرعية)، وكذا لتلميذه

---

(١) [٥ / المائدة / ٣] .

(٢) هو نهر معروف بالبصرة ، فمه عند فم نهر الإجّانة .

الإمام ابن القيّم ، وهو أوسع . ولنجم الدين الطوفى أيضا رسالة فى المصالح المرسلة ، جمعناها من شرحه للأربعين النووية . وقد أرجع العز بن عبد السلام فروع الفقه فى قواعده إلى قاعدتين : اعتبار المصالح ، ودرء المفاسد .

قال القاضي زكريا : وبحث بعضهم رجوع الجميع إلى جلب المصالح .

وقال الشاطبيّ فى (الموافقات) : إن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية ، وبأن تكون مصالح على الإطلاق ، فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبديًّا وكليًّا وعامًّا فى جميع أنواع التكليف والمكلفين من جميع الأحوال .

وقال نجم الدين الطوفى : إن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار)(١) يقتضى رعاية المصالح إثباتاً ونفيا ، والمفاسد نفيا، إذ الضرر هو المفسدة، فإذا نفاها الشرع لزم إثبات النفع الذى هو المصلحة ، لأنهما نقيضان ، لا واسطة بينهما . ثم إن أقوى الأدلة النص والإجماع ، وهما إما أن يوافقا رعاية المصلحة ، أو يخالفاها ، فإن وافقاها ، فبها ونعمتْ ، ولا تنازع . إذ قد اتفقت الأدلة الثلاثة على الحكم ، وهى النص والإجماع ، ورعاية المصلحة المستفادة من قوله عليه السلام (لا ضرر ولا ضرار) ، وإن خالفاها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما ، لا بطريق الافتئات عليهما ، والتعطيل لهما، كما تُقَدَّم السنّة على القرآن ، بطريق البيان . انتهى . وتتمة كلامه جديرة بالمراجعة ، هى وتعليقاتنا عليها ، فابحث ولا تكن أسير التقليد ، بل ممن ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام، ١٧ ـ باب من بَنَى فى حقه مايضرّ جاره ، حديث رقم ٢٣٤٠ ، عن عبادة بن الصامت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ، أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ » أى أحاط به علماً ، ولم يذهب عنه شىء « وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » أى رقيب ، يعلمه ولا يغيب عنه. و (يَوْمَ) منصوب بـ (اذكر) مضمراً . وتقدمة الإخبار بسعة علمه سبحانه ، تمهيدٌ لما بعده من النهى عن النجوى بالإثم ، تحذيراً وتنفيراً . وقد أكّد ذلك بتفصيل علمه عناية بالمنهىّ عنه ، والمحذّر منه ، فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ». (النجوى) مصدر ، معناها التحدث سرًّا ، مأخوذة من (النجوة) ، وهى ما ارتفع من الأرض ، لأن السر يصان عن الغير ، كأنه رفع من حضيض الظهور ، إلى أوج الخفاء ، على التشبيه .

قال الشهاب وأقرب منه قول الراغب، لأن المتسارّين يخلوان بنجوة من الأرض . أوهو من (النجاة) وتخصيص العددين ، إما لخصوص الواقعة ، فكان قوم من المنافقين ، على هذا العدد اجتمعوا مغايظة للمؤمنين ، أو لأن التناجي للمشاورة ، وأقله ثلاثة ، لأن التشاور لابد له من اثنين يكونان كالمتنازعين ، وثالث يتوسط بينهما . ومناسبة ضم الخمسة للثلاثة ، كون الخمسة أول مراتب مافوقها في الوترية ، فذكرا ليُشار بهما للأقل والأكثر . على أنه عمم الحكم بعد ذلك بقوله : (وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ) أى : كالاثنين (وَلَآ أَكْثَرَ) أى : كالستة وما فوقها (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ) أى : يعلم ما يكون بينهم في أى مكان حلّوا ، لأن علمه بالأشياء ليس لقرب مكانيّ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة .

روى ابن جرير(١) عن الضحاك في الآية قال : هو فوق العرش، وعلمه معهم أينما كانوا .

وقال ابن كثير : حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى . ولا شك في إرادة ذلك .

قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الله تعالى في كل مكان ، فرد عليهم الإمام ابن حزم في (الفِصَل) بأن قول الله تعالى يجب حمله على ظاهره ، ما لم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر ، أو إجماع، أو ضرورة حس . وقد علمنا أن كل ما كان في مكان، فإنه شاغل لذلك المكان ومالئ له ، ومتشكل بشكل المكان ، أو المكان متشكل بشكله . ولا بد من أحد الأمرين ضرورة . وعلمنا أن ما كان في مكان ، فإنه متناه بتناهي مكانه، وهو ذو جهات ست أو خمس متناهية في مكانه . وهذه كلها صفات الجسم . فلما صح ما ذكرنا ، علمنا أن قوله تعالى(٢) :

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ، [١](وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) ، وقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) إنما هو التدبير لذلك ، والإحاطة به فقط ضرورة ، لانتفاء ما عدا ذلك . وأيضاً فإن قولهم (فى كل مكان) خطأ ، لأنه يلزم ، بموجب هذا القولِ ، أنه يملأ الأماكن كلها ، وأن يكون ما فى الأماكن فيه ، تعالى الله عن ذلك ، وهذا محال . فإن قالوا : هو فيها ، بخلاف كون المتمكن فى المكان . قيل لهم : هذا لا يعقل ، ولا يقوم عليه دليل . انتهى .

وقد تقدم فى قوله تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) كلام فى المعية لابن تيمية ، فارجع إليه فى سورة الحديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ، فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ » قال مجاهد : هم اليهود . « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ » أى : بما هو إثم وتعدّ على المؤمنين ، وتواصٍ بمخالفة النبىّ ﷺ .

قال أبو السعود : وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه ، لزيادة تشنيعهم ، واستعظام معصيتهم .

« وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » أى من قولهم : (السام عليك) ، أو مما نسخه الإسلام من تحايا الجاهلية ، فإن الله تعالى يقول[٢] : (وَسَلَـٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥] .   (٢) [٣٧ / الصافات / ١٨١] .

« وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ » أى : من التناجى المذموم ، أو من التحريف فى التحية ، استهزاء وسخرية . أى : هلّا يعجل عقوبتنا بذلك ؟ لو كان محمد رسوله ، قال تعالى : « حَسْبُهُمْ » أى : يكفى قائلى ذلك فى تعذيبهم « جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » .

ثم نهى تعالى المؤمنين وحذّرهم أن يجترموا فى النجوى ما اجترمه أولئك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[١٠] (إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ » أى : بطاعة الله ، وما يقربكم منه ، « وَٱلتَّقْوَىٰ » أى : اجتناب ما يؤثم ، « وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى : فيجزيكم بما اكتسبتم مما أحصاه عليكم .

ثم شجع تعالى المؤمنين فى قلة المبالاة بمناجاة أعدائهم ، وأنها لا تضرهم ما داموا مثابرين على وصاياه ، متكلين عليه ، بقوله « إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى : النجوى التى ذمها . فاللام للعهد . أى المزين لهذه النجوى بالشر ، والحامل عليها الشيطان . « لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ » أى الشيطان ، أو التناجى المذكور « شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى بمشيئته « وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » أى بالمضى فى سبيله ، والاستقامة على أمره ، وانتظار النصر على أثره .

لطيفة :

قال القاشانىّ : إنما نهوا عن النجوى لأن التناجى اتصال واتحاد بين اثنين فى أمر يختص بهما ، لا يشاركهما فيه ثالث . وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر ، يتقوى ويتأيد بعضها بالبعض فيما هو سبب الاجتماع لخاصية الهيأة الاجتماعية التى لا توجد فى الأفراد. فإذا كانت شريرة يتناجون فى الشر ، ويزاد فيهم الشر ، ويقوى فيهم المعنى الذى يتناجون به بالاتصال والاجتماع، ولهذا ورد بعد النهى قوله: (وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ) الذى هو رذيلة القوى البهيمية «وَٱلْعُدْوَٰنِ» الذى هو رذيلة القوى الغضبية، « وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ » التى هى رذيلة القوة النطقية، بالجهل وغلبة الشيطنة. ألا ترى كيف نهى المؤمنين بعد هذه الآية عن التناجى بهذه الرذائل المذكورة، وأمرهم بالتناجى بالخيرات، ليتقووا بالهيأة الاجتماعية، ويزدادوا فيها فقال : (وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ) أى : الفضائل التى هى أضداد تلك الرذائل ، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث، (وَٱلتَّقْوَىٰٓ) أى: الاجتناب عن أجناس الرذائل المذكورة . انتهى .

قال ابن كثير: وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى، حيث يكون فى ذلك تأذٍّ على مؤمن. روى الإمام أحمد(١) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه ـ أخرجاه(٢) ـ .

---

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٣٧٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٥٦٠ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٤٦ ـ باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارّة والمناجاة ، حديث رقم ٢٣٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٣٧ (طبعتنا) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه ـ انفرد بإخراجه مسلم[1] ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ » تعليم منه تعالى للمؤمنين بالإحسان فى أدب المجالس ، وذلك بأن يفسح المرء لأخيه ويتنحّى توسعة له .

قال الشهاب : وارتباطه بما قبله ظاهر . لأنه لما نهى عن التناجى والسرار ، علم منه الجلوس مع الملأ، فذكر آدابه. ورتب على امتثالهم فسحه لهم فيما يريدون التفسح، من المكان والرزق والصدر .

قال ابن كثير : وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء فى الحديث الصحيح[2] : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة . ومن يسَّر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ولهذا أشباه كثيرة .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنُّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٦٥ ـ باب من بنى مسجدا ، حديث رقم ٢٩٧ ، عن عثمان بن عفان .

وأخرجه مسلم فى: ٥ ـ كتاب المساجدومواضع الصلاة، حديث رقم ٢٤و٢٥ (طبعتنا).

« وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا » أى انهضوا للتوسعة ، أو ارتفعوا فى المجالس ، أو انهضوا عن مجلس الرسول، إذا أُمِرتم بالنهوض عنه ، ولا تملوه بالارتكاز فيه . « فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ » أى يرفع المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله ، والعالمين بها ، الجارين على موجبها بمقتضى علمهم ، درجات دنيوية وأخروية.

قال الناصر : لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم ، وعند الناس ، ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة فى المجلس تواضعاً لله تعالى . انتهى .

وهذا ـ كما قال الشهاب ـ من مغيبات القرآن ، لما ظهر من هؤلاء فى سائر الأعصار من التنافس فى رفعة المجالس ، ومحبة التصدير .

وفى كلام الزمخشرىّ ما يشير إلى أنه من عطف الخاص على العام ، تعظيماً له ، بعدّه كأنه جنس آخر ، كما فى[1] (وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ) ، ولذا أعاد الموصول فى النظم. والمراد بالعلم علم ما لا بد منه من العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة .

تنبيهات :

الأول ـ فى (الإكليل) : فى الآية استحباب التفسح فى مجالس العلم والذكر ، وكل مجلس طاعة .

الثانى ـ يفهم من الأمر بالتفسح النهى عن إقامة شخص ليجلس أحد مكانه . فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا ـ رواه الإمام أحمد والشيخان[2] ـ .

---

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٤٦٥٩ (طبعة المعارف) .

وأخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٣١ ـ باب لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ، حديث رقم ٥٣٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٢٧ (طبعتنا) .

obeikandi.com

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لايقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم ـ رواه الإمام أحمد ـ وفى رواية بلفظ : لايقوم الرجل للرجل من مجلسه ، لكن افسحوا يفسح الله لكم ـ تفرد به الإمام أحمد ـ

قال ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء ، على أقوال : فمنهم من رخص بذلك محتجا [1] بحديث : قوموا إلى سيدكم .

ومنهم من منع ذلك محتجا[2] بحديث : من أحب أن يتمثل له الرجال قياما ، فليتبوأ مقعده من النار .

ومنهم من فصّل فقال يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبيّ صلى الله عليه وسلم حاكما فى بنى قريظة ، فلما رآه مقبلا قال للمسلمين : قوموا إلى سيدكم . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ـ والله أعلم ـ فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ . وكان إذا جاء لايقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ، فى فتوى له فى ذلك : لم يكن من عادة السلف على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، أن يعتادوا القيام ، كما يفعله ، كثير من الناس . بل قد قال أنس بن مالك رضى الله عنه : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه ، تلقياً له ، كما روى عن النبيّ ﷺ أنه قام لعكرمة ، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ : قوموا إلى سيدكم ، وكان سعد متمرضا بالمدينة ، وكان قد قدم إلى بنى قريظة شرقيّ المدينة .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٦ ـ باب قول النبيّ ﷺ (قوموا إلى سيدكم) ، حديث رقم ١٤٤٤ ، عن أبى سعيد .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٥٢ ـ باب فى قيام الرجل للرجل ، حديث رقم ٥٢٢٩ ، عن معاوية .

والذى ينبغى للناس ، أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد النبيّ ﷺ . فإنهم خير القرون . وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد . فلا يعدل أحد عن هدى خير الخلق ، وهدى خير القرون، إلى ما هو دونه. وينبغى للمطاع أن يقرر ذلك مع أصحابه، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له، ولا يقوم لهم، إلا فى اللقاء المعتاد . فأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك ، تلقياً له ، فحسن . وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائى بالقيام، ولو ترك ذلك لاعتقد أن ذلك بخس فى حقه ، أو قصد لخفضه ، ولم يعلم العادة الموافقة للسنة ـ فالأصلح أن يقام له، لأن ذلك إصلاح لذات البين ، وإزالة للتباغض والشحناء . وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة ، فليس فى ترك ذلك إيذاء له . وليس هذا القيام هو القيام المذكور فى قوله ﷺ : من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار . فإن ذلك أن يقوموا وهو قاعد . ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء . ولهذا فرقوا بين أن يقال (قمت إليه) و (قمت له) . والقائم للقادم ساواه فى القيام، بخلاف القيام للقاعد. وقد ثبت فى صحيح مسلم(١) أن النبيّ ﷺ لما صلى بهم قاعداً فى مرضه ، وصلّوا قياماً، أمرهم بالقعود ، وقال : لا تعظّمونى كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً . فقد نهاهم عن القيام فى الصلاة وهو قاعد ، لئلا يتشبهوا الأعاجم الذين يقومون لعظمائهم وهم قعود . وجماع ذلك أن الذى يصلح ، اتباع عادة السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد بحسب الإمكان . فمن لم يعتد ذلك ، أو لم يعرف أنه العادة ، وكان فى ترك معاملته بما اعتاده الناس من الاحترام مفسدة راجحة ، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما ، كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما . انتهى كلام شيخ الإسلام ، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

الثالث ـ قال ابن كثير : روى عن ابن عباس والحسن البصريّ وغيرهما : أنهم قالوا فى قوله تعالى (إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا) يعنى فى مجالس الحرب . قالوا : ومعنى قوله (وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا) أى انهضوا للقتال .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٥٢ ـ باب قيام الرجل للرجل ، حديث ٥٢٣٠ .

وقال قتادة : (وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا) أى إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا بها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبيّ ﷺ فى بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده . فربما يشق ذلك عليه ، عليه السلام ، وقد تكون له الحاجة . فأُمروا أنهم إذا أُمروا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله تعالى[1] (وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا) انتهى .

ولا تنافى بين هذه الأقوال ، لأن كُلّاً منها تفسير للفظ العام ببعض أفراده . وما يصدق عليه إشارة إلى تناوله لذلك ، لا أن أحدها هو المراد دون غيره ، فذلك ما لا يتوهم . وقد كثر مثل ذلك فى تفاسير السلف لكثير من الآى ، وكله مما لا اختلاف فيه ـ كما بيّنّاه مراراً ـ .

الرابع ـ فى (الإكليل) قال قوم : معنى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) يرفع الله المؤمنين منكم العلماءَ درجات على غيرهم ، فلذلك أمر بالتفسّح من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء فى المجالس ، والتفسّح لهم عن المجالس الرفيعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » أى تصدّقوا قبل مناجاته ، أى مسارّته فى بعض شأنكم . « ذَلِكَ » أى التقديم . « خَيْرٌ لَّكُمْ » أى لأنفسكم ، لما فيه من مضاعفة الأجر والثواب ، والقيام بحق الإخاء ، بالعود على ذوى بالمسكنة بالمواساة والإغناء . « وَأَطْهَرُ » أى لأنفسكم من رزيلة البُخل

(١) [٢٤ / النور / ٢٨] .

والشح ، ومن حب المال وإيثاره الذى قد يكون من شعار المنافقين . وكأن الأمر بالتصدق المذكور، نزل ليتميز المؤمن من المنافق ، فإن المؤمن تسخو نفسه بالإنفاق كيفما كان ، والثانى يغصّ به ، ولو فى أضرّ الأوقات. ومعظم أوامر السورةهو التصدّق، حثًّا للباخلين، وسوقاً للمؤمنين . « فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ » أى ما تتصدّقون به أمام مناجاتكم الرسول صلوات الله عليه. « فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن لم يجده، إذ لم يحرجه ولم يضيّق عليه، رحمةً منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ، وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ » أى أخفتم، من تقديم الصدقات، الفاقةَ والفقر ؟ توبيخ بأن مثله لا ينبغى أن يشفق منه ، للزوم الخلف للإنفاق ، لزوم الظل للشاخص ، بوعد الله الصدق . « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ » أى ما ندبتم إليه من تقديم الصدقة ، وشقّ عليكم ، « وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ » بأن رخّص لكم أن لاتفعلوا ، رفعاً للحرج حسبما أشفقتم، « فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فلاتفرّطوا فى الصلاة والزكاة وسائر الطاعات، فإن ذلك يكسبكم ملكة الخير والفضيلة. « وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجزيكم بحسبه .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قوله تعالى (إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ) الآية منسوخة بالتى بعدها، وفيه دليل على جواز النسخ بلا بدل، ووقوعه ، خلافا لمن أبى ذلك . انتهى .

والظاهر أن مستند شهرة النسخ ما رواه ابن جرير[١] عن مجاهد قال: قال عليّ رضى الله عنه: إن فى كتاب الله عز وجل لآية ماعمل بها أحد قبلى، ولايعمل بها أحد بعدى «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ... » الخ قال : فرضت، ثم نسخت . وعنه أيضا قال[١]: نهوا عن مناجاة النبيّ ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، قدم ديناراً فتصدق به ، ثم أنزلت الرخصة فى ذلك .

وعن قتادة[١] أنها منسوخة ، ما كانت إلا ساعة من نهار .

وعنه أيضا[١] قال : سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فوعظهم الله بهذه الآية ، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبيّ الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك (فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

وعن الحسن[٢] وعكرمة قالا : (إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ..) الآية، نسختها التى بعدها (ءَأَشْفَقْتُمْ ..) الآية .

هذه الآثار وأمثالها هى مستند مدعى النسخ ، وقوفاً مع ظاهرها . وقد أسلفنا فى مقدمة التفسير ، ومواضع أخرى؛ أن النسخ فى كلام السلف أعم منه باصطلاح الخلف، كما أن المراد من سبب النزول أعم مما يتبادر إليه الفهم . ومنه قول قتادة هنا: فأنزل الله الرخصة بعد ذلك. فإن مراده إبانة أن الأمر ليس بعزيمة فى الآية الثانية ، لا أن نزولها كان متراخياً عن الأولى، فإن ذلك مستحيل على رونق نظمها الكريم. والأصل فى الآى المقررة لحكم ما، هو اتصال جملها ، وانتظام عقدها ، إذ به يكمل سحر بلاغتها وبديع بيانها ، وتمام فقهها. والذين ذهبوا إلى عدم وقوع النسخ فى التنزيل ، لهم فى الآية وجوه :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أحدها ـ قول أبي مسلم : إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات ، وأن قوماً من المنافقين تركوا النفاق ، وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقيًّا ، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ، ليتميز هؤلاء الذين آمنو إيماناً حقيقيًّا عمن بقي على نفاقه الأصليّ . وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت ، لاجرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت .

قال الرازيّ : وحاصل قول أبي مسلم أن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخاً ، وهذا الكلام حسن ، ما به بأس . انتهى .

ثانيها ـ قول بعضهم : إن شبهة مدعي النسخ ذهابهم إلى أن الأمر بتقديم الصدقة للوجوب . وتأكد ذلك بقوله بعده : (فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وقوله : (فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ) فإن ذلك لا يقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه . والجواب : أن لا قاطع في كون الأمر للوجوب ، بل الظاهر أنه للندب : ويدل عليه أمور :

الأول ـ أنه تعالى قال : (ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ) وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض .

والثاني ـ أنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به ، وهو (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ . . .) إلى آخر الآية .

والثالث ـ أن قوله تعالى : (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...) الخ معناه إن لم تفعلوا ما ندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ، والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم ، فلم يعاملكم كما كان يعامل الأمم السابقة ولم يعنتكم بشيء مما أوجبه عليكم ، فلذا ندبكم إلى هذا الأمر ، ولم يجعله عليكم فرضاً ، كما هي سنته في معاملتكم بالرأفة والرحمة ، فأقيموا الصلاة ... الخ . فقوله (وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ)

قد ورد هنا بمعنى الرجوع إلى التخفيف والتسهيل على هـــذه الأمة ، والعدول عن معاملتها كسابقيها ، لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب. وقد ورد بذلك المعنى أيضا فى آية أخرى فى سورة المزمل ، وهى قوله تعالى[١] (عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى رجع إليكم بالتخفيف ، ورفع عنكم مايشقّ عليكم. وليس معناه فى هاتين الآيتين العفو عن الذنوب، إذ لاذنب هنا صدر منهم .

هذا ملخص ماحققه من ذهب إلى امتناع النسخ . والحق لاتخفى قوته، وسكون النفس إليه ـ وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم » يعنى المنافقين الذين كانوا يتولّون اليهود ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، كما بينته آية[٢] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ...) الآية « مَّا هُم مِّنكُمْ » أى من أهل دينكم وملتكم ، معشر المسلمين « وَلَا مِنْهُمْ » أى من اليهود كقوله تعـــالى[٣] (مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ) « وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ » قال ابن جرير[٤] : وذلك قولهم لرسول الله ﷺ (نشهد أنك رسولُ اللهِ) وهم كاذبون غير مصدقين به . « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى المحلوف عليه كذب بحت .

---

(١) [٧٣ / المزمل / ٢٠]. (٢) [٥٩ / الحشر / ١١]. (٣) [٤ / النساء / ١٤٣].

(٤) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandl.com

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[١٦] ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

« أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً » أي وقاية وعصمة لأنفسهم « فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أي فحالوا بأيمانهم عن حكم الله في أمثالهم ، وهو القتل ، إراحة للمؤمنين من فسادهم . أو فصدّوا الناس في خلال أمنهم وسلامتهم عن الإيمان وثبطوهم عنه . « فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » أي مذلّ لهم في الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

[١٨] ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾

[١٩] ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ، أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾

« لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا » أي من عذابه شيئاً ما ، كما كانوا يفتقدون بذلك في الدنيا « أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » أي في الدنيا كاذبين مبطلين، إشارة إلى مرونهم على النفاق ، ورسوخهم فيه ، حتى لدى من لا تخفى عليه خافية . « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ » أي من النفع أو من الحق « أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ » أي فيما يحلفون عليه

obeikandl.com

فى الدارين « ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى استولى عليهم حتى صار الكذب والفساد ملكة لهم « فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ » أى بتسويل اللذات الحسيّة ، والشهوات البدنية لهم ، وتزيين الدنيا وزبرجها فى أعينهم . « أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى أتباعه فى الفساد والإفساد . « أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ » أى للسعادة فى الدارين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ » أى فى أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ولرسوله ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ)

« كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ » أى حزب الشيطان المحادّين « إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ » أى قوىّ على إهلاك من حادّه ورسله ، عزيز فلا يغلب فى قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

obeikandl.com

«لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ» أى شاقهما وخالف أمرهما . أى لا تجد قوماً جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين موادة أعداء الله ورسوله . والمراد بنفى الوجدان نفى الموادة ، على معنى أنه لا ينبغى أن يتحقق ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة فى النهى عنه ، والزجر عن ملابسته ، والتوصية بالتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم . وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله : «وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ» أى آباء الموادين . والضمير فى (كَانُوٓا۟) لمن حاد الله ورسوله . والجمع باعتبار معنى (مَن) كما أن الإفراد فيما قبله ، باعتبار لفظها . « أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » أى فإن قضية الإيمان هجر المحادين «أُو۟لَـٰٓئِكَ» إشارة إلى الذين لا يوادونهم « كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَـٰنَ » أى أثبته فيها « وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ » أى بنور وعلم ولطف حييت به قلوبهم فى الدنيا . وأشار إلى مالهم فى الآخرة بقوله «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ، أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أى الناجحون الفائزون بسعادة الدارين .

تنبيهات :

الأول ـ من أشباه هذه الآية قوله تعالى(١) (لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ) الآية . وقال تعالى(٢) (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَـٰسِقِينَ) .

(١) [٣ / آل عمران / ٢٨] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٤] .

الثانى ـ قال ابن كثير : قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية (لَّا تَجِدُ قَوْمًا ...) إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر . وفى أبى بكر الصديق ، همّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن . وفى مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير . وفى عمر قتل قريباً له من عشيرته يومئذ أيضا . وفى حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ . انتهى.

وقد بينا مراراً ؛ أن المراد بسبب النزول فى مثل ذلك ، صدق الآية على هؤلاء ، وما أتوا به من التصلب فى دين الله ، فى مقابلة المفسدين ، ولو كانوا من أقرب الأقربين .

قال ابن كثير : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يُفادَوْا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم . وقال عمر : لاأرى ما رأى يارسول الله ! هل تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا موادة للمشركين ؟ .

الثالث ـ قال ابن كثير : فى قوله تعالى (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ) سر بديع . وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله تعالى ، عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

الرابع ـ يفهم من قوله تعالى (حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) وقوله فى آية(1) أخرى (لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) أن المراد بهم المحاربون لله ولرسوله ، الصادّون عن سبيله ، المجاهرون بالعداوة والبغضاء . وهم الذين أخبر عنهم قبلُ بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين المحادّين لنا ، أى الذين

(١) [٦٠/الممتحنة / ١] .

على حدٍّ منا ، ومجانبة لشؤوننا ، تحقيقاً لمخالفتنا ، وترصداً للإيقاع بنا . وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا ، ممن رضي بأداء الجزية لنا وسالمنا ، واستكان لأحكامنا وقضائنا ، فأولئك لا تشملهم الآية ، لأنهم ليسوا بمحادّين لنا بالمعنى الذي ذكرناه ، ولذا كان لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وجاز التزوج منهم ، ومشاركتهم ، والاتجار معهم ، وعيادة مرضاهم . فقد عاد النبيّ ﷺ يهوديًّا ، وعرض عليه الإسلام فأسلم ـ كما رواه[1] البخاريّ ـ .

وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم ، واستنقاذ أسراهم ، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام ، وتأبد عهدهم ، فلزمه ذلك ، كما لزم المسلمين ـ كما في (الإقناع) و (شرحه) ـ .

وقال ابن القيّم في (إغاثة اللهفان) في الرد على المتنطعين الذين لا تطيب نفوسهم بكثير من الرخص المشروعة : ومن ذلك أن النبيّ ﷺ كان يجيب من دعاه ، فيأكل طعامه . وأضافه يهوديّ بخبز شعير وإهالة سنخة . وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب . وشرط عمر رضي الله عنه ضيافة من مرّ بهم من المسلمين وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عز وجل ذلك في كتابه . ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً فدعوه فقال : أين هو؟ قالوا في الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعليّ رضي الله عنه : اذهب بالناس . فذهب عليّ بالمسلمين ، فدخلوا وأكلوا ، وجعل عليّ رضيّ الله عنه ينظر إلى الصورة . وقال : ما على أمير المؤمنين ، لو دخل وأكل ! انتهى .

والأصل في هذا قوله تعالى[2] ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

(١) أخرجه في : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١١ ـ باب عيادة المشرك ، حديث رقم ٧١٤ ، عن أنس . (٢) [٦٠ / الممتحنة / ٨ و ٩] .

قال السيد ابن المرتضى اليمانىّ فى (إيثار الحق) : عن الإمام المهدىّ محمد بن المطهّر عليه السلام ؛ أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هى أن تحب الكافر لكفره ، والعاصى لمعصيته، لا لسبب آخر ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو خصلة خير فيه . وسيأتى فى أول سورة الممتحنة زيادة على هذا إن شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق .

---

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٩ — سورة الحشر

قال المهايمىّ : سميت به لدلالة إخراج اليهود عنـده ، على لطف الله وعنايته برسوله وبالمؤمنين ، وقهره وغضبه على أعدائهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن .

وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير .

روى البخارىّ[1] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بنى النضير .

وعنه قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بنى النضير . وهم قوم من اليهود . وهى مدنية . وآيها أربع وعشرون ، بلا خلاف .

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ١ ـ باب الجلاء من أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[٢] (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ، وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » تقدم القول فى تأويل نظيره .

ثم أشار إلى بيان بعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته ، إثر وصفه بالعزة القاهرة ، والحكمة الباهرة على الإطلاق ، بقوله : « هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » يعنى بنى النضير من اليهود « مِن دِيَٰرِهِمْ » أى مساكنهم التى جاوروا بها المسلمين حول المدينة ، لطفاً بهم « لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ » أى لأول الجمع لقتالهم . يعنى أخرجهم تعالى بقهره لأول ماحُشِر لغزوهم . والتوقيت به إشارة إلى شدة الأخذ الربانىّ لهم ، وقوة البطش والانتقام ، بقذف الرعب فى قلوبهم ، حتى اضطروا لأول الهجوم عليهم ، إلى الجلاء والفرار ، كما يأتى .

« مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ » أى لشدة بأسهم ومنعتهم ، فصار آية لكم ، لأنه من آثار سنته تعالى فى إذلال المفسدين وقهرهم . « وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ » أى من بأسه « فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ » أى عذابه ، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء « مِنْ حَيْثُ

لَمْ يَحْتَسِبُوا » أي لم يظنوا « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » أي أنزله إنزالًا شديداً فيها ، لدلالة مادة (القذف) عليه ، كأنه مقذوف الحجارة .

قال القاشاني : أي نظر بنظر القهر إليهم فتأثروا به ، لاستحقاقهم لذلك ، ومخالفة الحبيب ومشاقته ومضادته ، ولوجود الشك في قلوبهم ، وكونهم على غير بصيرة من أمرهم ، وبينة من ربهم ، إذ لو كانوا أهل يقين ما وقع الرعب في قلوبهم ، ولعرفوا رسول الله ﷺ بنور اليقين ، وآمنوا به فلم يخالفوه .

« يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ » أي كيف حل بالمفسدين ما حل ونزل بهم ما نزل ، لتعلموا صدق الله في وعده ووعيده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ)

[٤] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ » أي الخروج من أوطانهم « لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا » أي بالقتل والسبي ، كما فعل بإخوانهم بني قريظة . « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ » أي الجلاء والعذاب « بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا » أي خالفوا « اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أي فيما نهاهم عنه من الفساد ، ونقض الميثاق . « وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أي له في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

« مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ » أي نخلة من نخيلهم إغاظة لهم « أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً

عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى أمره ورضاه ، لأن ذلك ليس للبعث والإضرار، بل لتأييد قوة الحق ، وتصلُّب أهله ، وإرهاب المبطلين وإذلالهم، كما قال تعالى « وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » أى لما فيه من إهانة العدوّ ، وإضعافه ونكايته .

تنبيه :

ذكر علماء الأخبار وأئمة السير ، أن سبب الأمر بجلاء بنى النضير هو نقضهم العهد . قال الإمام ابن القيّم : لما قدم النبيّ ﷺ المدينة ، صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم. ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون. فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمر به ربه ـ تبارك وتعالى ـ فصالح يهود المدينة ، وكتب بينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . فكانت بنو قينقاع أول من نقض ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وحاصرهم ﷺ ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها . ثم نقض العهد بنو النضير . وذلك أن رسول ﷺ خرج إليهم يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم، فتآمروا على قتله ﷺ، وأن يعلو رجل فيلقى صخرة عليه، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، وصعد ليلقى عليه صخرة، ونزل الوحى على الرسول صلوات الله عليه بما أراد القوم . فقام ورجع بمن معه من أصحابه إلى المدينة. وأمر بالتهيؤ لحربهم . ثم سار بالناس ، حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وتحريقها ، ثم قذف الله فى قلوبهم الرعب،

وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجْليهم ، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلْقة ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجَاف[٢] بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت له خاصة يضعها حيث شاء ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبادجانة ذكرا فقراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ ، ولم يُسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير ابن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما همّ به من شأنى ؟ فجعل يامين بن عمير لرجل جعلاً على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها ، يُذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما عمل به فيهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

« وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ » أى أعاد عليه من أموال بنى النضير « فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أى فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً ، ولا تعبتم فى القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . و (الإيجاف) من الوجيف ، وهو سرعة السير . و (الركاب) : ما يركب من الإبل ، غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه . « وَلَٰكِنَّ

(١) العتبة التى بأعلى الباب .

obeikandl.com

ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ » أى من أهل الفساد والإفساد ليقوم الناس بالقسط . « وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

قال الزمخشرىّ : المعنى أن ماخوّل الله رسوله من أموال بنى النضير ، شىء لم يحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم ، وعلى مافى أيديهم ، كما كان يسلط رسله على أعدائهم . فالأمر فيه مفوض إليه ، يضعه حيث يشاء . يعنى أنه لايقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها ، وأخذت عنوة وقهراً . وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ، وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)

« مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ » أى من أموال محاربيها ، وهو بيان للأول ، ولذا لم يعطف عليه ، « فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ » أى الفىء الذى حقه أن يكون لمن ذكر « دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ » أى يتداولونه وحدهم دون من هم أحق به . أو دولة جاهلية ، إذ كان من عوائدهم استئثار الرؤساء والأغنياء بالغنائم دون الفقراء « وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ » أى من قسمة غنيمة أو فىء « فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ » أى عن أخذه منها « فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » أى لمن خالفه إلى مانهى عنه .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بالآية على أن (الفىء) ما أخذ من الكفار بلا قتال ، وإيجاف خيل وركاب ، ومنه ما جلوا عنه خوفاً . و (الغنيمة) ما أخذ منهم بقتال ، كما تقدم فى[1] قوله : (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ...) الآية ، خلافاً لمن زعم أنهما بمعنى واحد ، أو فرق بينهما بغير ذلك . انتهى .

وكأن الذى زعم أنهما بمعنى واحد رأى أن مجمل هذه الآية بيَّنه آية الأنفال ، حتى زعم قتادة أن هذه منسوخة بتلك . قال ـ فيما رواه عنه ابن جرير[2] ـ : كان الفىء فى هؤلاء ثم نسخ ذلك فى سورة الأنفال فقال : (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ) وجعل الخمس لمن كان له الفىء فى سورة الحشر . وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس . فأربعة أخماس لمن قاتل عليها ، ويقسم الخمس الثانى على خمسة أخماس : فخمس لله وللرسول ، وخمس لقرابة رسول الله ﷺ فى حياته ، وخمس لليتامى ، وخمس للمساكين ، وخمس لابن السبيل .

والمسألة مبسوطة فى مطولات الفروع .

الثانى ـ قال الزمخشرىّ : الأجود أن يكون قوله تعالى (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ) الآية ـ عامًّا فى كل ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه . وأمر الفىء داخل فى عمومه .

وفى (الإكليل) : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ .

قال العلماء : وكل ماثبت عنه ﷺ ، يصح أن يقال إنه فى القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وهذا الأخير من غلوّ الأثريين ، والإغراق فى الاستنباط .

ثم بين تعالى من أصناف من تقدم ، الأحق بالعناية والرعاية ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ، أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)

« لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ » أى من مواطنهم ومألوفاتهم « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ » أى من العلوم والفضائل الخلقية « وَرِضْوَٰنًا » أى منه ، وهو أعظم مايرغب فيه ، « وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ » أى ببذل النفوس لقوة اليقين « أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ » قال القاشانىّ : أى فى الإيمان اليقينىّ لتصديق أعمالهم دعواهم ، إذ علامة وجدان اليقين ظهور أثره على الجوارح ، بحيث لاتمكن حركاتها إلا على مقتضى شاهدهم من العلم .

ثم أشار إلى أن إيثار هؤلاء بالعطاء مما تطيب به نفوس إخوانهم الأنصار ، لحرصهم ، رضى الله عنهم ، على الإيثار دون الاستئثار ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ » أى دار الهجرة . أى توطنوها « وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من قبل مجىء المهاجرين إليهم . وعطف (الإيمان) قيل : بتقدير عامل . أى وأخلصوا

الإيمان . وقيل : استعمل التبوّؤ فى لازم معناه ، وهو اللزوم والتمكّن . والمعنى : لزموا الدار والإيمان. وجوّز أيضا تنزيل الإيمان منزلة المكان الذى يتمكّن فيه، على أنه استعارة بالكناية، ويثبت له التبوّؤ على طريق التخييل .

« يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » أى لوجود الجنسية فى الصفاء، والموافقة فى الدين والإخاء.

قال الشهاب : المراد بمحبتهم المهاجرين هنا، مواساتهم، وعدم الاستثقال والتبرّم منهم، إذا احتاجوا إليهم ، فالمحبة كناية عما ذكر ، كما قيل :

يا أخى ! واللّبيب، إن خانَ دهرٌ ، يستبين العدوّ ممن يحبُّ

« وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ » أى فى أنفسهم « حَاجَةً » أى طلباً أو حسداً « مِّمَّآ أُوتُواْ » أى مما أوتى المهاجرون من الفىء وغيره ، لسلامة قلوبهم ، وطهارتها عن دواعى الحرص . « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » أى حاجة وفاقة .

قال القاشانىّ : لتجرّدهم وتوجّههم إلى جناب القدس ، وترفّعهم عن موادّ الرجس ، وكون الفضيلة لهم أمراً ذاتيًّا ، باقتضاء الفطرة ، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة ، والأعوان فى الطريقة . فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم ، لمكان الفتوّة ، وكمال المروّة ، ولقوة التوحيد ، والاحتراز عن حظ النفس .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية مدح الإيثار فى حظوظ النفس والدنيا . انتهى .

وقال ابن كثير : هذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى[1] (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)، وقوله[2] (وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ) فإن هؤلاء تصدّقوا ، وهم يحبون ما تصدّقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ، ولا ضرورة به . وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تَصَدُّق الصِّدِّيق

(١) [٧٦ / الإنسان / ٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

obeikandi.com

رضى الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضى الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله! وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليَرْموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل ، أحوج ما يكون إلى المـــاء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشرب به أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

«وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ » أى فيخالفها فيما يغلب عليها من حب المال، وبغض الإنفاق. « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» أى الفائزون بالسعادتين . وفى إضافة الشُّحّ إلى النفس إشارة لما قاله القاشانىّ من أن النفس مأوى كل شر ووصف ردىء ، وموطن كل رجس وخُلُق دنىء . والشح من غرائزها المعجونة فى طينتها ، لملازمتها الجهة السفلية ، ومحبتها الحظوظ الجزئية ، فلا ينتفى منها إلا عند انتفائها . ولـكن المعصوم من تلك الآفات والشرور ، من عصمه الله .

قال ابن جرير(١) : الشح فى كلام العرب البُخل، ومنع الفضل من المال . والعلماء يرون أن الشح فى هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق . ثم روى أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال : ياأباعبد الرحمن ! إنى أخشى أن تـكون أصابتنى هذه الآية (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) ، وأنا رجل شحيح ، لا يكاد يخرج من يدى شىء ! قال : ليس ذاك بالشح الذى ذكر الله فى القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما . ذلك البخل ، وبئس الشىء البخل ! انتهى .

والظاهر أنه عنى بالعلماء علماء الأثر ، لأنه لم يفسر إلا بالمأثور . ولعل ابن مسعود فسّر الآية بذلك ، لدلالة سياقها عليه ، إذ القصد تزهيد الأنصار فى أن تطمح أنفسهم لما جعل للمهاجرين دونهم . أو هو يرى الفرق بين الشح والبخل بما ذكره . وعلى كلٍّ فلا يتعين تأويل الآية بما ذكره ، بل هى مما تحتمله .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وعن ابن زيد فى الآية قال : من وُقِيَ شح نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئاً ، ولم يقربه ، ولم يدعه الشح أن يحبس من الحلال شيئاً ، فهو من المفلحين .

وروى ابن جرير(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : برئ من الشح من أدَّى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى فى النائبة .

وروى الإمام أحمد(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لايحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من قبلكم : أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا .

وعن أبى هريرة(٣) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

« وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) . والحديث رقم ٦٤٨٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه النسائى فى : ٢٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨ ـ باب فضل من عمل فى سبيل الله على قدمه .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » يعني بالذين جاءوا من بعدهم ، الذين هاجروا حين قوى الإسلام من بعد الذين هاجروا مُخْرَجين من ديارهم . فالمراد مجيئهم إلى المدينة بعد مدة . والمجيء حسيّ . وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة. فالمجيء إما إلى الوجود ، أو إلى الإيمان . ونظير هذه الآية ، آية براءة[1] : (وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) .

قال الشهاب : والمراد بدعاء اللاحق للسابق ، والخلف للسلف ، أنهم متبعون لهم . أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم ، ويذكروهم بالخير .

تنبيه :

جعل الزمخشريّ قوله (وَالَّذِينَ) عطفاً على (الْمُهَٰجِرِينَ) كالموصول قبله في قوله : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو ...) الخ ، فيكون قوله (يُحِبُّونَ) وقوله (يَقُولُونَ) حالين .

وجوز السمين : وجهاً ثانياً ، وهو كون الموصول فيهما مبتدأ ، وما بعده خبره .

وعندي أن هذا هو الوجه ، وماقبله تكلف ، وأن الموصولين مستأنفان لمدح إيمان الأنصار والتابعين لهم بتلك الأخلاق الفاضلة ، والخصال الكاملة . وما حمل الزمخشريّ ومن تابعه على الاقتصار على الوجه الأول إلا لتشمل أصناف من يستحق الفيء من فقراء كلّ ، كأنه قيل : (لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا ...)الخ، (وَ) للفقراء (الَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...)الخ وللفقراء الذين جاءوا مِن بعدهم ... الخ ، مع أن سياق الآيات المذكورة ، ورعاية وقت نزولها ، والمهاجرون في جهد ، والأنصار في سعة ورغد ـ يقضي بأن المقصود منها للفيء ، هو فقراء المهاجرين خاصة ، وأن الذين تبوءوا الدار في غنى عنه وعدم تشوف إليه ، لشدة محبتهم لإخوانهم ، بل رغبتهم في إيثارهم . ثم بين تعالى حال من يجيء بعدهم بأنه يثني على من سبقه ، ويدعو له ابتهاجاً بما

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

أتوا ، واغتباطاً بما عملوا ، لأنهم بين مهاجر عن أهله وأمواله ، محبة فى الله ورسوله ، وبين محب لمن هاجر ، مكرم له ، بل مؤثر إياه ، مما أشفّ عن قوة الإيمان ، والإخلاص فى تدعيم روابط الإيقان . هذا هو الظاهر من نظم الآيات الكريمة ، وذوق سوقها . وأما فقراء الصنفين الآخرين ، فإنهم يستحقون من الفىء قياساً على الصنف الأول ، لاشتراكهم فى الفقر . إلا أنه فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يشك أحد من الأنصار فى تلك الواقعة فقراً ، إلا سهلاً وأبا دجانة ـ كما تقدم ـ فأعطاها صلى الله عليه وسلم . وأما فى غيرها من الوقائع التى كثرت فيها المغانم ، فقد كان حظهم منها ما هو معروف ومبين فى آيات أخر ، فإن التنزيل الكريم بيّن مقاسم الأموال لذويها فى عدة آيات .

روى ابن جرير[١] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ[٢] (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ) حتى بلغ (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ[٣] (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ . .) الآية ، ثم قال : هذه الآية لهؤلاء . ثم قرأ[٤] (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ) حتى بلغ[٥] (وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ) ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، فليس أحد إلا له فيها حق . ثم قال لئن عشت ليأتين الراعى ، وهو يسيّر حُمُره ، نصيبه ، لم يعرق فيها جبينه !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ)

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٣) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] . (٥) [٥٩ / الحشر / ١٠] .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » يعنى بنى النضير المتقدم ذكرهم. وأخوّتهم معهم أخوّة دين واعتقاد ، أو أخوّة صداقة وموالاة لأنهم كانوا معهم سرًّا على المؤمنين « لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ » أى من دياركم « لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ » أى فى خذلانكم « أَحَدًا أَبَدًا » أى من الرسول صلوات الله عليه ، والمؤمنين « وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ » أى لنعاونكم .

قال ابن جرير (١) : ذكر أن الذين نافقوا هم عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، ووُدَيعة ومالك ابنا نوفل ، وسُوَيد ، وداعس . بعثوا إلى بنى النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا لذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا الحلقة ، كما تقدم .

« وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ » أى لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ)

« لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ » أى منهزمين ، « ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ » أى بنوعٍ مّا من أنواع النصر . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ)

« لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ » أى

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

هم يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله ، لاحتجابهم بالخلق عن الحق ، بسبب جهلهم بالله ، وعدم معرفتهم له ، إذ لو عرفوه لشعروا بعظمته وقدرته وعلمه ، ولم يستخفوا بمعاصيه ، ويستخفّوا بأوامره . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ، بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ)

« لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ » أى اليهود وإخوانهم « جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ » أى بالحصون، فلا يبرزون إلى البراز « أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ » أى من خلف حيطان، لفرط رهبتهم منكم. « بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ » . قال الزمخشرىّ : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزيز يذلّ، عند محاربة الله ورسوله . انتهى .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ » أى تظنهم مجتمعين لاتفاقهم فى الظاهر ، والحال أن قلوبهم متفرّقة ، لاختلاف مقاصدها ، وتجاذب دواعيها ، وتفرّقها عن الحق بالباطل . « ذَٰلِكَ » قال المهايمىّ : أى الاجتماع فى الظاهر ، مع افتراق البواطن ، « بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ » أى أنه يوجب جبنهم المفضى إلى الهلاك الكلىّ . انتهى .

وفى هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلتهم، والحمل عليهم، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ، ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى

مثل هؤلاء اليهود من بني النضير ، فيما نزل بهم من العقوبة ، كمثل من نالهم جزاء بغيهم من قبلهم ، وهم كفار قريش في وقعة بدر ، أو بنو قينقاع. قال ابن كثير: والثاني أشبه بالصواب ، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل هذا . انتهى .

قال قتادة : إن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحُد . وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى الشام ـ والتفصيل في السير ـ .

وقال ابن جرير[1] : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن الله عز وجل مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ، مما هو مذيقهم من نكاله ، بالذين من قبلهم من مكذبي رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذين أهلكهم بسخطه. وأمر بني قينقاع ، ووقعة بدر ، كانا قبل جلاء بني النضير. وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم ، ولم يخصص الله عز وجل منهم بعضاً في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض . وكل ذائق وبال أمره ، فمن قربت مدته منهم قبلهم ، فهم ممثلون بهم فيما عنوا به من المثل . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٧] (فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا، وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى مثل المنافقين فى إغراء بنى النضير على القتال، ووعدهم النجدة أو الخروج معهم ، ومثل انخداع بنى النضير بوعد أولئك الكاذب ، كمثل الشيطان « إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ » أى إذ غرّ إنسانا ووعده على اتباعه وكفره بالله ، النصرة عند الحاجة إليه « فَلَمَّا كَفَرَ » أى بالله ، واتبعه وأطاعه « قَالَ » أى مخافة أن يشركه فى عذابه ، مسلماً له وخاذلًا « إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ » أى فلا أعينك « إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى فى نصرتك فلم ينفعه التبرؤ، كما لم ينفع الأول وعده الإعانة « فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى فى حق الله تعالى ، وحق العباد . أى وهكذا جزاء اليهود من بنى النضير والمنافقين ، الذين وعدوهم النصرة. وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به . إنهم فى النار مخلدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ، إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ » أى بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

قال المهايمىّ : يعنى أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله ، فاتقوه أن يسلط عليكم الشيطان ليغويكم بالكفر ، ثم يتبرأ منكم .

« وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » أى لما بعد الموت من الصالحات « وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجازيكم بحسبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ » قال ابن جرير[١] : أى لاتكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذى أوجبه عليهم ، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات .

وقال القاشانيّ : (نَسُوا۟ ٱللَّهَ) أى بالاحتجاب بالشهوات الجسمانية ، والاشتغال باللذات النفسانية (فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ) حتى حسبوها البدن وتركيبه ومزاجه ، فذهلوا عن الجوهرة القدسية ، والفطرية النورية .

وقال ابن القيّم فى (دار السعادة) : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيما . وهو أن من نسى ربه ، أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه، فى معاشه ومعاده ، فصار معطلاً مهملاً ، بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذى أعطاها إياه خالقها . وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها ، فنسى ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها ، وما تكمل به ، وتزكو به ، وتسعد به فى معاشها ومعادها . قال تعالى[٢] (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا) فغفل عن ذكر ربه ، فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله، وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر، حيران لا يهتدى سبيلا . فالعلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ، ومصالح دنياه وآخرته. والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها، وما تزكو به وتفلح به . فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

obeikandl.com

« أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ » أى : الذين خرجوا عن الدين القيّم الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وخانوا وغدروا ، ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ، أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ)

« لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ » وهم الناسون الغادرون « وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ » وهم المؤمنون المتقون الموفون بعهدهم . « أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ » أى : بالنعيم المقيم .

تنبيهان

الأول ــ قال الزمخشرى : استدل أصحاب الشافعىّ رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر . انتهى .

وردّ الاستدلال بذلك أحد أئمة الشافعية ، وهو برهان الدين فى (تفضيل السلف على الخلف) بما مثاله :

احتج بهذه الآية بعض الشافعية فى مسألة قتل المسلم بالذمىّ . وهذا فى غاية الضعف، لأن أحداً لم يسوّ بينهما . وإيجاب القصاص ليس بتسوية ، لأنه ما من متباينين فى وجوهٍ ، إلا وقد استويا فى وجه أو وجوه . فلا يكون إيجاب القود استواءً ، كما لا يكون إيجاب الدية والكفارة استواءً . فهذا كلام مَنْ ضعف نظره فى مورد الانتزاع من شواهد الفرقان . انتهى .

الثانى ــ قال أبو السعود : لعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء ، من جهتهم ، لا من جهة مقابليهم . فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين ، زيادة ونقصاناً ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى[١] (هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٦] .

وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ) إلى غير ذلك من المواقع . وأما قوله[1] تعالى (هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فلعل تقديم الفاضل فيه ، لأن صلته ملكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ، وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ » أى الجامع للمواعظ ، الموجب للنظر والتقوى بكل حال ، « عَلَىٰ جَبَلٍ » قال المهايمىّ أى بتفهيمه له ؛ وتكليفه بما فيه ، بعد إعطاء القوى المدركة والمحركة « لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا » أى متذللا لعظمة الله « مُّتَصَدِّعًا » أى متشققا « مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ » أى مع عظم مقداره ، وغاية صلابته ، وتناهى قساوته . قال القاشانىّ : أى قلوبهم أقسى من الحجر فى عدم التأثر والقبول ، إذ الكلام الإلهىّ بلغ من التأثير مالا إمكان للزيادة وراءه ، حتى لو فرض إنزاله على جبل لتأثر منه بالخشوع والانصداع « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى وتلك الأمور ، وإن كانت وهمية ، مفروضة ، فلابد من اعتبارها وضربها للناس الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا ، ولينهم فقست قلوبهم « لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ليعلموا أنهم أولى بذلك الخشوع والتصدع .

قال الزمخشرىّ : الآية تمثيل كما مرّ فى[2] قوله (إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ) وقد دل عليه قوله (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه ، عند تدبر القرآن ، وتدبر قوارعه وزواجره .

ثم أشار تعالى إلى أنه كيف يترك الخشوع لذات الله وأسمائه ، مع أنه :

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٧٢] .

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ، هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ)

[٢٣] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٢٤] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ، لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ، يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ » أى المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له . « عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ » أى ما غاب عن الحس وما شوهد « هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ » أى المنعم بالنعم العامة والخاصة . ومن كان مطلعاً على الأسرار يجب أن يخشع له ، ويخشى منه ، لا سيما من حيث كونه منعماً . إذ حق المنعم أن يخشع له ، ويخشى أن تسلب نعمه «هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ » أى الغنىّ المطلق ، الذى يحتاج إليه كل شىء ، المدبر للكل فى ترتيب نظام لا أكمل منه «ٱلْقُدُّوسُ» أى المنزه عما لا يليق بجلاله، تنزهاً بليغاً «ٱلسَّلَـٰمُ» أى الذى يسلم خلقه من ظلمه ، أو المبرأ عن النقائص كالعجز « ٱلْمُؤْمِنُ » أى لأهل اليقين بإنزال السكينة ، ومن فزع الآخرة «ٱلْمُهَيْمِنُ» أى الرقيب على كل شىء باطلاعه واستيلائه وحفظه « ٱلْعَزِيزُ » أى القوىّ الذى يَغلب ولا يُغلب « ٱلْجَبَّارُ » أى الذى تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد عن قبضته ـ قاله الغزالىّ فى (المقصد الأسنى) ـ .

وقال الإمام ابن القيّم فى (الكافية الشافية) :

وكذلك (الجبارُ) من أوصافه والجبر فى أوصافه قِسْمَانِ

obeikandl.com

جبرُ الضعيف . وكل قلب قد غدا ذا كسرة ، فالجبرُ منــه داني
والثانِ جبر القهر بالعزّ الذى لا ينبغى لسواه من إنسانِ
وله مسمًّى ثالثٌ وهو العلـ ـوّ فليس يدنو منه من إنسانِ
من قولهم (جبّارةٌ) للنخلة الـ ـعليا التى فاتَتْ بكل بَنَانِ

«ٱلْمُتَكَبِّرُ» أى الذى يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى من الأوثان والشفعاء . « هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ » أى المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته . «ٱلْبَارِئُ» أى الموجد لها بعد عدم . «ٱلْمُصَوِّرُ» أى الكائنات كما شاء . « لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى الدالة على محاسن المعانى ، وأحاسن المدائح . « يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم وسعادتهم .

تنبيهات :

الأول ــ قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال الرب الكريم ، وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد الذى لابد منه . لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذاتٍ لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عُدَّ مذهب الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكايدهم للإسلام ، فإنهم عكسوا المعلوم عقلًا وسمعاً فذموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفى ، والجحد المحض ، وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله(١) (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ) . وقال سبحانه وتعالى(٢) (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) . فما كان منها منصوصاً فى كتاب الله

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذمّ لله سبحانه . وما كان فى الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً فى صحته ، لم يصح استعماله ، فإن الله أجلّ من أن يسمىّ باسم لم يُتحقق أنه تسمّى به .

ثم قال : وعادة بعض المحدّثين أن يوردوا جميع ما ورد فى الحديث المشهور فى تعدادها ، مع الاختلاف الشهير فى صحته . وحسبك أن البخاريّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوّله . واتفاقُهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه . ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم فى وعده من أحصاها بالجنة ، كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء ، فأما إذا كانت أسماؤها سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما فى كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر . وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المرويّ بالضرورة والنص .

ثم أطال رحمه الله فى ذلك وأطاب . فليرجع إليه النَّهِمُ بالتحقيقات .

الثانى ـ قال الغزالىّ فى (المقصد الأسنى) ـ وهو من أنفس ما ألف فى معانى الأسماء الحسنى ـ : هل الصفات والأسامى المطلقة على الله تعالى تقف على التوقيف ، أو تجوز بطريق العقل ؟ والذى مال إليه القاضى أبو بكر الباقلانىّ أن ذلك جائز ، إلا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى . فأما مالا مانع فيه فإنه جائز . والذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ ، رحمة الله عليه ، أن ذلك موقوف على التوقيف ، فلا يجوز أن يطلق فى حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه ، إلا إذا أذن فيه .

والمختار عندنا أن نفصل ونقول : كل ما يرجع إلى الاسم ، فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف ، فذلك لايقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب . ثم جوّد رحمه الله البيان بما لا غاية بعده .

الثالث ـ قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : قد تكلم على معانيها جماعة من أهل العلم والتفسير ، وأكثرها واضح ، والعصمة فيها عدم التشبيه ، واعتقاد أن المراد بها أكمل معانيها ، الكمال الذى لا يحيط بحقيقته إلا الله تعالى .

ثم قال : ولابد من الإشارة هنا إلى أمر جلىّ ، وهو أصل عظيم ، وذلك تفسير الحسنى جملة : فاعلم أنها جمع (الأحسن) لا جمع الحسن . وتحت هذا سر نفيس : وذلك أن (الحسن) من صفات الألفاظ ، ومن صفات المعانى . فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن ، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه على (حُسْنَى) ، ولا يفسّر بالحسن منهما إلا الأحسن بهذا الوجه . ثم بيّن مثال ذلك فانظره .

---

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٠ – سورة الممتحنة

بفتح الحاء ، وقد تكسر . فعلى الأول هي صفة المرأة التي نزلت فيها . وعلى الثاني صفة السورة ، كما قيل لبراءة (الفاضحة) ـ كما في (الأعلام) ـ .

قال المهايمي : سميت بها لدلالة آية الامتحان على أنه لا يكتفى في باب الصحة بظواهر الأدلة كالهجرة ، بل لا بد من اختبار البواطن . فدلائل الاعتقادات أولى بذلك . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وفي (جمال القراء) أنها تسمى سورة الامتحان ، وسورة المودة . وهي مدنية . وآيها ثلاث عشرة .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ، وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ » أى أنصاراً . نهى لأصحاب النبيّ صلوات الله عليه ، عن موالاة مشركى مكة المحاربين لله ولرسوله وقتئذ، لما فيها من الفتنة بالدين وأهله كما يأتى . « تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ » أى صميم المحبة ، والباء زائدة فى المفعول « وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ » أى من الإيمان بالله ورسوله و كتابه، الذى هو نهاية الهدى ، وغاية السعادة .

ثم أشار إلى أنه لم يكفهم ذلك حتى آذوا المؤمنين ، بما يقطع العلائق معهم رأساً ، بقوله « يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ » أى من أرضكم ودياركم « أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ » أى يخرجونكم لإيمانكم بالله ، الجامع للكمالات المقتضية انقياد الناقص له ، لاسيما باعتبار اتصافه بوصف كونه ربّاكم بالكمالات ، فهى بالحقيقة عداوة مع الله .

قال ابن كثير: هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم، وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده. ولهذا قال تعالى : (أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ) أى لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم

بالله رب العالمين كقوله تعالى(١) (وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وكقوله تعالى(٢) (الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ) وقوله تعالى « إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ » أى هاجرتم « جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي » أى للجهاد فى طريق الذى شرعته لكم ، وديني الذى أمرتكم به ، والتماس رضائى عنكم الذى لا ثواب فوقه ، والشرط متعلق بـ (لَا تَتَّخِذُواْ) أى لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى « تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ » أى من المودة معهم وغيرها « وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ » أى اتخاذهم أولياء « فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ » أى جار عن السبيل السوىّ الذى جعله الله هدى ونجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ)

« إِن يَثْقَفُوكُمْ » أى يظفروا بكم « يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً » أى حرباً ، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم «وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ» أى بما يسوؤكم كالقتل والشتم ، « وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ » أى بما جاءكم من الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ » أى قراباتكم « وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » أى بإثابة المؤمنين ، ومعاقبة العاصين .

---

(١) [٨٥ / البروج / ٨] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٠] .

وقال القاشانىّ : أى لا نفع لمن اخترتم موالاة العدوّ الحقيقىّ لأجله، لأن القيامة مفرقة. وهـذا معنى قوله (يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) أى يفصل الله بينكم وبين أرحامكم وأولادكم كما قال[1] (يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ) انتهى ، وهو تأويل جيد .

لطيفة :

قال السمين : يجوز فى (يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) وجهان :

أحدهما ـ أن يتعلق بما قبله ، أى لن تنفعكم يوم القيامة ، فيوقف عليه ، ويبتدأ بـ « يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » .

والثانى ـ أن يتعلق بما بعده أى يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على (أولادكم) ، ويبتدأ بـ (يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) .

« وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

تنبيهات

الأول ـ قال ابن جرير[2] : ذكر أن هذه الآيات، من أول هذه السورة ، نزلت فى شأن حاطب بن أبى بلتعة ، وكان كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله ﷺ قد أخفاه عنهم ـ ثم ساق الروايات ـ .

وأما رواية البخارىّ[3] فعن علىّ رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فذهبنا تعادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب ،

(١) [٨٠ / عبس / ٣٤ ـ ٣٦] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) أخرجه فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٤١ ـ باب الجاسوس ، حديث رقم ١٤٢٩

فقالت : مامعى من كتاب ! فقلنا : لتخرجنّ الكتاب ، أو لنلقِيَنّ الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه :

من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم .

فقال النبيّ ﷺ : ما هذا ياحاطب؟ قال: لاتعجل عليّ يارسول الله! إنى كنت امرءًا من قريش ، ولم أكن من أنفسهم. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي . ومافعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني. فقال النبي ﷺ : إنه قد صدقكم. فقال عمر : دعني يارسول الله فأضرب عنقه ! فقال : إنه شهد بدراً ، وما يدريك ، لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم!

قال عمرو بن دينار ـ راوى الحديث ـ ونزلت فيه (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى ...) الآيات .

قال ابن كثير : كان حاطب هذا رجلًا من المهاجرين ، ومن أهل بدر . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة ، لمّا نقض أهلها العهد ، فأمر النبيّ ﷺ المسلمين بالتجهز لغزوهم وقال: اللهم عمّ عليهم خبرنا . فعمد حاطب هذا ، فكتب كتاباً إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ـ كما ذكر فى الحديث ـ .

الثانى ـ قال ابن كثير : يعنى تعالى بقوله (لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) المشركين والكفار ، الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء ، كما قال تعالى[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) [٥ / المائدة / ٥١] .

لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ) ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد . وقال تعالى[1] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ). وقال تعالى[2] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا). وقال تعالى[3] (لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ) ولهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد . انتهى .

أي أنه قبل عذره فيما قام في ظنه من كون ذلك ليس بكبيرة، وإن أخطأ . والمجتهد المخطئ معذور . وقد تبيّن خطؤه بصريح النهي عن معاودة مثله الذي لأجله نزلت السورة . ولذا قال الإمام إِلْكِيَا الهرّاسي : يؤخذ من الآية أن الخوف على المال والولد لا يبيح الفتنة في دين الله . وهو ظاهر، وليس هذا من التقية ، لأنها في موضوع آخر. وقد بسط الكلام على الولاء والبراء السيد ابن المرتضى في (إيثار الحق) في المسألة الثامنة. قال (بعد أن أورد الآيات والأحاديث) : هذا كله في الحب الذي هو في القلب، والمخالصة لأجل الدين، وذلك للمؤمنين المتقين بالإجماع ، وللمسلمين الموحّدين ، إذا كان لأجل إسلامهم وتوحيدهم عند أهل السنة . وأما المخالقة والمنافعة ، وبذل المعروف، وكظم الغيظ، وحسن الخلق، وإكرام الضيف ، ونحو ذلك ، فيستحب بذله لجميع الخلق ، إلا ما كان يقتضي مفسدة كالذلة ، فلا يبذل للعدو في حال الحرب ، كما أشارت إليه الآية (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ

(١) [٥ / المائدة / ٥٧] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٤] .
(٣) [٣ / آل عمران / ٢٨] .

لمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ) ـ كما يأتى ـ وأما التقية ، فتجوز للخائف من الظالمين القادرين . وأما الفرق بين ما يجوز من المنافعة والمداهنة وما لا يجوز من الرياء ، فما كان من بذل المال والمنافع فهو جائز ، وهو المنافعة ، وربما عبروا عنه بالمداهنة والمداراة والمخالقة . وما كان من أمر الدين فهو الرياء الحرام .

ومن كلام الإمام الداعى إلى الله تعالى ، يحي بن المحسن عليه السلام فى (الرسالة المحروسة ، لأهل المدرسة) : لا يجوز أن تـكون الموالاة هى المتابعة فيما يمـكن التأويل فيه ، لأن كثيراً من أهل البيت عليهم السلام قد عرف بمتابعة الظلمة لوجه يوجب ذلك ، فتولّى الناصر الـكثير منهم ، وصلى بهم الجمعةَ جعفرُ الصادق ، وصلى الحسن السبط على جنائزهم .

وذكر الإمام المهدىّ محمد بن المطهّر عليهما السلام أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هى موالاة الـكافر لـكفره ، والعاصى لمعصيته ، ونحو ذلك .

قال السيد : وهو كلام صحيح ، والحجة على صحة الخلاف فيما عدا ذلك أشياء كثيرة ، منها قوله(١) تعالى فى ٱلْوَالِدَيْنِ ٱلْمُشْرِكَيْنِ بالله (وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً) ومنها قوله(٢) تعالى (لَّا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ . . .) الآيتين . وفى الحديث أنها نزلت فى قتيلة أم أسماء ، بعد آيات التحريم ، رواه أحمد والبزار والواحدىّ ، وتأخرها واضح فى سياق الآيات ، وقرينة الحال مع هذا الحديث . ولو لم يصح تأخر ذلك ، فالخاص مقدم على العام عند جهل التاريخ عند الجمهور . ورجحه ابن رُشْد فى (نهايته) بالنصوصية على ما هو خاص فيه . ويدل عليه ماثبت فى القرآن والسنة الصحيحة المتفق عليها من حديث علىّ عليه السلام فى قصة حاطب ، على ماذكره الله تعالى فى أول سورة الممتحنة ـ هذه ـ وذكره أهل الحديث وأهل التفسير جميعاً ، فإن رسول الله ﷺ عذره بالخوف على أهله فى مكة ، والتقية فيما لا يضر فى ظنه .

---

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] . (٢) [٦٠ / الممتحنة / ٨] .

فإن قيل : القرآن دال على أنه قد أذنب لقوله (وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ) فكيف يقبل ماجاء من قبول عذره ؟

قلت : إنما قبل عذره فى بقائه على الإيمان ، وعدم موالاة المشركين لشركهم ، ولذلك خاطبه الله بالإيمان فقال (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) والعموم نص فى سببه . فاتفق القرآن والحديث . وأما ذنبه فإنه لايحل مثل مافعله لأحد من الجيش إلا بإذن أميرهم، لقوله تعالى[1] (وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ...) الآية . ولأن تحريم مثل ذلك بغير إذن الأمير إجماع ، ومع إذنه يجوز ، فقد أذن فى أكثر من ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيلة فى حفظ المال . فلو كان مثل ذلك موالاة لم يأذن فيه صلى الله عليه وسلم . فدل على أن ذنب حاطب هو الكتم ، لما فيه من الخيانة ، لانفس الفعل ، لو تجرد من الكتم والخيانة ـ والله أعلم ـ انتهى .

ويضاف إلى الكتم والخيانة ما أفادته الآية من التودّد بذلك إليهم ، والمناصحة لهم ، مما يشفّ عن كون الآتى بذلك متزلزلاً فى عقده ، مضطرباً فى حقه، فيصبح عمله حجة على دينه، ويكون ذلك سبباً لافتتان المشركين المفسدين بصحيح الدين القويم . وهذا هو السر فى الحقيقة ، كما بينه آية[2] (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ) وسيأتى بيانه .

ثم علّم تعالى عباده المؤمنين التأسى بإبراهيم عليه السلام فى البراءة من المشركين ومصارمتهم ومجانبتهم ، بقوله سبحانه :

---

(١) [٤ / النساء / ٨٣] . (٢) [٦٠ / الممتحنة / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ، رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ» أى قدوة «حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ» أى أتباعه الذين آمنوا معه ، كلوط عليه السلام « إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ » يعنى الذين أشركوا بالله وعبدوا الطاغوت «إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ» جمع برىء ، كظريف وظرفاء «مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » أى بدينكم ومعبودكم . قال ابن جرير[١] : أى أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله، وجحدنا عبادتكم ماتعبدون من دون الله أن يكون حقاً «وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ » أى لاصلح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده . أى توحدوه وتفردوه بالعبادة « إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ » استثناء من قوله (أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) قال ابن جرير[١] : أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه فى هذه الأمور التى ذكرناها ، من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم ، إلا فى قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه .يقول تعالى ذكره: فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، تبرءوا من أعداء الله المشركين به،

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandi.com

ولا تتخذوا منهم أولياء ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء ، حتى يؤمنوا بالله وحده ، ويتبرءوا عن عبادة ما سواه .

ثم روى عن مجاهد أنه قال فى الآية : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، فيستغفروا للمشركين .

«وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ» أى وما أدفع عنك من عقوبة الله شيئاً إن أراد عقابك . والجملة من تمام المستثنى ، إلا أنه لا يلزم من استثناء المجموع استثناء عموم أفراده . ولذا قال الزمخشرىّ : القصد إلى موعد الاستغفار وما بعده مبنىّ عليه ، وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما فى طاقتى إلا الاستغفار .

وقوله تعالى « رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ » متصل بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة ، أو أمر منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوا ذلك ، تتميما لما وصّاهم به من قطع الصلات المضرّة بينهم وبين المحاربين لهم . ومعنى (إِلَيْكَ أَنَبْنَا) أى إليك رجعنا بالتوبة مما تكره ، إلى ما تحب وترضى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥] (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) .

« رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » قال مجاهد : أى لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذابٍ من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال قتادة : أى لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . انتهى .

ومآل هذا الدعاء هو التعوذ من مثل ما صنع حاطب ، مما يورث افتتان المشركين بالدين إذ يكون ذلك مدعاة لقولهم لو كان هؤلاء على حق ، وما يوعدون به من الظفر حق ، لما

obeikandi.com

صانعنا مؤمنهم ، فإذن ما هم عليه أمانيّ . فيتزلزل من كان في نفسه الانتظام في سلكهم ، والاستسعاد بحقهم . ففي الآية معنى كبير ، وتأديب عظيم . أي : ربنا لا تجعلنا نهمل من ديننا ما أمرنا به ، أو نتساهل فيما عزم علينا منه ، حتى لا تنحل بذلك قوتنا ، ويتزلزل عمادنا ، ويفتح لعدو الدين الافتتان به ، لأن المؤمنين ما داموا متمسكين بآداب الدين ، محافظين عليها ، قائمين بها حق القيام، فإن النصر قائدهم والظفر رائدهم. ولذا أصبح المسلمون في القرون الأخيرة بحالهم، حجة على دينهم أمام عدوهم. ولا مسترد لقوتهم، ومستعاد لمجدهم، إلا بالرجوع إلى أصل كتابهم ، والعمل بآدابه ، والمحافظة على أحكامه ، ونبذ ما ألصق به ، مما يحرف كلمه ، ويجافي حقيقته . وللحكماء في هذا الموضوع مقالات معروفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ » تكرير لوجوب التأسي بإبراهيم وأصحابه ، لمزيد الحث على التبرؤ من المشركين ، والاسترسال إليهم . فإن محبة المفسدين فيها تخريب لمباني الحق ، وتوهين لقوى أهله ، وتشكيك لضعفاء القلوب ، مما يفسد عمل المصلحين ، ويزلزل مساعيهم ، ويفتن أعداءهم بهم ، لذلك كان البغض في الله من شعب الإيمان ، لأن الحق لا يقوى إلا باعتصاب أهله على كلمته ، ورمي أعدائه عن قوس واحدة . وفي إبدال (لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ) من (لكم) دلالة على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم ، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة . ولذلك عقبه بقوله (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ) أي من يتولّ عما أمر به ، ويوالي أعداء الله ، ويلق إليهم بالمودّة ، فإنه لا يضر إلا نفسه ، والله هو الغنيّ عن إيمانه به وطاعته ، المحمود على كل حال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ، وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » هذا وعد منه تعالى، وقد أنجزه بأن أسلم كثير منهم بعدُ، وصاروا لهم أولياء وأحزاباً . والآية من معجزات القرآن ، لما فيها من الإخبار عن مغيب ، وقع مصداقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)

[٩] (إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)

« لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ » هذا ترخيص من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم . فهو فى المعنى تخصيص لقوله (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى ...) الخ . أى لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين من أهل مكة، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، أى تفضوا إليهم بالبرّ ، وهو الإحسان . والقسط وهو العدل . فهذا القدر من الموالاة غير منهيّ عنه ، بل مأمور به فى حقهم . والخطاب،

وإن يكن فى مشركى مكة ، إلا أن العبرة بعموم لفظه . وقد حاول بعض المفسرين تخصيصه ، فردّ ذلك الإمام ابن جرير[١] بقوله :

والصواب قول من قال : عنى بقوله تعالى (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ) من جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ، فإن الله عز وجل عمّ بقوله (ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ) جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض. ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب، غير محرم ولا منهىّ عنه ، إذا لم يكن فى ذلك دلالة له ، أو لأهل الحرب ، على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح . وقد بين صحة ما قلناه الخبر فى قصة أسماء وأمها . انتهى .

وذلك أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش ، إذ عاهدوا . فأتيت النبيّ ﷺ فقلت : يارسول الله ! إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : نعم ! صلى أمك . رواه أحمد[٢] والشيخان[٣] ، ورواه أيضاً الإمام أحمد[٤] عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا : ضباب، وقرظ، وسمن ، وهى مشركة. فأبت أسماء أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها . فسألت عائشةُ النبي ﷺ .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة ، ٢٩ ـ باب الهدية للمشركين ، حديث رقم ١٢٧٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ٤٩و٥٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

فأنزل الله تعالى (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ...) إلى آخر الآية. فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها .

قال الزازيّ : وقوله تعالى (أَن تَبَرُّوهُمْ) بدل من (ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ) وكذلك (أَن تَوَلَّوْهُمْ) بدل من (ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ) . والمعنى : لاينهاكم عن مبرة هؤلاء ، وإنما ينهاكم عن تولى هؤلاء . وهذا رحمة لهم ، لشدتهم فى العداوة . وهذه الآية تدل على جواز البرّ بين المشركين والمسلمين ، وإن كانت الموالاة منقطعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ، ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ، ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ » أى من مكة إلى المدينة، « فَٱمْتَحِنُوهُنَّ » أى فاختبروهن بما يغلب على ظنكم صدقهن فى الإيمان « ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ » أى المطلع على قلوبهن ، لا أنتم ، فإنه غير مقدور لكم ، فحسبكم أماراته وقرائنه .

وقد روى ابن جرير[1] عن ابن عباس قال: كانت المرأة إذا أتت رسول الله ﷺ ، حلّفها

(١) انظر الصفحة رقم ٦٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

بالله، ماخرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ماخرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله .

وقال مجاهد: أى سلوهن ما جاء بهن؟ فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره، ولم يؤمنّ، فارجعوهن إلى أزواجهن .

« فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ » قال الزمخشرىّ: أى العلم الذى تبلغه طاقتكم، وهو الظن الغالب بالحلف، وظهور الأمارات . وإنما سماه علماً، إيذاناً بأنه كالعلم فى وجوب العمل به . « فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ » أى فلا تردّوهن إلى أزواجهن المشركين، إذ لا حِلّ بين المؤمنة والمشرك، لأن إيمانها قطع عصمتها من المشرك المعادى لله ولرسوله .

قال ابن جرير[1] : وإنما قيل ذلك للمؤمنين . لأن العهد كان جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركى قريش فى صلح الحديبية، أن يردّ المسلمون إلى المشركين من جاءهم مسلماً، فأبطل ذلك الشرط فى النساء إذا جئن مؤمنات مهاجرات، فامتُحنّ فوجدهن المسلمون مؤمنات، وصح ذلك عندهم مما ذكرنا، وأمروا أن لا يردوهن إلى المشركين، إذا علم أنهن مؤمنات .

« لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » أى لانقطاع النكاح بينهن .

قال ابن كثير: هذه الآية هى التى حرمت المسلمات على المشركين . وقد كان جائزاً فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة . ولهذا كان أمر أبى العاص بن الربيع، زوج ابنة النبىّ ﷺ زينب رضى الله عنها . وقد كانت مسلمة، وهو على دين قومه . فلما وقع فى الأسارى يوم بدر، بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة . فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا، ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفى بذلك، وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضى الله عنه . فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان، فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً . ومنهم من يقول بعد سنتين ، وهو صحيح ، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين . انتهى «وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ» قال ابن جرير(١): أى وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات ، إذا علمتموهن مؤمنات ، فلم ترجعوهن إليهم، ما أنفقوا فى نكاحهم إياهن من الصداق « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ » أى هؤلاء المهاجرات اللاتى لحقن بكم من دار الحرب ، مفارقات لأزواجهن ، وإن كان لهن أزواج ، «إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» أى مهورهن . قال ابن زيد: لأنه فرق بينهما الإسلام إذا استبرأت أرحامهن .

ثم أشار إلى أنه ، كما بطل نكاح المؤمنة عن الكافر ، بطل نكاح الكافرة عن المسلم ، بقوله : « وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ » أى بعقودهن التى يتمسك بها فى الاستحلال .

قال ابن جرير(٢) : يقول جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ : لا تمسكوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهن . و (الكوافر) جمع كافرة . و(العصم) : جمع عصمة ، وهى ما اعتصم به من العقد والسبب . وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن الإقدام على نكاح المشركات من أهل الأوثان، وأمر لهن بفراقهن. ثم روى عن مجاهد قال: أمر أصحاب محمد بطلاق نسائهم كوافر بمكة قعدن مع الكفار .

وعن الزهرىّ : لما نزلت هذه الآية (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلى قوله (وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ) ، كان ممن طلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأتين كانتا له بمكة : ابنة أبى أمية ، وابنة جرول . وطلحة بن عبيد الله بنت ربيعة ، ففرق بينهما الإسلام ، حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر، وكان ممن فرّ إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ممن لم يكن بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فحبسها وزوَّجها رجلًا من المسلمين ، أميمة بنت بشر الأنصارية . كانت عند ثابت بن الدحداحة ، ففرّت منه ، وهو يومئذ كافر ، إلى رسول الله ﷺ ، فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف ، أحد بنى عمرو بن عوف. فولدت عبد الله ابن سهل .

« وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ » أى اطلبوا أيها المؤمنون الذين ذهبت أزواجهم فلحقن بالمشركين ما أنفقتم على أزواجكم اللواتى لحقن بهم ، من الصداق ، مَن تزوجهن منهم « وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ » أى وليسألكم المشركون منهم، الذين لحق بكم أزواجهم مؤمنات، إذا تزوجن فيكم، مَن تزوجها منكم، ما أنفقوا عليهن من الصداق « ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى هذا الحكم الذى حكم به من أمر المؤمنين بمسألة المشركين ما أنفقوا، وأمر المشركين بمثل ذلك . حكم الله الحق الذى لا يعدل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ)

« وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ » أى وإن ارتدت منكم امرأة فلحقت الكفار، فلم يردّوا مهرها « فَعَاقَبْتُمْ » أى فغزوتموهم فوجدتم منهم غنيمة « فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم » أى من المسلمين « مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ » أى فى مهورهن .

قال مجاهد : مهر مثلها يدفع إلى زوجها .

وقال قتادة : كن إذا فررن من أصحاب النبيّ ﷺ إلى الكفار ، ليس بينهم وبين نبيّ الله عهد ، فأصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة ، أعطى زوجها ماساق إليها من جميع الغنيمة ، ثم يقتسمون غنيمتهم .

obeikandl.com

« وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ » أى فإن الإيمان به يقتضى أداء أوامره ، واجتناب نواهيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ » قال ابن كثير : أى أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج معسراً فى نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ماجرت به عادة أمثالها ، وإن كان من غير علمه ، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنىّ ، فهل علىّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك ـ أخرجاه فى الصحيحين(١) ـ « وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ » قال الزمخشرىّ: يريد وأد البنات.

وقال ابن كثير : هذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعمّ قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجاهلات من النساء، تطرح نفسها، لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٩٥ ـ باب من أجرى أمر الأنصار على ما يتعارفون بينهم فى البيوع والإجارة ، حديث رقم ١١٠٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث رقم ٧ (طبعتنا) .

«وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ» قال ابن عباس: أى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وأوضحه الزمخشريّ بقوله: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها. هو ولدى منك . كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذباً ، لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذى تلده به بين الرجلين ، فهو غير الزنا ، فلا تكرار فيه .

وقال الشهاب : فى شرح البخارىّ للكرمانىّ معناه : لا تأتوا ببهتان من قبل أنفسكم . واليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما . ولذا قيل للمعاقب بجناية قولية : هذا ما كسبت يداك . أو معناه : لا تنشئوه من ضمائركم وقلوبكم ، لأنه من القلب الذى مقره بين الأيدى والأرجل . والأول كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهم ، والثانى عن كونه من دخيلة قلوبهم المبنية عن الخبث الباطنىّ .

وقال الخطابىّ : معناه لا تبهتوا الناس كفاحاً ومواجهة ، كما يقال للآمر بحضرتك : إنه بين يديك . وردّ بأنهم ، وإن كنوا عن الحاضر بكونه بين يديه ، فلا يقال : بين أرجله. وهو وارد لو ذكرت الأرجل وحدها . أما مع الأيدى تبعاً فلا . فالمخطئ مخطئ وهو كناية عن خرق جلباب الحياء . والمراد: النهى عن القذف ، ويدخل فيه الكذب والغيبة . انتهى.

« وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ » أى من أمر الله تأمرهن به .

قال فى النهاية : المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والإحسان إلى الناس، وكل ما أمر به الشرع ، ونهى عنه .

«فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّـهَ إِنَّ ٱللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فبايعهن على الوفاء بذلك ، وسل الله لهن مغفرة ذنوبهن ، والعفو عنها ، فإنه غفور رحيم لمن تاب منها .

تنبيهات :

الأول ـ روى البخاري[١] عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك ، كلاماً . ولا والله ما مست يده يد امرأة قط فى المبايعة . ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك .

قال ابن حجر : أى لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة .

ثم قال: وروى النسائىّ والطبرىّ أن أميمة بنت رقيقة أخبرته أنها دخلت فى نسوة تبايع. فقلن : يا رسول الله ! ابسط يدك نصافحك . فقال : إنى لا أصافح النساء . ولـكن سآخذ عليـكن . فأخذ علينا حتى بلغ (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) فقال : فيما أطقتن واستطعتن ، فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ـ وفى رواية الطبرىّ : ماقولى لمائة امرأة إلا كقولى لامرأة واحدة ـ وقد جاء فى أخبار أخرى أنهن كن يأخذن بيده عند المبايعة من فوق ثوب ـ أخرجه يحيى ابن سلام فى تفسيره عن الشعبىّ ـ .

وفى المغازى لابن إسحاق عن أبان بن صالح أنه كان يغمس يده فى إناء، فيغمسن أيديهن فيه . انتهى .

والمعول على رواية البخارىّ الأولى لصحتها ، وضعف ما عداها .

الثانى ـ روى مسلم[٢] عن أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) كان منه النياحة .

---

(١) أخرجه فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٢٠ ـ باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمىّ والحربىّ ، حديث رقم ١٣١٠ .

(٢) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث رقم ٣١ (طبعتنا) .

ولفظ البخاري[(١)] عنها قالت : بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا (أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا) ونهانا عن النياحة .

وأخرج الطبري بسنده إلى امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا أن لا نعصيه في شيء من المعروف ، ولا نخمش وجهاً ، ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعو ويلاً .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ عليهن يومئذ أن لا يَنُحْنَ ، ولا يحدثن الرجال إلا رجلاً منكن محرماً . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا نبي الله ! إن لنا أضيافاً ، وإنا نغيب عن نسائنا ؟ ! فقال ليس أولئك عنيت .

الثالث ـ قال إلكيا الهراسي : يؤخذ من قوله تعالى (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) أنه لاطاعة لأحد في غير المعروف . قال وأمر النبي ﷺ لم يكن إلا بمعروف وإنما شرطه في الطاعة ، لئلا يترخص أحد في طاعة السلاطين .

وأصله مما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد . قال في هذه الآية : إن رسول الله ﷺ نبيه ، وخيرته من خلقه . ثم لم يستحل له أمر إلا بشرط . لم يقل (ولا يعصينك) ويترك حتى قال (في معروف) فكيف ينبغي لأحد أن يطاع في غير معروف ، وقد اشترط الله هذا على نبيه ؟

ثم نبه تعالى في آخر السورة بما نبه به في فاتحتها ، من النهي عن موالاة محاربي الدين ، تحذيراً من التهاون في ذلك ، وزيادة اعتناء به ، فقال سبحانه :

---

(١) أخرجه في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٤٦ ـ باب ما ينهى عن النوح والبكاء ، حديث ٦٩٤ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى مسخوطاً عليهم لمعاداتهم الحق ، ومحاربتهم الصلاح ، وعيثهم بالفساد . وهو عام فى كل محارب . ومنهم من خصه باليهود ، لأنه عبر عنهم فى غير هذه الآية بالمغضوب عليهم ، واقتصر عليه الزمخشرىّ . قال الناصر : قد كان الزمخشرىّ ذكر فى قوله(١) (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ) إلى قوله (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) أن آخر الآية استطراد . وهو فن من فنون البيان ، مبوّب عليه عند أهله . وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جدًّا ، فإنه ذم اليهود ، واستطرد ذمهم بذم المشركين ، على نوع حسن من النسبة . وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء فى الاستطراد أحسن ولا أمكن منه . ومما صدروا به هذا الفن قوله :

إذا ما اتقى اللهَ الفتى وأطاعه ... فليس به بأس، وإن كان من جُرْمِ

وقوله (٢) :

إن كنتِ كاذبةَ الذى حدثتِنى ... فنجوتِ منجى الحارثِ بن هشامِ

وقوله (٢) :

ترك الأحبة أنْ يقاتِلَ دونهم ... ونجَا برأسِ طِمرَّةٍ ولِجَامِ

انتهى .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

(٢) قائلهما حسّان بن ثابت ، من قصيدته التى مطلعها :

تبلتْ فؤادَكَ فى المنام خريدةٌ ... تسقِى الضجيعَ بباردٍ بسَّامِ

(شرح الديوان للبرقوقىّ ص ٣٦٢) .

وكان وجه إيثاره الفرار من التأكيد إلى التأسيس ، مع أن إرادة ما أريد بأول السورة منه ، فيه من المحسنات البديعية ردّ العجز على الصدر ، تذكيراً به وتفخيماً ، للعناية بشأنه . ولكل وجهة .

« قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ » أى من جزائها لجحدهم بها ، ولذلك طغوا وبغوا وعاثوا . والجملة صفة ثانية « كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ » أى كما يئس من سلفهم من إخوانهم الكفار المقبورين . أى أنهم على شاكلة من قبلهم ، وكلٌّ مؤاخذ بكفره . وقيل : المعنى كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . ففيه وضع الظاهر موضع المضمر ، تسجيلاً لكفرهم ، وبياناً لما اقتضى الغضب عليهم ، ولما آيسهم . والأول أظهر

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٦١ ـ سورة الصف

وتسمّى سورة (الحواريين) . وهى مدنية . ولا عبرة بقول إنهـا مكية ، لأن آياتها المحرّضة على القتال تردّه ، لأنه لم يشرع الجهاد إلا فى المدينة . وآيها أربع عشرة آية .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى أذعن لله كل خلقه العلوىّ والسفلىّ ، وانقاد لتسخيره ، ودلّ على ألوهيته وربوبيته . وتقدم بيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[٣] (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » قال القاشانىّ: من لوازم الإيمان الحقيقىّ الصدق وثبات العزيمة . إذ خلوص الفطرة عن شوائب النشأة يقتضيهما . وقوله (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟) يحتمل الكذب ، وخلف الوعد . فمن ادّعى الإيمان وجب عليه الاجتناب عنهما بحكم الإيمان ، وإلا فلا حقيقة لإيمانه . ولهذا قال :

« كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ » لأن الكذب ينافى المروءة التى هى من مبادئ الإيمان ، فضلًا عن كماله . إذ الإيمان الأصلىّ هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ، والدين القيّم . وهى تستلزم أجناس الفضائل بجميع أنواعها، التى أقل درجاتها العفة المقتضية للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة . وإنما قلنا : لا مروءة له ، لأن النطق هو الإخبار المفيد للغير معنى ، المدلول عليه باللفظ. والإنسان خاصته التى تميزه عن غيره، هى النطق ، فإذا لم يطابق الإخبار ، لم تحصل فائدة النطق ، فخرج صاحبه عن الإنسانية ، وقد أفاد ما لم يطابق من اعتقاد وقوع غير الواقع، فدخل فى حد الشيطنة، فاستحق المقت الكبير

عند الله ، بإضاعة استعداده ، واكتساب ما ينافيه من أضداده . وكذا الخلف ، لأنه قريب من الـكذب ، ولأن صدق العزم وثباته من لوازم الشجاعة التى هى إحدى الفضائل اللازمة لسلامة الفطرة ، وأول درجاتها. فإذا انتفت انتفى الإيمان الأصلىّ بانتفاء ملزومه، فثبت المقت من الله . انتهى .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : هذا من أفصح كلام وأبلغه فى معناه . قصد فى (كَبُرَ) التعجب من غير لفظه . ومعنى التعجب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين . وأسند إلى (أَن تَقُولُوا) ، ونصب (مَقْتاً) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لايفعلون مقت خالص ، لا شوب فيه ، لفرط تمـكن المقت منه . واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأفحشه . و (عند الله) أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته .

قال الناصر : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس ، وهو تـكراره لقوله : (مالا تفعلون) وهو لفظ واحد ، فى كلام واحد . ومن فوائد التـكرار التهويل والإعظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ)

« إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ » قال القاشانىّ : لأن بذل النفس فى سبيل الله لايـكون إلا عند خلوص النفس فى محبة الله ، إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون الله لنفسه . فأصل الشرك ومحبة الأنداد ، محبة النفس . فإذا سمح بالنفس ، كان غـير محب لنفسه ، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئا من الدنيا . وإذا كان بذله للنفس فى الله وفى سبيله لا للنفس ، كما قال ـ ترك الدنيا للدنيا ـ كانت

محبة الله فى قلبه راجحة على محبة كل شىء ، فكان من الذين قال فيهم :(١) (وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وإذا كانوا كذلك يلزم محبة الله إياهم ، لقوله :(٢) (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ) انتهى.

تنبيهات :

الأول ـ فى ذكر هذه الآية عقيب مقت المخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات فى قتال الكفار ، فلم يفوا . انتهى .

وأيده الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى(٣) : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ) فالنهى العام ورد أولًا . والمقصود اندراج هذا الخاص فيه ، كما تقول للمقترف جرماً معيناً : لا تفعل ما يلصق العار بك ، ولا تشاتم زيداً . وفائدة مثل هذا النظم ، النهى عن الشىء الواحد مرتين ، مندرجاً فى العموم ، ومفرداً بالخصوص. وهو أولى من النهى عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود فى حيز التكرار ، وهذا يتكرر مع ما فى التعميم من التعظيم والتهويل. انتهى

الثانى ـ فى (الإكليل) : قال إلكيا الهراسىّ ، يحتج بقوله تعالى : (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ) فى وجوب الوفاء بالنذر ، ونذر اللجاج . قال غيره : والوعود . انتهى .

وقال ابن كثير : هو إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولًا ، لا يفى به . ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت فى الصحيحين(٤) ؛

---

(١) [٢/ البقرة/ ١٦٥]. (٢) [٥/ المائدة/ ٥٤]. (٣) [٤٩/ الحجرات/ ١ و٢].

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ (طبعتنا) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدّث كذب ، وإذا اؤتمن خان. ولهذا أكّد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّـهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

وقد روى الإمام أحمد(١) وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبيّ ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : ياعبد الله ! تعال أعطك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمراً . فقال : أما إنك لو لم تفعلي ، كُتبت عليك كذبة .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود ، وجب الوفاء به. كما لو قال لغيره : تزوّج ولك عليّ كل يوم كذا . فتزوج . وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدميّ .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض، نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى(٢) (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّـهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) . وقال تعالى(٣) (وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ . .) الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين، قبل أن يفرض الجهاد ، يقولون : لوددنا أن الله عز وجل

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) [٤ / النساء / ٧٧] . (٣) [٤٧ / محمد / ٢٠] .

دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ).

وقيل : كان المسلمون يقولون : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لأتيناه ، ولو ذهبت فيه أنفسنا وأموالنا ، فلما كان يوم أحد ، تولوا عن النبيّ ﷺ ، حتى شج وكسرت رباعيته ، فأنزل الله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) روى ذلك عن مقاتل بن حيّان.

وقيل : نزل هذا توبيخاً لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون . يقولون : لو خرجتم خرجنا معكم ، وكنا فى نصركم ، وفى وفى . . . روى ذلك عن ابن زيد.

وكلّ المرويّ هنا مما تشمله الآية .

وقد روى الإمام أحمد(١) عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلًا فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ـ يعنى سورة الصف ـ كلها . ولفظ ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن سلام ؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل؛ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهبنا أن نسأله عن ذلك. قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر رجلًا رجلًا ، حتى جمعهم، ونزلت فيهم هذه السورة ـ الصف ـ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها.

وفى رواية ابن أبى حاتم هذه فائدة جليلة: وهى أن قول الصحابىّ نزلت هذه السورة، بمعنى قرئت فى الحادثة، كما تبيّنته الرواية قبله. والروايات يفسر بعضها بعضاً. وقد نبهنا على ذلك مراراً.

الثالث ـ فى (الإكليل) فى قوله (كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ) : استحباب قيام المجاهدين فى القتال صفوفاً كصفوف الصلاة . وأنه يستحب سد الفرج والخلل فى الصفوف،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

وإتمام صف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف قدماً بقدم ، لا يتقدم بعض على بعض فيها .

قال ابن أبي الفرَس : واستدل بها بعضهم على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان. لأن التراصّ إنما يمكن منهم . قال : وهو ممنوع . انتهى .

وفي التشبيه وجهان آخران :

أحدهما ـ أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام في الموقف ، تنبيهاً على أن المتزلزل القدم، والمضطرب في الموقف ـ دع من يعزم على الفرار ـ ممن يمقته الله تعالى ، ولا تناله محبته .

ثانيهما ـ أن يكون المعنيّ به اجتماع الكلمة ، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدوّ ، حتى يكونوا في الاتحاد وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص . وقد أشار لهذين الوجهين الرازيّ . وهما أقرب من الأول ، لتقويتهما لمعنى طليعة السورة، من الثبات على الوعد والوفاء به ، والعتب على من يخلف فيه ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ » أي لم توصلون إليّ الأذى بالمخالفة والعصيان لما آمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك ، تعظيمي وإطاعتي ، لأن من عرف الله وعظمته ، عظّم رسوله ، لأن تعظيمه في تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر . ولهذا قال صلوات الله عليه(١) : رحمة الله على موسى ! لقد أوذي بأكثر

(١) أخرى البخاريّ في : ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ، ١٩ ـ باب ما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلّفة قلوبهم ، حديث رقم ١٤٨٦ ، عن عبد الله بن مسعود .

من هذا فصبر . وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له ، صلوات الله عليه أذى ، كما قال تعالى[١] : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ انتهى .

وقال أبو السعود : هذا كلام مستأنف ، مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . و (إذ) منصوب على المفعولية بمضمر . خوطب به النبيّ ﷺ بطريق التلوين . أى واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال ، وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبارة ، بقوله[٢] ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عصيان ، حيث قالوا[٣] : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ إلى قوله[٤] ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ وأصروا على ذلك وآذوه ، عليه الصلاة والسلام ، كل الأذية . هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ، ويرتضيه الذوق السليم . وأما ماقيل بصدد بيان أسباب الأذية ، من أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من انتقاصه وعيبه فى نفسه وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ـ فما لاتعلق له بالمقام . انتهى ملخصاً . وملخصه : أن المقام يعيّن نوع الأذية ويخصصها ، والقرينة إحدى مخصصات العامّ ، إلا أن أخذها عامة أعظم فى التسلية وأولى ، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

« فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ » أى عن مقتضى علمهم لفرط الهوى ، وحب الدنيا « أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ » أى عن طريق الهدى ، وحجبهم عن نور الكمال ، لصرف اختيارهم نحو الغيّ والضلال . « وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرّين على الغواية .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٩] . (٢) [٥ / المائدة / ٢١] . (٣) [٥ / المائدة / ٢٢]
(٤) [٥ / المائدة / ٢٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ » أى التى أنزلت على موسى ، وذلك مما يدعو إلى تصديقه عليه السلام. «وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ» أى الدلالات التى آتاها الله إياه ، حججًا على نبوّته ، « قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ » أى بيّن .

والإشارة إلى ماجاء به أو إليه، عليه الصلاة والسلام ، وتسميته سحراً مبالغة. يريد عليه السلام : أن دينى التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ، ممن تقدم وتأخر .

تنبيهات :

الأول ـ نقل الرازىّ وغيره مصداق هـذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم . وذلك فى إنجيل يوحنا ، فى الباب الرابع عشر ، هكذا :

إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ـ كما فى النسخة المطبوعة سنة ١٨٢١ و١٨٣١ و١٨٣٣ بمدينة لندن ـ وفارقليط يونانية ، ولفظها الأصلىّ (بيركلوط) ، ومعناه : محمد أو أحمد ، كما بينه صاحب (إظهار الحق) .

وذكرت جريدة المؤيد عدد (٣٢٨٤) صفحة (٢) تحت عنوان (لايعدم الإسلام منصفاً) :

وقال مسيو مارسيه من (مدرسة اللغات الشرقية) مايأتى :

إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلامىّ ، واسم محمد جاء من مادة حمد. ومن غريب الاتفاق

أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسما من نفس المادة يقرب فى المعنى من محمد ، وهو أحمد ، لتسمية البراكلية به . ومعنى أحمد صاحب الحمد ، وهـــذا مادعا علماء الدين الإسلامىّ أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجىء النبىّ محمد . وقد أشار القرآن نفسه إلى هـذا بقوله عن المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) .

وقد قال اسبرانجيه : إن هذه الآية تشير إشارةخاصة إلى عبارة (إنجيل يوحنا) حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم . انتهى بالحرف .

وأما (إنجيل برنابا) ففيه العبارات الصريحة المتكررة ، بل الفصول الضافية الذيول ، التى يذكر فيها اسم محمد فى عرضها ذكراً صريحاً ، ويقول إنه رسول الله .

وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزىّ أنه رأى فى دار الكتب البابوية فى الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبةبالقلم الحميرىّ قبل بعثة النبىّ ﷺ ، وفيها يقول المسيح: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف . وقد بدل الرهبان نقط (الفارقليط) فى المطبوعات الأخيرة ب(المعزّى) .

قال بعضهم : ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطبعات ، فإنها سجية القوم فى كتبهم المقدسة .

* سجيةٌ تلك فيهم غير محدَثةٍ *

(١)

الثالث ـ قال الإمام ابن القيّم فى (جلاء الأفهام) : الفرق بين محمدوأحمد من وجهين :

أحدها ـ أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دالّ على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه . و (أحمد) أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذى

(١) ملاحظة : ترك المؤلف هنا رحمه الله بياضاً قدرهصفحة وثلث الصفحة، وكأن هذا البياض خصص للتنبيه الثانى ، وقد انتقل إلى الدار الآخرة رحمه الله ، دون أن يملأه .

يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . فمحمد زيادة حمد فى الـكمية ، وأحمد زيادة فى الـكيفية ، فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمده البشر .

والوجه الثانى ـ أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذى حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره . فدل أحد الاسمين ـ وهو محمد ـ كونه محموداً . ودل الاسم الثانى ـ وهو أحمد ـ على كونه أحمد الحامدين لربه . وهذا هو القياس ، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لايُبنيان إلا من فعل الفاعل ، لا من فعل المفعول ، ذهاباً إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لاالمتعدّى . ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول ، لقول العرب : (ما أشغله بالشيء) .

إلى أن قال: والمقصود أنه ﷺ سمى محمداً وأحمد. لأنه يحمد أكثر مايُحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره . فالاسمان واقعان على المفعول ، وهذا هو المختار . وذلك أبلغ فى مدحه، وأتم معنى . ولو أريد به اسم الفاعل لسمى (الحمّاد) وهو كثير الحمد ، كما سمى محمداً ، وهو المحمود كثيراً . فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه . فلو كان اسمه باعتبار الفاعل ، لـكان الأوْلَى أن يسمّى حماداً ، كما أن اسم أمته الحمادون. وأيضاً فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التى لأجلها استحق أن يسمّى محمداً وأحمد ، فهو الذى يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات والأرض . فلـكثرة خصائله التى تفوت عدّ العادّين سمى باسمين من أسماء الحمد ، يقتضيان التفضيل والزيادة فى القدر والصفة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ »أى: لاأحد أظلم وأشد عدواناً ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته، المسعد له فى الدارين، فيستبدل إجابته

بافتراء الكذب ، واختلاقه على الله . وذلك قوله لكلامه تعالى (سحر) ولرسوله (ساحر) وهذه الآية إما مستأنفة لتحقيق رسالة النبيّ ﷺ ، طليعة للآيات بعدها ، وإما متممة لما قبلها ، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام ، مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم . ولا يقال (الإسلام) يؤيد الأول ، لأنه عنوان الملة الحنيفية ، لأنه قد يراد به معناه اللغويّ . وقد كثر ذلك في آيات شتى . نعم الأقرب الأول . واحتمال مثل الآية لهذين الوجهين ، من بدائع التنزيل .

«وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ» أي : الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بما أنزل من الحق.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ)

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ» قال ابن جرير[(١)] . أي يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ هذا ساحر ، ليبطلوا الحق الذي جاء به بقولهم إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، والله معلن الحق ، ومظهر دينه ، وناصر رسوله على من عاداه ، فذلك إتمام نوره . انتهى .

فـ(نور الله) استعارة تصريحية لدينه ، و (الإطفاء) ترشيح ، أو التركيب استعارة تمثيلية . مثلت حالهم في اجتهادهم في إبطال الحق، بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه، تهكماً وسخرية بهم ، كما يقول الناس: هو يطين عين الشمس . والثاني أبلغ وألطف، وهو مختار الزمخشريّ .

وفي لام (ليطفئوا) مذاهب للنحاة مقررة في المطولات، ومن أشهرها أنها مزيدة لتأكيد معنى الإرادة ، لما في لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ)

«هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ» يعنى محمداً ﷺ «بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ» قال ابن جرير[1]: أى على كل دين سواه. وذلك عند نزول عيسى بن مريم، وحين تصير الملة واحدة ، فلا يكون دين غير الإسلام .

وقال الزمخشرىّ : أى ليعليه على جميع الأديان المخالفة له . ولعمرى لقد فعل، فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام . وتقدم فى آخر سورة الفتح فى مثل هذه الآية تحقيق آخر ، فليراجع .

« وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ » أى لما فيه من محض التوحيد ، وإبطال الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[١١] (تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٢] (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

[١٣] (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ob.eikan.com

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » أى إيمانا يقينيًّا لا يشوبه أدنى شك « وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم . أو أنه خير . فإن قيل : إن ذلك خير بنفسه علموا أولا ، وأيضاً أن علمهم محقق ، إذ الخطاب مع المؤمنين . فالجواب ماقاله الناصر : أن الشرط ليس على حقيقته ، بل هو من وادى قوله تعالى[1] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) والمقصود بهذا الشرط التنبيه على المعنى الذى يقتضى الامتثال ، وإلهاب الحمية للطاعة ، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه : إن كنت حرًّا فانتصر . تريد أن تثير منه حمية الانتصار لا غير . انتهى

وقوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، أو لشرط أو استفهام ، دل عليه الكلام تقديره : إن تؤمنوا وتجاهدوا . أو هل تقبلون أن أدلكم يغفر لكم « وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ » أى بساتين إقامة لاظعن عنها « ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » أى النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها ، « وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » أى عاجل . وهو فتح مكة . وهذا يدلّ على أن السورة نزلت قبل فتح مكة بقليل . وكان القصد منها تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم ، والثبات أمامه ، والتحذير عن الزيغ عن ذلك ، والترغيب فى السخاوة ببذل الأنفس والأموال ، فى سبيل الحق ، لإعلاء شأنه ، وإزهاق الباطل .

و (أُخْرَىٰ) مفعول لمقدر معطوف على الجوابين قبله ، وهو جواب ثالث . أى ويؤتكم أخرى أو صفة لمبتدأ مقدر ، وخبره محذوف ، وهو (لكم) . أى ولكم إلى هذه النعمة المذكورة ، نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وهى نصر من الله لكم على أعدائكم ، وفتح قريب يعجّله لكم .

« وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بنصره تعالى لهم وفتحه . ومن منع من النحاة عطف الإنشاء

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٨] .

على الخبر يقول (وَبَشِّرِ) معطوف على (تُؤْمِنُونَ) ، لأنه بمعنى آمنوا. وضعّف بأن المخاطب بـ (تُؤْمِنُونَ) المؤمنون ، و بـ (بَشِّرِ) النبيُّ ﷺ . ثم إن (تُؤْمِنُونَ) بيان لما قبله ، و (بَشِّرِ) لايصلح لذلك . وأجيب بأنه لا مانع من العطف على الجواب ، ماهو زيادة عليه إذا ناسبه . وهذا أولى الوجوه عند صاحب (الكشف) ، كتقدير : أبشر يا محمد ، و (بَشِّرِ) ، وتقدير (قل) قبل (يَـٰٓأَيُّهَا) . وجعل (بَشِّرِ) أمراً بمعنى الخبر ، كما فى قوله : أبطئى أو أسرعى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ، قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ، فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ » أى أنصار الحق الذى أنزله وأمر به، « كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ؟ » أى من معى وجندى متوجّهاً إلى نصرة الله، « قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ » أى ننصر دينه، ومأمر به، وندعو إليه ، ونضحّى لأجله حياتنا، « فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بعيسى عليه السلام ، ونهضت تدعو إلى ما بُعث به ، وتنشر دعوته ، « وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ » أى برسالته والحق الذى معه ، « فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ » من اليهود والرومان الوثنيين ، « فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ » أى غالبين عليهم بالبراهين الواضحة ، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة . وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الربانىّ لهم ، ما داموا متناصرين على الحق ، مجتمعين عليه ، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين ، كما وقع لسلفهم. اتفقوا فملكوا ، وإلا فإذا تفرّقوا هلكوا .

لطيفة :

ليس التشبيه على ظاهره، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول ، بل هو مؤول بجعل التشبيه باعتبار المعنى ، إما على تقدير : قل لهم ، كما قال عيسى، لظهوره فيه، وانصباب الكلام إليه، أو تقدير: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟

قال الشهاب : فـ (ما) مصدرية ، وهى مع صلتها ظرف . والأصل: ككون الحواريين أنصاراً وقت قول عيسى . ثم حذف المظروف ، وأقيم ظرفه مقامه . وقد جعلت الآية من الاحتباك . والأصل : كونوا أنصار الله حين قال لكم النبىّ : من أنصارى إلى الله ؟ كما كان الحواريون أنصار الله ، حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟ فحذف من كل منهما ، ما دل عليه المذكور فى الآخر . وهو كلام حسن . انتهى .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٢ ـ سورة الجمعة

مدنية . وآيها إحدى عشرة .

روى مسلم[١] فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين .

(١) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ (طبعتنا) .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

[٢] (هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ» أى: العرب «رَسُولًا مِّنْهُمْ» أى من أنفسهم، أميًّا مثلهم، «يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ» أى: مع كونه أميًّا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولا تعلم، «وَيُزَكِّيهِمْ» أى: من خبائث العقائد والأخلاق، «وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ» أى: القرآن والسنة «وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ» أى: جوْر عن الحق، وانحراف عن سبيل الرشد. وهو بيان لشدة افتقارهم إلى نبيّ يرشدهم.

قال ابن كثير: فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدّلوه وغيروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله. وكذلك أهل الكتاب، قد بدلوا كتبهم وحرفوها وأولوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل، شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع مايحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى مايقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهى عما يقربهم إلى النار، وسخط الله تعالى. حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب، فى الأصول والفروع،

openkanz.com

وجمع له تعالى ـ وله الحمد والمنة ـ جميع المحاسن فيمن كان قبله ، وأعطاه مالم يعط أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين . فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . انتهى .

وإنما أوثرت بعثته صلوات الله عليه فى الأميين ، لأنهم أحدُّ الناس أذهاناً ، وأقواهم جناناً ، وأصفاهم فطرة ، وأفصحهم بياناً ، لم تفسد فطرتهم بغواشى المتحضرين، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين ، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم ، وحكمة باهرة ، وسياسة عادلة ، قادوا بها معظم الأمم ، ودوخوا بها أعظم الممالك. وإيثار البعثة فيهم ـ بمعنى إظهارها فيهم ـ لاينافى عموم الرسالة، كما قال سبحانه(١) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقوله(٢) ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ وهو ظاهر . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

«وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ» معطوف على (الأميين) . يعنى : أنه بعثه فى الأميين الذين على عهده ، وفى آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضى الله عنهم ، من كل من دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة ، كما فسره مجاهد وغيره ، واختاره ابن جرير .

قال الرازىّ : فالمراد بالأميين العرب ، وبالآخرين سواهم من الأمم ، وجعلهم منهم ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم . قال تعالى(٣) : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ انتهى .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٩] .

(٣) [٩ / التوبة / ٧١] .

تنبيه :

قال بعض المحققين : فى الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك فى الإخبار عن غيب وقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب فى الإسلام قد حصل . فقد صارت تلك الأمم التى أسلمت ، من العرب لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة ، وحتى صار لفظ العرب يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة[1] ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فصدق الله العظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

« ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » يعنى بعثته تعالى رسولاً فى الأميين ، وفى آخرين ، فضله تفضل به على من اصطفاه واختاره لذلك ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . والآيات هذه رد على من أنكر نبوته ﷺ من يهود المدينة ، حسداً وعناداً ، مع أن لديهم من شواهد رسالته ما لا ترتاب أفئدتهم بصدقها ، ولذا نعى عليهم مخالفتهم لموجب علمهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ، بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا » قال

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٢] .

الزمخشريّ : شبه اليهود فى أنهم حملة التوراة وقراؤها ، وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها . وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ ، والبشارة به ، ولم يؤمنوا به ـ بالحمار حمل أسفاراً ، أى : كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولايدرى منها إلا مايمرّ بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله ، وبئس المثل ! « بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ » وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى (حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ) كلفوا علمها ، والعمل بها ، ثم لم يحملوها ، ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها فى الحقيقة لفقد العمل . انتهى .

قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) : قاس من حَمَّله سبحانه كتابَهُ ليؤمن به ويتدبّره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبّر ولا تفهّم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له ، وعمل بموجبه ـ كحمار على ظهره زاملة أسفار ، لا يدرى ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظّ هذا الحمار من الكتب التى على ظهره . فهذا المَثَل ، وإن كان قد ضُرِب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن ، فترك العمل به ، ولم يؤدّ حقه ، ولم يرعه حق رعايته . انتهى .

« وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم ، فكفروا بآيات ربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

« قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » كان اليهود يقولون : نحن أبناء الله وأحبّاؤه ، فقيل لهم : إن كنتم صادقين فى زعمكم ، وعلى ثقة من أمركم ، فتمنوا على الله أن يميتكم ، وينقلكم سريعاً

إلى الآخرة ، فإن الحبيب يتمنى لقاء من يحب ، ولا يفرّ منه ، ويود أن يستريح من كرب الدنيا وغمومها ، ويصير إلى روح الجنان ونعيمها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ)

[٨] (قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أى من المعاصى والسيئات والكفر «وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ» أى فيجازيهم على أعمالهم . وتقدم فى البقرة نظير الآية[1] (قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ...) الآية «قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ» أى تخافون أن تتمنوه بلسانكم ، مخافة أن يصيبكم ، فتؤخذوا بأعمالكم «فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى من الأعمال ، حسنها وسيئها ، فيجازيكم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٠] (فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ» أى عند جلوس الإمام

---

(١) [٢ / البقرة / ٩٤] .

على المنبر ، لأنه لم يكن فى عهد رسول الله ﷺ نداء سواه . كان إذا جلس على المنبر ، أذّن بلال رضى الله عنه « فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ » أى الخطبة والصلاة « وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ » أى فى ذلك الوقت . قال أبو مالك : كان قوم يجلسون فى بقيع الزبير ، فيشترون ويبيعون إذا نودى للصلاة يوم الجمعة ، فنزلت « ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى سعيكم لها ، وترك البيع ، خير لكم مما نفعه يسير ، وربحه مقارب « إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ » أى أدّيت وفرغ منها « فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى اذكروا أمره ودينه وشرعه دائماً ، لتصير ملكة لكم ، تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم ، فتفلحوا بسعادة الدارين .

قال ابن جرير[1] : أى اذكروه بالحمد له ، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه ، لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد فى جنانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ، قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ، وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

« وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً » أى عِير تجارة « أَوْ لَهْوًا » أى ما تلهو به النفس عن الحق والجد والنافع « ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا » أى أسرعوا إلى التجارة خشية أن يُسبقوا إليها . وإنما أوثر ضميرها لأنها الأهم المقصود « وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا » أى على المنبر « قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ » أى من الثواب المرجوّ بسماع الخطبة والعظة بها « خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ » أى لأن الثواب مخلد نفعه ، بخلاف ما يتوهمونه منها .

قال الشهاب : وتقديم (اللهو) لأنه أقوى مذمة ، فناسب تقديمه فى مقام الذم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ » أى : فاعملوا للأعراض الباقية عنده ، فإنها خير من الأمور الفانية عندكم ، وفوضوا أمر الرزق إليه بالتوكل ، والثقة بفضله . فإنه خير الرازقين .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازىّ : وجه تعلق آية الجمعة بما قبلها ، هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها ، والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك . فنبههم الله تعالى بقوله : (فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) أى إلى ماينفعكم فى الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية . قال تعالى[١] : (وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ) . ووجه آخر فى التعلق . قال بعضهم : قد أبطل الله قول اليهود فى ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم بقوله[٢] : (فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) . وبأنهم أهل الكتاب، والعرب لا كتاب لهم، فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً . وبالسبت، وليس للمسلمين مثله ، فشرع الله لهم الجمعة . انتهى .

وقال المهايمىّ فى وجه المناسبة : بيّن تعالى أن مقتضى الإيمان الاجتماع على الخير ، لاسيما الشكر على الإنسانية ، لئلا تنقلب حمارية أو بهيمية ، فى مقابلة اجتماع أهل الكتاب على الشر ، الذى جرهم إلى الحمارية والبهيمية .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ) مشروعية صلاة الجمعة، والأذان لها، والسعى إليها ، وتحريم البيع بعد الأذان . واستدل بالآية من قال إنما يجب إتيان الجمعة على من كان يسمع فيه النداء . ومن قال لا يحتاج إلى إذن السلطان ، لأنه تعالى أوجب السعى ، ولم يشترط إذن أحد . ومن قال لا تجب على النساء لعدم دخولهن فى خطاب الذكور . انتهى .

---

(١) [٨٧/ الأعلى / ١٧] . (٢) [البقرة / ٩٤] .

الثالث : فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ) إباحة الانتشار عقب الصلاة ، فيستفاد منه تقديم الخطبة عليها . انتهى .

وظاهره أنه لايشرع بعد أدائها صلاة ما. غير أنه كان صلى الله عليه وسلم يتنفل بعدها فى بيته ركعتين . وفى رواية أربعاً . وأما اعتقاد فرضية الظهر بعدها إذا تعددت ، فتعصب مذهبىّ لا برهان له . وقد قلت فى مقدمة مجموعة الخطب[1] ، فى الفائدة الرابعة ، ما مثاله :

الحاجة فى هذه البلاد فى هذه الأوقات ، تدعو إلى أكثر من جمعة ، إذ ليس للناس جامع واحد يسعهم ، ولا يمكنهم جمعة واحدة أصلًا . إلا أن خروجها إلى حد أن لا فرق بينها وبين بقية الصلوات فى كثير من المساجد الصغيرة التى لم تشيد لمثلها ، قد هول فيه السبكىّ فى فتاويه ، لأنه مما تأباه مشروعيتها، وما مضى عليه عمل القرون الثلاثة، بل تسميتها جمعة ، فإن صيغة (فُعُلَة) فى اللغة للمبالغة . وبالجملة فالجوامع الكبار التى تؤمها الأفواج يوم الجمعة ويحتاج لإقامتها فيها حاجة بينة لمجاوريها ، هى التى لا خلاف فى جوازها مهما تعددت ، والتى لا تعاد الظهر بعدها ، وقد بسطناه فى كتابنا (إصلاح المساجد من البدع والعوائد)[2] .

الرابع ـ يدل قوله تعالى : (وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ) على عدم مشروعية تعطيل يوم الجمعة ، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب فى تعطيل يومى السبت والأحد ، وردّ على ما ابتدع فيه من الوظائف مايدعو إلى الانقطاع عن كل عمل . والأصل أن كل مالم ينص عليه الكتاب الحكيم ، ولا الهدى النبوىّ ، من خبر قويم ، فهو تشريع مالم يأذن به الله . وإذا رفع الله بفضله عنا الإصر والأغلال التى كانت على من قبلنا ، فما بالنا نستجرّها إلينا بالأسباب الضعيفة ، فاللهم غفراً .

---

(١) مجموعة للمؤلف رحمه الله بدمشق .

(٢) طبعه فى المطبعة السلفية بمصر عام ١٣٤١ هـ .

الخامس ـ قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) مشروعية الخطبة، والقيام فيها، واشتراط الجماعة فى الصلاة، وسماعهم الخطبة ، وتحريم الانفضاض . انتهى .

وفى الصحيحين[(١)] عن جابر قال : قدمت عيرٌ مرةً المدينة ، ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس . وبقى اثنا عشر رجلًا ، فنزلت (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .

وروى ابن جرير[(٢)] عن جابر قال : كان الجوارى إذا نكحوا يمرون بالكبر والمزامير، ويتركون النبىّ ﷺ قائمًا على المنبر ، وينفضون إليها ، فأنزل الله (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .

وعن مجاهد : اللهو الطبل .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ٣٨ ـ باب إذا نفر الناس عن الإمام فى صلاة الجمعة ، حديث ٥٤٤ .

ومسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٣ – سورة المنافقون

مدنية وآيها إحدى عشرة .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

[٢] ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أى أن الأمر كما قالوه ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أى فى قولهم (نَشْهَدُ) وادعائهم فيه مواطأة قلوبهم ألسنتهم ، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى حلفهم الكاذب ، أو شهادتهم هذه ، فإنها تجرى مجرى الحلف فى التوكيد ﴿جُنَّةً﴾ أى وقاية من القتل والسبى ، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى دينه الذى بعث به رسوله صلوات الله عليه ، وشريعته التى شرعها لخلقه ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى فى اتخاذهم أيمانهم جُنة ، وصدهم ، وغير ذلك من أعمالهم .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآية أبو حنيفة على أن (أشهد بالله) يمين ، وإن لم ينو معه ، لأنه تعالى أخبر عن المنافقين أنهم قالوه ، ثم سماه (أيماناً) انتهى .

قال الناصر: وليس فيما ذكره دليل، فإن قوله ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ غايته أن ماذكره يسمى يميناً ، وليس الخلاف فى تسميته يميناً ، وإنما الخلاف : هل يكون يميناً منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا ؟ وليس كل مايسمى حلفاً أو قسماً يوجب حكماً . ألا ترى أنه لو قال : أحلف ، ولم يقل : بالله ، ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف فى وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفاً لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

[٤] (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ، قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« ذَٰلِكَ » أى ما نُعى عليهم من مساوئهم « بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ » أى ظاهراً « ثُمَّ كَفَرُواْ » أى سرًّا « فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها بما مرنوا عليه من التلوّن والتذبذب ورسوخ الهيآت المنكرة ، فحجبوا عن الحق « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » أى حقية الإيمان، وحكمة الرسالة والدين « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » أى لتناسب أشكالهم، وحسن مناظرهم وروائهم « وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ » أى للين كلامهم بما يدهنون فيه « كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ » أى فى الخلوّ عن الفائدة ، لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تكن فى بناء ، أو دعامة لشيء آخر .

قال القاشانىّ : روى عن بعض الحكماء أنه رأى غلاماً حسناً وجهه، فاستنطقه لظنه ذكاءه وفطنته ، فما وجد عنده معنى ، فقال : ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن ! وهذا معنى قوله (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ) أى أجرام خالية عن الأرواح، لا نفع فيها ولا ثمر، كالأخشاب المسندة إلى الجدران عند الجفاف ، وزوال الروح النامية عنها ، فهم فى زوال استعداد الحياة الحقيقية ، والروح الإنسانى ، بمثابتها .

« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » قال ابن جرير(١) : أى يحسب هؤلاء المنافقون، من خبثهم، وسوء ظنهم، وقلة يقينهم، كلّ صيحة عليهم، لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

به أستارهم ويفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم ، وسبي ذراريهم ، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك ، كلما نزل فيهم من الله وحي على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطبهم .

وقال القاشانيّ : لأن الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة . وصفاء القلب ، وهم منغمسون في ظلمات صفات النفوس ، محتجبون باللذات والشهوات ، أهل الشك والارتياب ، فلذلك غلبهم الجبن والخور .

« هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ » قال القاشانيّ : فقد بطل استعدادهم ، فلا يهتدون بنورك ولا تؤثر فيهم صحبتك « قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أي كيف يصرفون عن الحق ، مع وضوح مناره . و (قاتل) بمعنى لعن وطرد ، وهو دعاء أو خبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ » أي : هلموا إلى التوبة والإنابة مما فرط منكم ، وداع من أفاعيلكم ضد المؤمنين « لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ » قال ابن جرير[1] أي : حركوها وهزوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره . وبتشديد الواو من (لَوَّوْا۟) قرأت القراء على وجه الخبر عنهم ، أنهم كرروا هز رؤوسهم وتحريكها وأكثروا . إلا نافعاً ، فإنه قرأ ذلك بتخفيف الواو ، على وجه أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة .

« وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ » أي يعرضون عما دعوا إليه ، « وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ » أي : عن المصير إلى الرسول والاعتذار .

قال القاشانيّ : لضراوتهم بالأمور الظلمانية ، واعتيادهم الكمالات البهيمية والسبعية ، فلا يألفون النور ، ولا يشتاقون إليه ، ولا إلى الكمالات الإنسانية ، لمسخ الصورة الذاتية .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

«سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ» قال القاشانىّ لرسوخ الهيآت الظلمانية فيهم ، وزوال قبول استعداداتهم للهداية ، لفسقهم وخروجهم عن دين الفطرة القويم . وهذا معنى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ، وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)

« هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ » أى : حتى تصيبهم مجاعة ، فيتفرقوا عنه . يعنون فقراء المهاجرين .

قال القاشانىّ : لاحتجابهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله، وبما فى أيديهم عما فى خزائن الله، فيتوهمون الإنفاق منهم ، لجهلهم .

« وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » أى : من بيده خزائنهما ، رازقهم منها ، وإن بخل المنافقون .

لطيفة :

قال الشهاب : قوله تعالى (هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ . . .) الخ تعليل لرسوخهم فى الفسق ، لا لعدم المغفرة . لأنه معلل بما قبله . وقوله : (عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ) الظاهر أنه حكاية ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسالته ظاهراً ، ولا حاجة إلى أنهم قالوه تهكماً ، أو لغلبة عليه ، حتى صار كالعلم ، كما قيل . ويحتمل أنهم عبروا بغير هـذه العبارة ، فغيّرها الله إجلالًا لنبيه ﷺ وإكراماً . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

« يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى : لمكان غرورهم وجهلهم وشدة ارتيابهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن جرير[(١)]: عنى بهذه الآيات كلها ـ فيما ذكر ـ عبدالله بن أبىّ ابن سلول. وذلك أنه قال لأصحابه : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله ﷺ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عما أخبر به عنه ، فحلف أنه ما قال ! وقيل له : لوأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ، ويعنى بذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه ، فأنزل الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها إلى آخرها .

ثم أورد ابن جرير الروايات فى ذلك . وتقدمه الإمام البخارىّ ، فأسندها من طرق . ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق فى غزوة بنى المصطلق : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع) وأظفره الله بهم . قال : فبينا الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له (جهجاه) ، يقود فرسه . فازدحم جهجاه وسنان الجهنىّ حليف بنى عوف بن الخزرج ، على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنىّ :

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

يامعشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدَث ، فقال : أوقد فعلوها ؟! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ! والله ! ما أَعُدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مُرْ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ! ولكن أذِّن بالرحيل، فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان فى قومه شريفاً عظيما . فقال من حضر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ـ حدَبا على ابن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يانبيّ الله ! والله لقد رحتَ فى ساعة منكرة ، ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال: عبد الله بن أبيّ ! قال : وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلّ ! قال : فأنت يا رسول الله ، والله ، تخرجه منها إن شئت . هو ، والله ، الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ! ارفق به .

فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا، ثم مشى رسول صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك، حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض، فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ. ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس، وقدم المدينة، ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين، فى ابن أبيّ، ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هـذا الذى أوفى لله بأذنه اه.

وكانت غزاة بنى المصطلق هذه، فى شعبان سنة خمس، كما فى (زاد المعاد).

وزعم قوم أن هذه المقالة كانت فى غزوة تبوك. قال الحافظ ابن حجر: وقع فى رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند (النسائى) أنها غزوة تبوك. ويؤيده قوله فى رواية زهير: فى سفر أصاب الناس فيه شدة. وأخرج عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير مرسلا، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلًا لم يرتحل منه حتى يصلى فيه. فلما كان غزوة تبوك، نزل منزلًا، فقال عبد الله بن أبيّ: فذكر القصة.

والذى عليه أهل المغازى أنها غزوة بنى المصطلق. ويؤيده قول جابر، بعد قوله صلى الله عليه وسلم لعمر: (دعه لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه).

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد. فهذا مما يوضح وهم من قال: إنها كانت بتبوك، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيراً جدا. وقد انضافت إليهم مسلمة الفتح فى غزوة تبوك، فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار انتهى.

وسبقه ابن كثير حيث قال: وقوله ـ أى ابن جبير ـ إن ذلك كان فى غزوة تبوك، فيه نظر، بل ليس بجيد، فإن عبد الله بن أبيّ ابن سلول لم يكن ممن خرج فى غزوة تبوك، بل

رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازى والسير ، أن ذلك كان فى غزوة المريسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق . انتهى .

التنبيه الثانى ـ قال الزمخشرىّ: معنى قوله تعالى:(وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ) الخ أى: الغلبة والقوة، ولمن أعزه وأيده من رسوله ومن المؤمنين . وهم الأخصاء بذلك . كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات ـ وكانت فى هيئة رثة ـ ألستُ على الإسلام ، وهو العز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لافقر معه ؟

وعن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما ؛ أن رجلاً قال له إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً؟ قال : ليس بتيه ، ولـكنه عزة وتلا هذه الآية . انتهى .

قال الرازىّ : قال بعض العارفين فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الـكِبْر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفةالإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية . كما أن الـكبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلها . فالعزة تشبه الـكبر من حيث الصـورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة . والـكبر مذموم ، والعزة محمودة . ولما كانت غير مذمومة ، وفيها مشاكلة للـكبر ، قال تعالى[1] (بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، وقوف على صراط العزة المنصوب على نار الـكبر .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[١٠] (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[١١] (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » أى: لا يشغلكم الاغتباط بها عن ذكر أمره ونهيه ، ووعده ووعيده، أو ذكر ما أنزله وأوحى به. ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالى المؤمن بعزة المال والولد، مع عزة الله « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » أى المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته، كما قال سبحانه[١] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) . « وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ » أى أتصدق وأخرج حقوق مالى « وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا » أى لن يؤخر فى أجل أحد إذا حضر ، ولكن يخترمه .

قال القاشانىّ : معنى قوله (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) إن صدقتم فى الإيمان ، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شىء، فلا تكن محبتهم ومحبة الدنيا ، من شدة التعلق بهم وبالأموال ، غالبة فى قلوبكم على محبة ، فتحتجبوا بهم عنه ، فتصيروا إلى النار ، فتخسروا نور الاستعداد الفطرىّ بإضاعته فيما يفنى سريعاً ، وتجردوا عن الأموال بإنفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها ، ليكون فضيلة فى أنفسكم ،

(١) [٥٩ / الحشر / ١٩] .

وهيأة نورية لها، فإن الإنفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء، وهيأة التجرد فى النفس. فأما عند حضور الموت ، فالمال للوارث لا له ، فلا ينفعه إنفاقه ، وليس له إلا التحسر والتندم ، وتمنى التأخير فى الأجل بالجهل ، فإنه لو كان صادقاً فى دعوى الإيمان ، وموقناً بالآخرة لتيقن أن الموت ضرورىّ ، وأنه مقدر فى وقت معين قدره الله فيه بحكمته ، فلا يمكن تأخره .

« وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى: بأعمالكم ونياتكم. فلا ينفع الإنفاق فى ذلك الوقت ولا تمنى التأخير فى الأجل ، ووعد التصدق والصلاح ، لعلمه بأنه ليس عن ملكة السخاء ، ولا عن التجرد والزكاء ، بل من غاية البخل وحب المال ، كأنه يحسب أنه يذهب به معه ، وبأن ذلك التمنى والوعد محض الكذب، ومحبة العاجلة، لوجود الهيأة المنافية للتصدق والصلاح فى النفس ، والميل إلى الدنيا ، كما قال الله تعالى[1] (وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ) ـ والله أعلم ـ .

تنبيه :

قال الإمام إِلْكِيَا الهرّاسى: يدلّ قوله تعالى (وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ...) الآية ، على وجوب إخراج الزكاة على الفور ، ومنع تأخيرها .

وأخرج الترمذىّ[2] عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقيل له : إنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا . ثم قرأ هذه الآية .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٢) أخرجه فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦٣ ـ سورة المنافقين، ٥ ـ حدثنا عبد بن حميد،

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٤ — سورة التغابن

مكية ، على ما يظهر من أمثالها لمن سبر . وقيل : مدنية . وآيها ثمان عشرة .

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[٢] ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ» أي ملك السموات والأرض، ونفوذ الأمر فيهما « وَلَهُ الْحَمْدُ » أي الثناء الجميل، لأنه مولى النعم وموجدها « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ » أي هو الذي انفرد بإيجادكم في أحسن تقويم ، قابل للكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك فمنكم مختار للكفر ، جاحد للحق ، كاسب له على خلاف ماتستدعيه خلقته . ومنكم مختار للإيمان ، كاسب له ، حسبما تقتضيه خلقته . وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد ، وما يتفرع عليها من سائر النعم . فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه ، بل تشعبتم شعباً ، وتفرقتم فرقاً . وتقديم الكفر ، لأنه الأغلب فيما بينهم ، والأنسب بمقام التوبيخ ـ أفاده أبو السعود ـ « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فيجازيكم به ، فآثروا مايجديكم ، وجانبوا مايرديكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ)

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة التى ترشد إلى المصالح الدينية والدنيوية « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ » أى حيث برأكم فى أحسن تقويم . وذلك أنه تعالى جعل الإنسان معتدل القامة على أعدل الأمزجة . وآتاه العقل وقوة النطق ، والتصرف فى المخلوقات ، والقدرة على أنواع الصناعات « وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » أى مرجعكم للجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤] (يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

«يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بخفاياها ، وما تنطوى عليه . وفيه تقرير لما قبله ، كالدليل عليه . لأنه إذا علم السرائر ، وخفيات الضمائر ، لم يخف عليه خافية من جميع الكائنات .

قال الزمخشرىّ : نبه بعلمه ما فى السموات والأرض ، ثم بعلمه مايسرّه العباد ويعلنونه، ثم بعلمه ذوات الصدور، أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ، ولا عازب عنه؛ فحقه أن يتقى ويحذر ، ولا يجترأ على شىء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم ، فى معنى تكرير الوعيد . وكل ما ذكره بعد قوله تعالى : (فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ) كما ترى ، فى معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ، ولا تشكر نعمته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ، وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ، وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى معشر الكفرة الفجرة « نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ » أى كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط «فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ» من عذاب الاستئصال . و (الوبال) الثقل ، والشدة المترتبة على أمر من الأمور . و (أمرهم) كفرهم ، عبر عنه بذلك ، للإيذان بأنه أمر هائل ، وجناية عظيمة « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا » أى ذلك المذكور من ذوقهم وبال أمرهم فى الدنيا ، وما أعد لهم من عذاب الأخرى ، بسبب أنه أتتهم رسلهم بالواضحات من الأدلة والأعلام ، على حقيقة ما يدعونهم إليه ، فنبذوها ، واتبعوا أهواءهم ، واستهزأوا برسلهم ، وقالوا : أبشر يهدوننا ؟

قال ابن جرير[1] : استكباراً منهم أن تكون رسل الله إليهم بشراً مثلهم ، واستكباراً عن اتباع الحق من أجل أن بشراً مثلهم دعاهم إليه . وجمع الخبر عن البشر فقيل (يهدوننا) ، ولم يقل (يهدينا) ، لأن (البشر) وإن كان فى لفظ الواحد ، فإنه بمعنى الجميع . انتهى .

وقال القاشانىّ . لما حجبوا بصفات نفوسهم عن النور الذى هو به يفضل عليهم بما لايقاس ، ولم يجدوا منه إلا البشرية ، أنكروا هدايته . فإن كل عارف لايعرف معروفه إلا بالمعنى الذى فيه، فلا يوجد النور الكمالىّ إلا بالنور الفطرىّ ، ولايعرف الكمال إلا الكامل،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ولهذا قيل : لا يعرف الله إلا الله . وكل طالب وجد مطلوبه بوجهٍ ما دالًا لما أمكن به التوجه نحوه . وكذا كل مصدق بشيء ، فإنه واجد للمعنى المصدق به، بما في نفسه من ذلك المعنى . فلما لم يكن فيهم شيء من النور الفطريّ أصلًا ، لم يعرفوا منه الكمال فأنكروه، ولم يعرفوا من الحق شيئاً ، فيحدث فيهم طلب ، فيحتاجوا إلى الهداية ، فأنكروا الهداية .

« فَكَفَرُواْ » أي : بالحق والدين والرسول « وَتَوَلَّواْ » أي عن التدبر في الآيات البينات ، « وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ » أي : أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه تعالى عنهم لما فعل ذلك . فـ (استغنى) معطوف على ماقبله ، وجوز جعله حالًا بتقدير (قد) . أي : وقد استغنى بكماله ، عرفوا أو لم يعرفوا .

« وَٱللَّهُ غَنِيٌّ » أي : بذاته عن العالمين، فضلًا عن إيمانهم، لايتوقف كمال من كمالاته عليهم ، ولا على معرفتهم له . « حَمِيدٌ » أي: يحمده كل مخلوق، أو مستحق للحمد بنفسه، وإن لم يحمده حامد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)

« زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ » أي من قبوركم « ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ » أي في الدنيا « وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أي هين لقبول المادة، وثبوت القدرة الكاملة .

قال ابن كثير: وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل، على وقوع المعاد ووجوده . فالأولى في يونس(١) : (وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُۥ لَحَقٌّ) والثانية في سبأ(٢): (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ) والثالثة هذه الآية .

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » أى إذا كان الأمر كذلك، فآمنوا بالله وحده وبرسوله فيما يخبركم به من البعث والجزاء وغيره « وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا » يعنى القرآن الحكيم. والالتفات إلى نور العظمة ، لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال « وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

« يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ » ظرف لـ (تُنَبَّؤُنَّ) أو لـ (خَبِيرٌ) لما فيه من معنى الوعيد . كأنه قيل : والله مجازيكم يوم يجمعكم ، أو مفعول لـ (اذكر) « لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ » أى ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون . أى لأجل ما فيه من الحساب والجزاء « ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ » قال الزمخشرىّ : التغابن مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء . وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغبن . انتهى .

ومما حسن إطلاق التغابن على ما ذكر ، ورود البيع والاشتراء فى حق الفريقين. فذكر تعالى فى حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، واشتروا الضلالة بالهدى، وذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ، فكأنهم غبنوا أنفسهم . ودل المؤمنين على تجارة رابحة فقال[١] (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ...) الآية ، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة . فخسرت صفقة الكفار ، وربحت صفقة المؤمنين .

(١) [٦١ / الصف / ١٠] .

وقال القاشانىّ : أى ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورية الفناء ، لا يبقى شىء منها لأحد . فإن فات شىء من ذلك ، أو أفاته أحد ، ولو كان حياته ، فإنما فات أو أُفيت ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن فى إفاتة شىء لو لم يفته لبقى دائماً ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكمالىّ والاستعدادىّ ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك ، فى إضاعة الربح ورأس المال فى تجارة الفوز والنجاة ، كما قال[1] (فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ) فمن أضاع استعداده ونور فطرته ، كان مغبونا مطلقا ، كمن أخذ نوره وبقى فى الظلمة . ومن بقى نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذى يقتضيه استعداده ، أو اكتسب منه شيئاً ، ولم يبلغ غايته ، كان مغبوناً بالنسبة إلى الكامل التام ، فكأنما ظفر بذلك الكامل بمقامه ومرامه ، وبقى هذا متحيراً فى نقصانه . انتهى « وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

[١١] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى بقدره ومشيئته، كقوله فى آية الحديد[2] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ

(١) [٢ / البقرة / ١٦] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

أن نبرأها) . « وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ » أى إلى العمل بمقتضى إيمانه، ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أى فيعلم مراتب إيمانكم، وسرائر قلوبكم ، وأحوال أعمالكم وآفاتها ، وخلوصها من الآفات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[١٣] (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أى لما أرسل به ، والله سبحانه وليّ الانتقام ممن عصاه ، وخالف أمره « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال ابن كثير: الأول خبر عن التوحيد ، ومعناه طلب. أى وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه، كما قال[1] (رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » خطاب لمن آمن بالنبيّ ﷺ، وكان له من أزواجهم وأولادهم من يعاديهم لإيمانهم، ويؤذيهم بسببه . فكان ذلك يغيظهم ، وربما يحملهم على البطش بهم . فأمروا بالحذر من فتنتهم

(١) [٧٣ / المزمل / ٩] .

وشركهم فحسب ، وأن يظهروا فيهم بمظهر أولى الفضل. كما قال : « وَإِن تَعْفُواْ » أى: عن ذنوبهم ، « وَتَصْفَحُواْ » أى : بترك التثريب والتعيير « وَتَغْفِرُواْ » أى جناياتهم بالرحمة لهم ، « فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى يعاملكم بمثل ماعملتم .

روى ابن جرير[١] عن إسماعيل بن أبى خالد قال : كان الرجل يُسلم فيلومه أهله وبنوه ، فنزلت الآية .

وعن ابن عباس[٢] قال : كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده ، ولم يألوا يثبطونه عن ذلك ، فقال الله : إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا ، وامضوا لشأنكم . فكان الرجل بعد ذلك إذا منع وثبط ، مرّ بأهله وأقسم ليفعلن وليعاقبن أهله فى ذلك ، فقال الله جل ثناؤه: (وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ) ، الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ » أى: تفتتن بهما النفس، ويجرى عليها البلاء بهما ، إذا أوثرا على محبة الحق .

« وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أى لمن آثر طاعة الله ومحبته عليهما .

روى ابن جرير[٣] عن الضحاك قال : هذا فى أناس من قبائل العرب. كان يسلم الرجل أو النفر من الحىّ ، فيخرجون من عشائرهم ، وَيَدَعُون أزواجهم وأولادهم وآباءهم عامدين إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وآباؤهم فيناشدونهم الله

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أن لايفارقوهم ، ولا يؤثروا عليهم غيرهم ، فمنهم من يرقّ ويرجع إليهم ، ومنهم من يمضى حتى يلحق بنبيّ الله ﷺ .

وعن مجاهد : يحمل الرجل ماله وولده على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه به . فلذلك وعد فى إيثار طاعة الله، وأداء حق الله فى الأموال، الأجر العظيم، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » أى جهدكم ووسعكم ، أى ابذلوا فيها استطاعتكم ، « وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » أى افهموا هذه الأوامر واعملوا بها « وَأَنْفِقُوا » أىأموالكم التى ابتلاكم الله بها فى مراضيه « خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ » أى وائتوا خيراً لأنفسكم . أى اقصدوا فى الأموال والأولاد ماهو خير لكم . فـ (خيراً) مفعول بمقدر ، وهذا قول سيبويه ، كقوله تعالى(١) (انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ) وقيل: تقديره يكن الإنفاق خيراً، فهوخبر (يكن) مضمراً، وهو قول أبى عبيد . وقيل: مفعول لـ (أنفقوا) وهو رأى(٢) ابن جرير . قال : أى وأنفقوا مالًا من أموالكم لأنفسكم تستنقذوها من عذاب الله، والخير فى هذا الموضع ، المال « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ » أى بالعصمة منه « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم .

---

(١) [٤ / النساء / ١٧١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾

[١٨] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

« إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » أى بالإنفاق فى سبيله، ماتحبون من غير منّ ولا أذى. قال الزمخشرىّ : ذكر (القرض) تلطف فى الاستدعاء « يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ » أى يضاعف جزاءه وخلفه « وَيَغْفِرْ لَكُمْ » أى ذنوبكم بالصفح عنها « وَٱللَّهُ شَكُورٌ » أى ذو شكر لأهل الإنفاق فى سبيله، بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا « حَلِيمٌ » أى عن أهل معاصيه، بترك معاجلتهم بعقوبته. « عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ » أى ما يغيب عن أبصار عباده وما يشاهدونه « ٱلْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه « ٱلْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه ، وصرفه إياهم فيما يصلحهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

٦٥ – سورة الطلاق

قال المهايميّ : سميت به لبيانها كيفية الطلاق السنّيّ ، وما يترتب على الطلاق من العِدَّة والنفقة والسكنى .

وتسمّى سورة النساء القُصْرَى . مدنية . وآيها اثنتا عشرة .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ، لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » أى فى وقتها ، وهو الطُّهْر . فاللام للتأقيت .

وقال الناصر : جعلت العدة ، وإن كان فى الأصل مصدراً ، ظرفاً للطلاق المأمور به . وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً ، مثل خفوق النجم ، ومقدم الحاج . وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر ، فالطهر عدة إذًا .

قال ابن جرير[١] : أى إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لطهرهن الذى يحصينه من عدتهن طاهراً من غير جماع ، ولا تطلقوهن بحيضهن الذى لايعتددن به من قُرْئهن . ثم روى عن قتادة قال : العدة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، تطليقة واحدة .

قال ابن كثير : ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنّة ، وطلاق بدعة . فطلاق السّنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملًا قد استبان حملها . والبدعيّ هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا . وطلاق ثالث لا سنّة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها . وسيأتى فى التنبيهات زيادة على هذا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ » أى اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء « وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ » أى : اتقوه فى تعدّى حدوده فى المطلقات ، فلا تخرجوهن من بيوتهن التى كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق ، غضباً عليهن ، وكراهة لمساكنتهن ، لأن لهن حق السكنى ، حتى تنقضى عدتهن .

« وَلَا يَخْرُجْنَ » أى : باستبدادهن من تلقاء أنفسهن .

قال الناصر : قوله تعالى (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ) توطئة لقوله (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ) حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين : مندرجاً فى العموم ، ومفرداً بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

« إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ » أى : فإنهن يخرجن . و (الفاحشة) الزنا ، أو أن تبذو المطلقة على أهلها ، أو هى كل أمر قبيح تعدّى فيه حده ، فيدخل فيه الزنا والسرقة والبذاء على الأحماء ونحوها ، والأخير مختار ابن جرير ، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

« وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ » أى : بتعريضها للعقاب بما أكسبها من الوزر . أو أضرّ بها بما اكتسب من قوة النفار ، وشدة البغضة التى قد تتفاقم فتعسر الرجعة ، مع أن الأوْلى تخفيف الشنآن ، وتلافى الهجران ـ وهو الأظهر ـ ولذا قال سبحانه : « لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا » فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية .

قال أبو السعود : وقد قالوا إن الأمر الذى يحدثه الله تعالى ، أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدى إلى خلافه ، فلابد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوىّ يلحقه بسبب تعديه ، ولا يمكن تداركه . أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوىّ والأخروىّ . ويخص التعليل بالدنيوىّ لكون احتراز الناس منه أشد ، واهتمامهم بدفعه أقوى .

وقوله تعالى (لَا تَدْرِى) خطاب للمتعدى بطريق الالتفات ، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى ، لا للنبىّ ﷺ ، كما توهم ، فالمعنى : ومن يتعد حد الله فقد أضرّ بنفسه ، فإنك

obeikandl.com

لاتدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر ، لعل الله يحدث فى قلبك، بعد ذلك الذى فعلت من التعدى، أمراً يقتضى خلاف ما فعلته ، فيبدل ببغضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ، ويتسنى تلافيه رجعة ، أو استئناف نكاح . انتهى .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فسر النبىّ ﷺ قوله تعالى (لِعِدَّتِهِنَّ) بأن تطلق فى طهر لم يجامع فيه ـ أخرجه البخارىّ ومسلم[1] ـ وفى لفظ مسلم[2] أنه قرأ (فَطَلِّقُوهُنَّ فى قبل عدتهن) ، فاستدل الفقهاء بذلك على أن طلاق السنة ماذكر ، وأن الطلاق فى الحيض أو طهر جومعت فيه بدعىّ حرام . واستدل قوم بالآية على عدم وقوعه فى الحيض .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ) وجوب السكنى لها مادامت فى العدة، وتحريم إخراجها وخروجها (إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) كسوء الخلق ، والبذاءة على أحمائها . فتنتقل .

الثالث ـ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) من لم يوجب السكنى بغير الرجعة. أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن وعكرمة قال: المطلقة ثلاثاً، والمتوفى عنها ، لاسكنى لها ولا نفقة، لقوله: (لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) فما يحدث بعد الثلاث .

الرابع ـ قال ابن المنذر : أباح الله الطلاق بطليعة هذه السورة . انتهى .

وذلك ـ كما قال بعض الحكماء ـ إذا استحال الوفاق بين الزوجين ، ولم يبق فى الإمكان

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١ ـ باب قول الله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ، حديث رقم ٢٠٦٠ ، عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١ ـ ١٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٤ (طبعتنا) .

إصـــلاح ، وصمم الزوج عليه ، لأن وجود شخصين متنافرى الطباع ، متباغضين ، لاينظر أحدهما إلى الآخر إلا ويحسّ فى نفسه بالنفور ، وفى قلبه بالعداوة ، يسعى كل منهما فى أذى صاحبه ـ شرٌّ وفساد يجب محوه وقطعه . انتهى .

وقال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) : إن الله سبحانه وتعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من كسر الزوجة ، وموافقة رضا عدوّه إبليس ، حيث يفرح بمفارقة طاعة الله بالنكاح الذى هو واجب أو مستحب ، وتعريض كل من الزوجين للفجور والمعصية ، وغير ذلك من مفاسد الطلاق ؛ وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة ، وتكون المصلحة فيه شرعه على وجه يحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة ، وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرعه على أحسن الوجوه وأقربها لمصلحة الزوج والزوجة ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع طلقة واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها . فإن زال الشر بينهما ، وحصلت الموافقة ، كان له سبيل إلى لمّ الشعث ، وإعادة الفراش كما كان ، وإلا تركها حتى انقضت عدتها . فإن تبعتها نفسه كان له سبيل إلى خطبتها ، وتجديد العقد عليها برضاها . وإن لم تتبعها نفسه ، تركها فنكحت من شاءت .

وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذى شرعه وأذن فيه ، ولم يأذن فى إبانتها بعد الدخول إلا بالتراضى بالفسخ والافتداء . فإذا طلقها مرة بعد مرة بقى له طلقة واحدة . فإذا طلقها الثالثة حرمها عليه ، عقوبة له ، ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجاً غيره ، ويدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق . فإذا علم أن حبيبه يصير إلى غيره ، فيحظى به دونه ، أمسك عن الطلاق . انتهى .

ومباحث الطلاق وفروعه تجدر مراجعتها من (إغاثة اللهفان) و (زاد المعاد) لابن القيم ، و (فتاوى ابن تيمية) شيخه . ومن لم يقف على ما حرراه وجاهدا فى الصدع به ، فاته علم غزير ، وفرقان منير ، وبالله التوفيق .

الخامس ـ استدل بهذه الآيات من قال : إن جمع الطلاق فى دفعة واحدة غير مشروع.

قال الإمام ابن القيّم فى (إغاثة اللفهان) : ووجه الاستدلال بالآية من وجوه :

أحدها ـ أنه تعالى إنما شرع أن تطلق لعدتها ، أى لاستقبال عدتها ، فيطلق طلاقاً يتعقبه شروعها فى العدة ، ولهذا أمر عليه السلام عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، لما طلق امرأته ، أن يراجعها ، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها ، وأن المراد بها الطلاق فى قبل العدة . وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر ، ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث : أنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى فى ذلك الطهر لأنه غير مطلق للعدة ، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى ، فلا تكون الثانية للعدة ، فلا يكون مأذوناً فيها ، فإن العدة إنما تحسب من الطلقة الأولى ، لأنها طلاق للعدة بخلاف الثانية والثالثة . ومن جعله مشروعاً قال : هو الطلاق لتمام العدة ، والطلاق لتمامها كالطلاق لاستقبالها . وكلاهما طلاق للعدة . وأصحاب القول الأول يقولون: المراد بالطلاق للعدة ، الطلاق لاستقبالها، كما فى القراءة الأخرى التى تفسر القراءة المشهورة (فطلقوهن فى قبل عدتهن) قالوا فإذا لم يشرع إرداف الطلاق للطلاق ، قبل الرجعة ، أو العقد ، فأن لايشرع جمعه معه أولى وأحرى. فإرداف الطلاق أسهل من جمعه ، ولهذا شرع الإرداف فى الأطهار من لا يجوّز الجمع فى الطهر الواحد.

وقد احتج عبد الله بن عباس على تحريم جمع الثلاث بهذه الآية . قال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننت أنه رادّها . ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ، ثم يقول : ياابن عباس ! وإن الله عز وجل قال : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) ، فما أجد لك مخرجاً . عصيتَ ربك ، وبانت منك امرأتك ، وإن الله عز وجل قال : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فى قبل عدتهن) . وهذا حديث صحيح[1] .ففهم ابن عباس من الآية أن جمع الثلاث محرم، وهذا فَهمُ مَنْ دعاله

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ١٠ ـ باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ، حديث رقم ٢١٩٧ .

النبيّ ﷺ أن يفقهه الله فى الدين ، ويعلمه التأويل ، وهو من أحسن الفهوم كما تقرر .

الوجه الثانى: من الاستدلال بالآية قوله تعالى (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ) وهذا إنما هو فى الطلاق الرجعىّ ، فأما البائن فلا سكنى لها ولا نفقة ، لسنة رسول الله ﷺ الصحيحة التى لا يُطعن فى صحتها، الصريحة التى لا شبهة فى دلالتها، فدل على أن هذا حكم كلّ طلاق شرعه الله تعالى ، ما لم تسبقه طلقتان قبله . ولهذا قال الجمهور : إنه لا يُشرع له ، ولا يملك إبانتها بطلقة واحدة بدون العوض . وأبو حنيفة قال : يملك ذلك ، لأن الرجعة حقه ، وقد أسقطها . والجمهور يقولون : ثبوت الرجعة ، وإن كان حقاً له، فلها عليه حقوق الزوجية فلا يملك إسقاطها إلا بمخالعة ، أو باستيفاء العدد ، كما دل عليه القرآن .

الوجه الثالث: أنه قال : (وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ) فإذا طلقها ثلاثاً جملة واحدة ، فقد تعدى حدود الله ، فيكون ظالماً .

الوجه الرابع : أنه سبحانه قال : (لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) وقد فهم أعلم الأمة بالقرآن ، وهم الصحابة ، أن الأمر ههنا هو الرجعة . قالوا : وأى أمر يحدث بعد الثلاث ؟

الوجه الخامس ـ قوله تعالى : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) فهذا حكم كل طلاق شرعه ، إلا أن يسبق بطلقتين قبله . وقد احتج ابن عباس على تحريم جمع الثلاث بقوله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فى قبل عدتهن) كما تقدم ـ وهذا حق، فإن الآية إذا دلت على منع إرداف الطلاق فى طهر أو أطهار، قبل رجعة أو عقد ـ كما تقدم ـ لأنه يكون مطلقاً فى غير قبل العدة ـ فلأنْ تدل على تحريم الجمع ، أولى وأحرى .

قالوا : والله سبحانه شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرفقها بالزوج والزوجة ، لئلا يتسارع العبد فى وقوعه ومفارقة حبيبه ، وقد وقَّت للعدة أجلًا لاستدراك ألفاظه بالرجعة ،

فلم يبح له أن يطلق المرأة فى حال حيضها ، لأنه وقت نفرته عنها ، وعدم قدرته على استمتاعه بها ، ولا عقيب جماعها ، لأنه قد قضى غرضه منها ، وربما فترت رغبته فيها ، ويزهد فى إمساكها لقضاء وطره، فإذا طلقها فى هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا، مع مافى الطلاق من تطويل العدة ، وعقيب الجماع من بعلها ، لأنه ربما قد اشتمل رحمها على ولدٍ منه ، فلا يريد فراقها . فأما إذا حاضت ، ثم طهرت ، فنفسه تتوق إليها ، لطول عهده بجماعه ، فلا يقدم على طلاقها فى هذه الحالة إلا لحاجة إليه . فلم يبح له الشارع أن يطلقها إلا فى هذه الحال ، أوفى حال استبانة حملها ، لأن إقدامه أيضاً على طلاقها فى هذه الحال دليل على حاجته إلى الطلاق وقد أكد النبيّ ﷺ هـذا بمنعه لعبد الله بن عمر أن يطلق فى الطهر الذى يلى الحيضة التى طلق فيها، بل أمره أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، إن بداله أن يطلقها فليطلقها. وفى ذلك عدة حكم :

منها ـ أن الطهر المتصل بالحيضة، هو وهى حكم القرء الواحد ، فإذا طلقها فى ذلك الطهر، فكأنه طلقها فى الحيضة ، لاتصاله بها ، وكونه معها ، كالشىء الواحد .

الثانية ـ أنه لو أذن له فى طلاقها فى ذلك الطهر، فيصير كأنه راجع لأجل الطلاق، وهذا ضد مقصود الرجعة . فإن الله تعالى إنما شرعها للإمساك ولمنفعة النكاح ، وعود الفراش ، فلا يكون لأجل الطلاق ، فيكون كأنه راجع ليطلق . وإنما شرعت الرجعة ليمسك . وبهذا بعينه أبطلنا نكاح المحلل ، فإن الله سبحانه وتعالى شرع النكاح للإمساك والمعاشرة، والمحلل تزوج ليطلق ، فهو مضاد لله تعالى فى شرعه ودينه .

الثالثة : أنه إذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، زال مافى نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق ، وربما صلحت الحال بينهما ، وأقلعت عما يدعوه إلى الطلاق، فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها . وإذا كان الشارع ملتفتاً إلى مثل هذه الرحمة والشفقة على الزوج ، وشرع الطلاق على هـذا الوجه الذى هو أبعد شىء عن الندم ، فكيف يليق

بشرعه أن يشرع إبانتها وتحريمها عليه بكلمة واحدة يجمع فيها ما شرعه متفرقاً ، بحيث لا يكون له سبيل إليها . وكيف يجتمع فى حكمة الشارع ، وحكمة هذا وهذا ؟

فهذه الوجوه ونحوها مما بيّن بها الجمهور أن جمع الثلاث غير مشروع ، هى بعينها تعيّن عدم الوقوع ، وأنه إنما يقع المشروع وحده ، وهى الواحدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا)

« فَإِذَا بَلَغْنَ » أى : المطلقات اللواتى فى عدة « أَجَلَهُنَّ » يعنى آخر العدة . أى : إذا قرب انقضاؤه وشارفنه « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أى. فراجعوهن بما أمركم الله به من الحقوق التى أوجبها الله لهن من النفقة والكسوة والمسكن وحسن الصحبة «أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» أى : اتركوهن حتى تنقضى عدتهن فيبنَّ منكم بمعروف ، وهو إيفاؤهن مالهن من حق ، كالصداق والمتعة ، على ما أوجب عليه لهن .

« وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ » أى: أشهدوا عند الرجعة والفرقة من يرضى دينهما وأمانتهما .

قال ابن عباس : فإن راجعها فهى عنده على تطليقتين . وإن لم يراجعها ، فإذا انقضت عدتها ، فقد بانت منه بواحدة ، وهى أملك بنفسها ، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره .

وهذا الإشهاد على المراجعة والطلاق مندوب ، ومنهم من ذهب إلى وجوبه عليهما ، ومنهم من فرق بين المراجعة فأوجبه فيها ، وبين الطلاق فاستحبه . وظاهر الأمر فى الآية الوجوب فيهما، والترجيح يجب أن يكون بدليل مرجح . ومما يؤيد الوجوب أن الأوامر فى الآية كلها ، قبل وبعد ، للوجوب إجماعاً، ولا دليل يصرف الأمر بالإشهاد عن ظاهره، فبقى

كسابقه ولاحقه ، وإن كان القِرَان لايفيد المشاركة فى الحكم ، إلا أنه عاضد ومؤيد ، إذا لم يوجد صارف . ثم الأمر بالإشهاد عند الطلاق ، يدل على أن الحلف بالطلاق ، أو تعليق وقوعه بأمر ، كله مما لا يعدّ طلاقاً فى الشرع ، لأن ما طلب فيه الإشهاد ، لابد أن ينوى فيه إيقاعه ويعزم عليه ويتهيأ له . وجدير بعصمة ينوى حلها ، وكانت معقودة أوثق عقد ، أن يشهد عليه ، بعد أن يسبقها مراجعة من حكَمين من قبل الزوجين ، كما أشارت إليه آية الحكم . فليتدبر الطلاق المشروع ، والطلاق المبتدع ، وبالله التوفيق .

قال الزمخشريّ : قيل فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقى ثبوت الزوجية ليرث .

« وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ » أى : لوجهه خالصاً ، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له ، ولا للمشهود عليه ، ولا لغرض من الأغراض ، سوى إقامة الحق ، ودفع الظلم ، كقوله تعالى[1] . (كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ) انتهى .

وتدل الآية على حظر أخذ الأجرة على أداء الشهادة ، ويؤيده قوله تعالى : « ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ » فإن المشار إليه هو الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ، ولأجل القيام بالقسط ، ويحتمل عوده على جميع ما فى الآية .

« وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ، قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا)

« وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » قال الزمخشريّ : يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن ، والأبعد من الندم .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] .

ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلّق للسنّة ، ولم يضارّ المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجاً مما فى شأن الأزواج من الغموم، والوقوع فى المضايق، ويفرج عنه وينفس ، ويعطه الخلاص، ويرزقه من وجه لايخطره بباله ولا يحتسبه ، إنأوفى المهر وأدّى الحقوق والنفقات ، وقلّ ماله . ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله : (ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ) يعنى : ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن الفرَسِ : قال أكثر المفسرين: معنى الآية فى الطلاق أى: من لايتعدى طلاق السنة إلى طلاق الثلاث يجعل له مخرجاً إن ندم فى الرجعة. قال: وهذا يستدل به على تحريم جمع الثلاث ، وأنها إذا جمعت وقعت ـ نقله فى (الإكليل) .

وقال ابن القيم فى (الإغاثة) : اعلم أنه من اتقى الله فى طلاقه ، فطلّق كما أمره الله ورسوله وشرعه له ، أغناه عن الحيل كلها . ولهذا قال تعالى ، بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) . فلو اتقى اللهَ عامةُ المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال ، والمكر والاحتيال ، فإن الطلاق الذى شرعه الله سبحانه : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ويطلقها واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها ، فإن بداله أن يمسكها فى العدة أمسكها . وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها، أمكنه أن يستقبل العقدعليها من غير زوج آخر . وإن لم يكن له غرض لم يضره أن تتزوج بزوج غيره ، فمن فعل هذا لم يندم ، ولم يحتج إلى حيلة ولا تحليل . ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال : عصيت ربك ، وفارقت امرأتك ، لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً .

وقال سعيد بن جبير : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إنى طلقت امرأتى ألفاً . فقال : أما ثلاث ، فتحرم عليك امرأتك ، وبقيتهن وزر ، اتخذت آيات الله هزوًا .

وقال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت

حتى ظننت أنه رادّها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة، ثم يقول: يا ابن عباس! يا ابن عباس! وإن الله تعالى قال: (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك ـ ذكره أبو داود[1] ـ والبحث طويل الذيل لا يستغني عن مراجعته.

«وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ» أي من يتوكل على ما شرعه، ويفوّض أمره إلى ماجعله المخرج، فهو كافيه، لأنه لا دواء أنجع منه «إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ» قرىء بالإضافة، أي يبلغ ما أراد من أمره، فمن تيقن ذلك فوض أمره إليه، وعول عليه. وقرئ (إن الله بالغٌ أمرَه) أي تام وكامل أمره وحكمه وشرعه، لما فيه من الحكم والرحمة. «قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا» أي حدًّا وتقديراً، حسبما تقتضيه الحكمة. ومنه تقديره ما قدر في أمر الطلاق، مما بينه في شأنه وتوقيته، ومعرفة المخرج منه.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤] (وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ، وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا)

«وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ» أي أشكل عليكم حكمهن، أو شككتم في الدم الذي يظهر منهن لكبرهن، أمن الحيض أو هو من الاستحاضة؟ «فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ» أي من الجواري لصغرهن إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول، فعدتهن ثلاثة أشهر. فحذف لدلالة المذكور عليه «وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ

[1] أخرجه أبو داود في: ١٣ ـ كتاب الطلاق، ١٠ ـ باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث، حديث رقم ٢١٩٧.

أَجَلُهُنَّ» فى انقضاء عِدَدهن «أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» أى ما فى بطنهن . والآية عامة فى المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن .

ويروى عن علىّ وابن عباس رضى الله عنهما أن الآية خاصة فى المطلقات . وأما المتوفى عنها فعدتها آخر الأجلين .

قال ابن جرير[1] : والصواب أنه عام فى جميع أولات الأحمال ، لأنه تعالى عَمَّ القول بذلك ، ولم يخصص الخبر عن مطلقة دون متوفى عنها .

فإن قيل : إن سياق الخبر فى أحكام المطلقات . يجاب : بأن نظمها خبر مبتدأ عن أحكام عِدَد جميع أولات الأحمال ، المطلقات وغير المطلقات .

وفى الصحيحين[2] عن أم سلمة أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

«وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ» أى فلم يخالف إذنه فى طلاق امرأته «يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا» وهو تسهيل الرجعة ما دامت فى عدتها ، والقدرة على خطبتها ، إن انقضت ودعته نفسه إليها بسبب التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾

«ذَٰلِكَ» أى ما ذكر من حكم الطلاق والرجعة والعدة «أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ»

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ـ كتاب الطلاق ، ٣٩ـ باب وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، حديث رقم ٢٠٦١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٥٧ (طبعتنا) .

أى لتأتمروا له وتعملوا به . «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا» أى بالمضاعفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ، وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ، وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ)

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ » أى من سعتكم التى تجدون، وطاقتكم ومقدرتكم « وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ » أى لا تستعملوا معهن الضرار « لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ » أى فى المسكن ببعض الأسباب ، من إنزال من لا يوافقهن ، أو بشغل مكانهن ، أو غير ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل): فى الآية وجوب السكنى للمطلقات كلهن ، وللبوائن ، لتقدم سكنى الرجعيات ، ولقوله بعده (وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ) فإنه خاص بالبوائن . وفيه أن الإسكان يعتبر بحال الزوج ، وتحريم المضارة بها ، وإلجائها إلى الخروج . « وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » قال ابن جرير[١] أى وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل ، وكن بائنات منكم ، فأنفقوا عليهن فى عدتهن منكم حتى يضعن حملهن .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

فعن ابن عباس فى الآية قال : هذه المرأة يطلقها زوجها ، فيبتّ طلاقها وهى حامل ، فيأمره الله أن يسكنها ، وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت فحتى تفطم ، وإن أبان طلاقها ، وليس بهــا حبل ، فلها السكنى حتى تنقضى عدتها ، ولا نفقة . وكذلك المرأة يموت عنها زوجها فإن كانت حاملا أنفق عليها من نصيب ذى بطنها إذا كان ميراث ، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفطم ولدها ، كما قال الله عز وجل[1] : ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ . فإن لم تـكن حاملا فإن نفقتها كانت من مالها .

ثم قال ابن جرير[2] : وقال آخرون عنى بقوله : ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ كل مطلقة ، ملك زوجها رجعتها أو لم يملك . وممن قال ذلك عمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما .

فعن إبراهيم قال : كان عُمر وعبد الله يجعلان للمطلقة ثلاثاً ، السكنى والنفقة والمتعة . وكان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة بنت قيس ، أن النبى ﷺ أمرها أن تعتد فى غير بيت زوجها . قال : ما كنا لنجيز فى ديننا شهادة امرأة .

ثم قال ابن جرير[3] : والصواب من القول فى ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تـكون حاملا ، لأن الله جل ثناؤه جعل النفقة بقوله : ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ للحوامل دون غيرهن من البائنات من أزواجهن ، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل فى الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء ، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر فى هذا الموضع وجه مفهوم ، إذ هن وغيرهن فى ذلك سواء . وفى خصوصهن بالذكر دون غيرهن أدلّ الدليل على أن لا نفقة لبائن ، إلا أن تـكون حاملاً . وبالذى قلنا صح الخبر عن رسول الله ﷺ .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : حدثتنى فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أن أبا عمرو المخزومىّ طلقها ثلاثاً ، فأمر لها بنفقة فاستقلتها . وكان رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن . فانطلق خالد بن الوليد فى نفر من بنى مخزوم إلى رسول الله ﷺ وهو عند ميمونة ، فقال : يارسول الله ! إن أبا عمرو طلق فاطمة ثلاثاً ، فهل لها من نفقة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ليس لها نفقة ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن انتقلى إلى بيت أم شريك ، وأرسل إليها أن لاتسبقينى بنفسك . ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون ، فانتقلى إلى ابن مكتوم ، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك . فزوجها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : لا يخفى على المتأمل لهذه الآى أن المبتوتة غير الحامل ، لا نفقة لها ، لأن الآى سيقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ، ولم يوجب سواها . ثم استثنى الحوامل نخصهن بإيجاب النفقة لهن حتى يضعن حملهن . وليس بعد هذا البيان بيان . والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة مبتوتة ، حاملا أو غير حامل ، لايخفى منافرته لنظم الآية . والزمخشرىّ نصر مذهب أبى حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر أن الحمل ربما طال أمده ، فيتوهم متوهم أن النفقة لا تجب بطوله نخصت بالذكر تنبيهاً على قطع هذا الوهم . وغرض الزمخشرىّ بذلك أن يحمل التخصيص على هذه الفائدة كيلا يكون له مفهوم فى إسقاط النفقة لغير الحوامل ، لأن أبا حنيفة يسوى بين الجميع فى وجوب النفقة . انتهى .

وفى (الإكليل) : فى الآية وجوب الإنفاق على البائن الحامل حتى تنقضى عدتها . ومفهومه أن غير الحامل لا نفقة لها . واستدل بعموم الآية من أوجبها للحامل المتوفى عنها . انتهى .

« فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ » يعنى : نساءكم البوائن منكم « فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » أى : على رضاعهن « وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ » أى ليقبل بعضكم من بعض ما أمر به من معروف ، ، يعنى : المجاملة والمسامحة فى الإرضاع والأجر . والخطاب للآباء والأمهات .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فيها أن الأم إذا طلبت إرضاعه بأجرة مثل ، وجب على الأب دفعها إليها ، وليس له أن يسترضع غيرها . وفيه دليل على أن الأم أولى بالحضانة .

قال إلْكِيَا : وفيها دلالة على أن الأجرة إنما تستحق بالفراغ من العمل . انتهى .

وفى قوله : (بمعروف) طلب أن لا يماكس الأب ، ولاتعاسر الأم ، لأنه ولدهما معاً ، وهما شريكان فيه ، وفى وجوب الإشفاق عليه ـ قال الزمخشرىّ ـ .

« وَإِن تَعَاسَرْتُمْ » أى ضيّق بعضكم على الآخر بالمشاحّة فى الأجرة ، أو طلب الزيادة ونحوه ، « فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ » قال ابن جرير[1] : أى فلا سبيل له عليها ، وليس له إكراهها على إرضاعه ، ولـكنه يستأجر للصبيّ مرضعة غير أمه البائنة منه .

وقال الزمخشرىّ : أى فستوجد ، ولاتعوز مرضعة غير الأم ترضعه . وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم . انتهى .

قال الناصر : وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبذل من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متموّل ولا مضنون به فى العرف ، وخصوصاً فى الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنه المال المضنون به عادة . فالأم ، إذاً ، أجدى باللوم ، وأحق بالعتب . انتهى .

وفيه أيضاً إشارة إلى معاتبة الأب أيضا ، كما حققه بعضهم ، وذلك أن الأب لما أسقط عن درجة الخطاب ، وبين أن معاسرته لاتجدى ، إذ لابد من مرضعة أخرى بأجر ، وهذه أشفق منها ، كان فى حكم المعاتب المذكور فى الجواب . وبه يندفع ما يقال : إن المعاسرة فعل الأب والأم ، فـكيف يخص الأم بالذكر فى الجزاء . وحاصله أنهما مذكوران فيه ، إلا أن الأم مصرح بها ، والأب مرموز إليه . وتقدير ابن جرير يشير إليه أيضاً .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : تدل على أن الأم لا تجبر على الرضاع حيث وجد غيرها، وقبل الصبىّ ثديها . وإلا أجبرت عليه .

قال ابن العربىّ : والآية أصل فى وجوب نفقة الولد على الأب ، خلافاً لمن أوجبها عليهما معاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ، وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا، سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

« لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ » أى من سعة ماله وغناه على امرأته البائنة فى أجر رضاع ولده منها ، وعلى ولده الصغير « وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ » أى ضيق عليه « فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ » أى على قدر ماله وطاقته « لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا » يعنى: وسعها وطاقتها، فلا يكلف الفقير نفقة الغنىّ ، ولا أحداً إلا فرضه الذى وجب عليه « سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » أى سيؤتى المقلّ بعد ضيق فرجاً ، وبعد فقر غنى ، تسلية للمعسرين من فقراء الأزواج ، وتصبير لمطلقاتهن ، وتطييب لقلوب الجميع ، وتبشّر عام .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فيه أن النفقة يراعى فيها حال المنفق يساراً وإعساراً ، وإن نفقة المعسر أقل من نفقة الموسر، لا حال المنفق عليه. واستدل بقوله (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا) من قال : لا فسخ بالعجز عن الإنفاق على الزوجة. وفى الآية استحباب مراعاة الإنسان نفسه فى النفقة والصدقة . ففى الحديث : إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً : إذا هو وسع عليه وسع ، وإذا هو قتر عليه قتر .

روى ابن جرير[١] أن عمر بن الخطاب سأل عن أبى عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا هو أخـذها ، فما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال رحمه الله : تأول هذه الآية (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ » .

ثم حذر تعالى من عصيانه وتعدى حدوده فيما شرعه ، عناية بما مرّ من الأحكام ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا)

[٩] (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

« وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا » أى أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد ، « وَرُسُلِهِۦ » أى وعن أمر رسله كذلك « فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا » أى على ماقدمت ، فلم نغادر لها منه شيئاً « وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا » أى منكراً « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا » أى عاقبة ما اكتسبت وجزاءه « وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » قال ابن جرير[٢] : أى غبناً ، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل ، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قولة تعالى :

[١٠] (أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ، قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

« أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » يعنى عذاب النار المعدّ فى القيامة « فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ » أى خافوه واحذروا بطشه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى العقول « ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى صدقوا الله ورسله. نعت للمنادى، أو عطف بيان له «قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا)

«رَّسُولًا » يعنى محمداً ﷺ، وجعله نفس الذكر مبالغة، لذلك أبدل منه « يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ» أى لمن سمعها وتدبرها أنها حق من عند الله «لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ» أى من الضلال إلى الهدى «وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا » أى طيّبه ، وفيه تعجيب له وتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » أى : المعبود المستحق للعبادة ، مَن هذا خلقه . لا ما يشرك معه . وههنا .

لطائف

الأولى ـ قال الزمخشريّ : قيل ما فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . انتهى .

قال بعض علماء الفلك : أما كون الأرضين سبعاً كالسموات ، فهو أمر نجهله ولا نفهمه إلا إذا أريد به أن للأرض سبع طبقات . قال: والحق يقال أن كون الأرضين سبعاً ، هو كما يظهر لنا وهم من أوهام القدماء ، ولذلك لم يرد فى القرآن الشريف لفظ الأرض مجموعاً ـ أى أرضين ـ ولم يرد فيه مطلقاً أن الأرضين سبع ، مع أنه ذكر أن السموات سبع ، مراراً عديدة وفى كل مرة يذكر معها الأرض بالأفراد . نعم ! ورد فيه قوله تعالى :

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وهى الآية الوحيدة التى فهموا منها أن الأرضين سبع . وهى كما لا يخفى لا تفيد ذلك مطلقاً .

قال : ولنا فى تفسيرها وجهان :

إما أن تكون (مِن) فى قوله تعالى (وَمِنَ ٱلْأَرْضِ) زائدة ، وإما أن تكون غير زائدة .

أما على الوجه الأول : فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات والأرض خلقها مثلهن . وعلى تفسيرنا هذا تكون هذه الآية دالة على أن الأرض خلقت كباقى الكواكب السيارة من كل وجه . أى : أنها إحدى السيارات ، وهو أمر ما كان معروفاً فى زمن النبيّ ﷺ ، وما كان يخطر ببال أحد من العرب ، وذلك من دلائل صدق القرآن. والأرض مثل السيارات الأخرى فى المادة ، وكيفية خلقها ، وكونها تسير حول الشمس ، وتستمد النور والحرارة منها ، وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى ، وكونها كروية الشكل. فالسيارات أو السماوات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ،

وهى مادة الشمس ، وعلى طريقة واحدة . قال الله تعالى[1] (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا » أى شيئاً واحداً (فَفَتَقْنَاهُمَا) أى فصلنا بعضهما عن بعض ، فالأرض خلقها الله تعالى مثل السموات تماماً .

وأما على الوجه الثانى : وهو أن (مِنْ) غير زائدة، فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات وخلق من الأرض أرضاً مثلهن ، فالآية واردة على طريقة التجريد ، كقولك : اتخذت لى سبعة أصدقاء ، ولى من فلان صديق مثلهم. أى مثلهم فى الصداقة . أو التقدير : وبعض الأرض مثلهن فى مادتها وعناصرها . وعليه ، فليس فى القرآن الشريف أدنى دليل على أن الأرضين سبع كما يزعمون . انتهى.

الثانية ـ ذكر ابن الأثير فى (المثل السائر) فى النوع السادس، فى اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها وتفاوتها فى الحسن فيه ، ما مثاله :

وفى صدد ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفرداً ، ولم يرد مجموعاً ، كلفظة الأرض ، فإنها لم ترد فى القرآن إلا مفردة . فإذا ذكرت السماء مجموعة . جىء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن . ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) فى قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) . انتهى .

الثالثة ـ قرئ (مِثْلُهُنَّ) بالنصب ، عطفاً على (سبع) وبالرفع على الابتداء ، وخبره (من الأرض) .

« يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » أى يجرى أمر الله وحكمه بينهن، وملكه ينفذ فيهن . وقوله: « لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » علة لـ (خلق) أو لـ (يتنزل) أو لمضمر يعمهما ، كفعلَ ما فعل لتعلموا . . . الخ ، فإن كلًّا منهما يدل على كمال قدرته وعلمه .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] .

قال ابن جرير[1] : أى نخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم ، عقوبته . فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع . وهو على ذلك قادر ومحيط أيضاً بأعمالكم ، فلا يخفى عليه منها خافٍ ، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت .

obeikandl.com

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٦ ـ سورة التحريم

مدنية ، وآيها اثنتا عشرة .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ، تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » . قال المهايمىّ : ناداه ليُقْبِل إليه بالكلية ، ويُدْبِر عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن . وعبّر عنه بالمبهم إشعارًا منه بأنه من غاية عظمته ، بحيث لايعلم كنهه . وأتى بلفظ (ٱلنَّبِىُّ) إشعارًا بأنه الذى نبيء بأسرار التحليل والتحريم الإلٰهىّ . والمراد بتحريمه ما أحلّ له ، امتناعه منه ، وحظره إيّاه على نفسه . وهذا المقدار مباح ، ليس فى ارتكابه جناح . وإنما قيل له (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) رفقاً به ، وشفقة عليه ، وتنويهاً لقدره ولمنصبه ﷺ ، أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشقّ عليه ، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيّه ، ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ، ومن أجله خُلقوا ، ليظهر الله كمال نبوّته ، بظهور نقصانهم عنه ـ كما أفاده الناصر ـ .

تنبيهان :

الأول : للأثريين فى هذا الذى حرمه ، صلوات الله عليه ، على نفسه ، روايات .

فروى البخارىّ ومسلم(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيّتنا دخل عليها

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ١ ـ باب يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ، حديث رقم ٢٠٦٣

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢٠ (طبعتنا) .

فلتقل له : إنى أجد منك ريح مغافير ، أكلتَ مغافير ؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال : بل شربت عسلًا عند زينب ابنة جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفتُ ! لا تخبرى بذلك أحداً ، فنزلت الآية .

وروى الشيخان[1] أيضاً عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان يحب الحلواء والعسل ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه ، فيدنو من كل واحدة منهن . فدخل على حفصة بنت عمر ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس . فسألتُ عن ذلك ، فقيل لى : أهدت إليها امرأة من قومها عكة عسل ، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة ، فقلت : والله لنحتالنّ له ! فذكرت ذلك لسودة ، وقلت لها : إذا دخل عليك ، ودنا منك ، فقولى له : يارسول الله ! أكلت مغافير ؟ فإنه سيقول لك : لا ! فقولى له : وما هـذه الريح ؟ وكان ﷺ يكره أن يوجد منه الريح الكريه ! فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل ، فقولى له : أكلت نحلُه العرفطَ ، حتى صار فيه ـ أى فى العسل ـ ذلك الريح الكريه . وإذا دخل علىّ فسأقول له ذلك . وقولى أنت يا صفية ذلك . فلما دخل على سودة قالت له مثل ما علمتها عائشة ، وأجابها بما تقدم . فلما دخل على صفية ، قالت له مثل ذلك . فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك . فلما كان اليوم الآخر ودخل على حفصة قالت له : يارسول الله ! ألا أسقيك منه ؟ قال . لاحاجة لى به ! قالت : إن سودة تقول : سبحان الله ، لقد حرمناه منه ، فقلت لها : اسكتى !

و (المغافير) صمغ حلوٌ له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له (العرفط) بضم العين المهملة والفاء .

وفى هذه الرواية أن التى شرب عندها العسل حفصة ، وفى سابقتها أنها زينب . والاشتباه فى الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٨ ـ باب لم تحرم ما أحل الله لك ، حديث رقم ٢٠٦٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢١ (طبعتنا) .

وروى ابن جرير[١] عن ابن عباس قال : كانت حفصة وعائشة متحابتين، وكانتا زوجتى النبىّ ﷺ ، فذهبت حفصة إلى أبيها ، فتحدثت عنده ، فأرسل النبىّ ﷺ إلى جاريته ، فظلت معه فى بيت حفصة ، وكان اليوم الذى يأتى فيه عائشة ، فرجعت حفصة ، فوجدتها فى بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته ، ودخلت حفصة ، فقالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد سؤتنى ! فقال النبىّ ﷺ : والله لأرضينك ، فإنى مسرّ إليك سرًّا فاحفظيه ! قالت : ما هو ؟ قال : إنى أشهدك أن سريتى هذه علىّ حرام ، رضا لك . وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبىّ ﷺ . فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فأسرت إليها أن أبشرى ، إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه فتاته . فلما أخبرت بسر النبىّ ﷺ ، أظهر الله عز وجل النبىّ صلى الله عليه وسلم عليه ، فأنزل الله على رسوله لماتظاهرتا عليه : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ . . .) الآيات .

وروى أيضاً [٢] عن الضحاك قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتاة يغشاها ، فبصرت به حفصة ، وكان اليوم يوم عائشة ، وكانتا متظاهرتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتمى علىّ ، ولا تذكرى لعائشة ما رأيتِ ، فذكرت حفصة لعائشة ، فغضبت عائشة ، فلم تزل بنبىّ الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها أبداً ، فأنزل الله هذه الآية ، وأمره أن يكفر يمينه ويأتى جاريته .

وروى النسائىّ عن أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرمها ، فأنزل الله هذه الآية .

ولم يرجح ابن جرير أحد السببين المرويين فى نزولها على الآخر ، بل وقف على إجمال الآية ، على عادته فى أمثالها ، ولذا قال : الصواب أن يقال : كان الذى حرمه النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

على نفسه شيئا كان الله قد أحله له . وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون شرابا من الأشربة ، وجائز أن يكون غير ذلك . غير أنه ، أي ذلك كان، فإنه كان تحريم شيء كان له حلالا ، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله ، وبين له تحلة يمينه . انتهى .

والذى يظهر لى ، هو ترجيح روايات تحريم الجارية فى سبب نزولها ، وذلك لوجوه :

منها ـ أن مثله يبتغى به مرضاة الضرات ، ويهتم به لهن .

ومنها ـ أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن ، بل فيه أنه حلف لايشرب به أنفة من ريحه ، ثم رغب إلى عائشة أن لاتحدث صاحبته به شفقة عليها . إلا أن يكن عاتبنه فى ذلك ، ولم يحتمل لطف مزاجه الكريم ذلك ، فحرمه . ولكن ليس فى الرواية مايشعر به . وما زاد على ذلك فمن اجتهاد الرواة .

ومنها ـ أن الاهتمام بإنزال سورة على حدة ، لتقريع أزواجه صلى الله عليه وسلم وتأديبهن فى المظاهرة عليه ، وإيعادهن على الإصرار على ذلك ، بالاستبدال بهن ، وإعلامهن برفعة مقامه ، وأن ظهراءه مولاه وجبريل والملائكة والمؤمنون ، كل ذلك يدل على أن أمراً عظيما دفعهن إلى تحريمه ما حرم وما هو إلا الغيرة من مثل ما روى فى شأن الجارية ، فإن الأزواج يحرصن أشد الحرص على مايقطع وصلة الضرة الضعيفة ويبترها من عضو الزوجية . هذا ما ظهر لى الآن .

وأما تخريج رواية العسل فى هذه الآية ، وقول بعض السلف نزلت فيه ، فالمراد منه أن الآية تشمل قصته بعمومها ، على ما عرف من عادة السلف فى قولهم : نزلت فى كذا، كما نبهنا عليه مراراً . و كأنه عليه السلام كان حرم ذلك الشراب ، ثم أخبر الرواة بأن مثله فرضت فيه التحلة ، فلا مانع من العود إلى شربه ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى (الإكليل) : استدل بها على أن من حرم على نفسه أمة أو طعاماً أوزوجة، لم تحرم عليه ، وتلزمه كفارة يمين .

وروى البخاريّ [١] عن ابن عباس قال : فى الحرام يكفَّر . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

وذهب ابن جرير [٢] إلى أنه كان مع التحريم يمين ، ورد كون التحريم بمجرده يميناً ، وفيه نظر ، لأن اليمين فى عرفهم أعم من القسم بالله ، كما ذهب إليه ابن عباس والحسن وقتادة وابن جبير وغيرهم .

قال قتادة : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم حرمها ، يعنى جاريته ، فكانت يميناً ـ رواه ابن جرير ـ وسيأتى ما يؤيده . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢] (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ، وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ)

« قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ » أى : شرع تحليلها ـ وهو حل ما عقدته ـ بالكفارة . والتحلة ، مصدر بمعنى التحليل . « وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ » أى: متولى أموركم « وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ » أى بمصالحكم « ٱلْحَكِيمُ » أى : فى تدبيره إياكم بما شرعه وحكم به .

تنبيهات

الأول : قال ابن قدامة فى (الروضة) . دلت الآية على أن حكم خطابه صلى الله عليه وسلم لا يختص به ، لأنه لما عاتبه فى تحريم ما أحل له قال عقيبه : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ١ ـ باب يا أيها النبيّ لم تحرم ما أحل الله لك ، حديث ٢٠٧٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٨ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

أَيْمَـٰنِكُمْ) وابتدأ الخطاب بمناداته وحده ، ثم تممه بلفظ الجمع بقوله : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ) . والمسألة طويلة الذيل فى الأصول .

الثانى ـ قال تقىّ الدين ابن تيمية : التحلة مصدر حللت الشىء تحليلاً وتحلة ، كما يقال : كرمته تكريماً وتكرمة ، وهذا المصدر يسمى به المحلل نفسه، الذى هو الكفارة . فإن أريد المصدر ، فالمعنى : فرض الله لكم تحليل اليمين ، وهو حلها الذى هو خلاف العقد .

ولهذا استدل مَن استدل من أصحابنا وغيرهم كأبى بكر عبدالعزيز، بهذه الآية على التكفير قبل الحنث ،لأن التحلة لا تكون بعد الحنث، فإنه بالحنث ينحل اليمين ، وإنما تكون التحلة إذا أخرجت قبل الحنث لينحل اليمين ، وإنما هى بعد الحنث كفارة ، لأنها كفرت ما فى الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله . فإذا تبين أن ما اقتضت اليمين من وجوب الوفاء بها ، رفعه الله عن هذه الأمة بالكفارة التى جعلها بدلاً من الوفاء فى جملة ما رفعه عنها من الآصار .

الثالث ـ شمل قوله تعالى (أَيْمَـٰنِكُمْ) تحريم الحلال المذكور قبل ، وهو الزوجة، لدخوله فيه دخولا أوليًّا ، بل كل يمين .

قال تقىّ الدين ابن تيمية فى فتاويه : قوله تعالى (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) نصٌّ عام فى كل يمين يحلف بها المسلمون ، أن الله قد فرض لها تحلة . وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة ، بعد تقدم الخطاب بصيغة الإفراد للنبيّ ﷺ ، مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى : فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة ، لكان مخالفاً للآية . كيف وهذا عام لم تخص فيه صورة واحدة ، لا بنص ولا بإجماع ، بل هو عام عموماً معنوياً ، مع عمومه اللفظىّ ؟ فإن اليمين معقود يوجب منع المكلف من الفعل . فشرعُ التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة ، وهذا موجود فى اليمين بالعتق والطلاق ، أكثر منه فى غيرها من أيمان نذر اللجاج والغضب : فإن الرجل إذا حلف بالطلاق ليقتلن النفس ، أو ليقطعن رحمه ، أو ليمنعن الواجب عليه من أداء أمانة ونحوها ، فإنه يجعل الطلاق عرضة ليمينه ،

أن يبرّ ويصلح بين الناس ، أكثر مما يجعل الله عرضة . ثم إن وفى بيمينه ، كان عليه من ضرر الدنيا والدين ما قد أجمع المسلمون على تحريم الدخول فيه . وإن طلق امرأته ، ففي الطلاق أيضاً من ضرر الدين والدنيا ما لا خفاء به . وأيضاً فإنه تعالى قال : (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وذلك يقتضى أنه ما من تحريم لما أحل الله ، إلا والله غفور لفاعله ، رحيم به ، وأنه لا علة تقتضى ثبوت ذلك التحريم ، لأن قوله لأى شيء استفهام فى معنى النفى والإنكار . والتقدير : لا سبب لتحريمك ما أحل الله لك ، والله غفور رحيم . فلو كان الحالف بالنذر والعتاق والطلاق على أنه لا يفعل شيئاً لا رخصة له ، لكان هنا سبب يقتضى تحريم الحلال ، ولا يبقى موجب المغفرة والرحمة على هذا الفاعل .

ومما يوضح عمومه أنهم قد أدخلوا الحلف بالطلاق فى عموم حديث[1] : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . فأدخلوا فيه الحلف بالطلاق والعتاق والنذر والحلف بالله . وهذه الدلالة تنبيه على أصول الشافعىّ وأحمد ومن وافقهما فى مسألة نذر اللجاج والغضب . فإنهم احتجوا على التكفير فيه بهذه الآية ، وجعلوا قوله (تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) كفارة أيمانكم عامًّا فى اليمين بالله واليمين بالنذر . ومعلوم أن شمول اللفظ لنذر اللجاج والغضب فى الحج والعتق ونحوهما ، سواء .

فإلى قيل : المراد بالآية اليمين بالله فقط ، فإن هذا هو المفهوم من مطلق اليمين ، ويجوز أن يكون التعريف بالألف واللام والإضافة فى قوله[2] (عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ) و (تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) منصرفاً إلى اليمين المعهودة عليهم ، وهى اليمين بالله ، وحينئذ فلا يعلم من اللفظ

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢١ ــ كتاب الأيمان والنذور ، ٩ ــ باب الاستثناء فى اليمين ، حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

(٢) [٥ / المائدة / ٨٩] .

إلا المعروف عندهم ، والحلف بالطلاق ونحوه لم يكن معروفاً عندهم ، ولو كان اللفظ عامًّا ، فقد علمنا أنه لم يدخل فيه اليمين التي ليست مشروعة ، كاليمين بالمخلوقات ، فلا يدخل الحلف بالطلاق ونحوه ، لأنه ليس من اليمين المشروعة، لقوله[1] : مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ . وهذا سؤال من يقول : كل يمين غير مشروعة، فلا كفارة لها ولا حنث.

فيقال : لفظ اليمين شمل هذا كله ، بدليل استعمال النبيّ ﷺ والصحابة والعلماء اسم اليمين فى هذا كله ، كقوله ﷺ : النذر حلف . وقول الصحابة لمن حلف بالهدى بالعتق : كفر يمينك . وكذلك فهمه الصحابة من كلام النبيّ ﷺ . ولإدخال العلماء ذلك فى قوله ﷺ[2] : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . ويدل على عمومه فى الآية أنه سبحانه قال : (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) ثم قال : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) فاقتضى هذا أن نفس تحريم الحلال يمين ، كما استدل به ابن عباس .

وسبب نزول الآية إما تحريمه العسل ، وإما تحريمه مارية القبطية . وعلى التقديرين فتحريم الحلال يمين على ظاهر الآية ، وليس يميناً بالله . ولهذا أفتى جمهور الصحابة ، كعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عباس وغيرهم؛ أن تحريم الحلال يمين مكفرة، إما كفارة كبرى كالظهار ، وإما كفارة صغرى كاليمين بالله. وما زال السلف يسمون الظهار ونحوه يميناً.

وأيضاً فإن قوله (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) إما أن يراد به لم تحرم بلفظ الحرام ، وإما لم تحرمه باليمين بالله تعالى ونحوها ، وإما لم تحرمه مطلقاً. فإن أريد الأول والثالث، فقد ثبت تحريمه بغير الحلف بالله تعالى ، ثم فيعم . وإن أريد به تحريمه بالحلف بالله ، فقد سمى الله الحلف بالله تحريماً للحلال . ومعلوم أن اليمين بالله لم يوجب الحرمة الشرعية. لكن لما أوجبت

---

(١) أخرجه البخاريّ فى ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٧٤ ـ باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأوّلا ، حديث رقم ١٢٩٨ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود فى ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور. ٩ ـ باب الاستثناء فى اليمين، حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

امتناع الحالف من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل تحريماً شرطياً ، لاشرعياً . فكلّ يوجب امتناعه من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل فيدخل فى قوة قوله: « لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ » وحينئذ فقوله : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ) لابد أن يعم كل يمين حرمت الحلال ، لأن هذا حكم ذلك الفعل ، فلابد أن يطابق صوره ، لأن تحريم الحلال هو سبب قوله : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ) وسبب الجواب إذا كان عامًّا كان الجواب عامًّا ، لئلا يكون جواباً عن البعض دون البعض ، مع قيام السبب المقتضى للتعميم .

وقال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) الذين أوجبوا كفارة اليمين بالتحريم أسعد بالنص من الذين أسقطوها . فإن الله سبحانه ذكر تحلة الأيمان عقيب قوله : (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) . وهذا صريح فى أن تحريم الحلال قد فرض فيه تحلة الأيمان ، إما مختصا به ، وإما شاملًا له ولغيره ، فلا يجوز أن يخلى سبب الكفارة المذكورة فى السياق عن حكم الكفارة ، ويتعلق بغيره ، وهذا ظاهر الامتناع .

وأيضاً فإن المنع من فعله بالتحريم ، كالمنع منه باليمين ، بل أقوى . فإن اليمين، إن تضمن هتك حرمة اسمه سبحانه ، فالتحريم تضمن هتك حرمة شرعه وأمره، فإنه إذا شرع حلالًا فحرمه المكلف ، كان تحريمه هتكاً لحرمة ماشرعه .

ونحن نقول : لم يتضمن الحنث فى اليمين هتك حرمة الاسم ، ولا التحريم هتك حرمة الشرع ، كما يقوله من يقوله من الفقهاء ، وهو تعليل فاسد جدًّا ، فإن الحنث إما جائز ، وإما واجب ، أو مستحب . وما جوز الله لأحد البتة أن يهتك حرمة اسمه ، وقد شرع لعباده الحنث مع الكفارة .

وأخبر النبىّ ﷺ (١) أنه إذا حلف على يمين، ورأى غيرها خيراً منها كفر عن يمينه، وأتى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور، ١٨ ـ باب اليمين فيما لايملك وفى المعصية وفى الغضب ، حديث ١٤٧٦ ، عن أبى موسى الأشعرىّ . ونصه : أتيت =

المحلوف عليه . ومعلوم أن هتك حرمة اسمه تبارك وتعالى، لم يبح فى شريعة قط، وإنما الكفارة كما سماها الله تعالى ، تحلة . وهى تفعلة من (الحل) ، فهى تحل ما عقد به اليمين ليس إلا . وهذا العقد ، كما يكون باليمين ، يكون بالتحريم . وظهر سر قوله تعالى : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) ، عقيب قوله : (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) .

وقال رحمه الله فيه ، قبلُ : أما من قال إنه يمين مكفرة بكل حال ، فمأخذ قوله أن تحريم الحلال من الطعام والشراب واللباس يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة ، فإن الله سبحانه قال : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ ...) الآية . ولا بد أن يكون تحريم الحلال داخلا تحت هذا الفرض ، لأنه سببه ، وتخصيص محل السبب من جملة العامّ ، ممتنع قطعاً ، إذ هو المقصود بالبيان أولًا ، فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان ، وهو ممتنع . وهذا استدلال فى غاية القوة . فسألت عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فقال : نعم ! التحريم يمين كبرى فى الزوجة ، كفارتها كفارة الظهار ، ويمين صغرى فيما عداها ، كفارتها كفارة اليمين بالله . قال وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم : إن التحريم يمين يكفّر .

وقال رحمه الله فى (أعلام الموقعين) : لا يجوز أن يفرق بين المسلم وبين امرأته بغير لفظ لم يوضع للطلاق ولا نواه ، وتلزمه كفارة يمين حرمه لشدة اليمين ، إذ ليست كالحلف بالمخلوق التى لا تنعقد ، ولا هى من لغو اليمين ، وهى يمين منعقدة ، ففيها كفارة يمين .

ثم قال فى المذهب الثالث عشر : إنه يمين يكفره ما كفر اليمين على كل حال . صح ذلك أيضاً عن أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وزيد بن ثابت وابن مسعود وعبد الله بن عمر وعكرمة وعطاء ومكحول وقتادة والحسن والشعبيّ وسعيد ابن المسيّب وسليمان بن يسار وجابر بن زيد وسعيد بن جبير ونافع والأوزاعىّ وأبى ثور ، وخلق

= رسول الله ﷺ فى نفر من الأشعريين ، فوافقته وهو غضبان . فاستحملناه . فحلف أن لا يحملنا . ثم قال : والله ! إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى هو خير ، وتحللتها .

سواهم رضى الله عنهم . وحجة هذا القول ظاهر القرآن ، فإن الله تعالى ذكر فرض تحلة الأيمان عقب تحريم الحلال ، فلا بد أن يتناوله يقيناً ، فلا يجوزجعل تحلة الأيمان لغير المذكور قبلها ، ويخرج المذكور عن حكم التحلة التي قصد ذكرها لأجله .

وقال في (زاد المعاد) : لا فرق بين التحريم (في غير الزوجة) بين الأمَة وغيرها عند الجمهور ، إلا الشافعيّ وحده ، فإنه أوجب في تحريم الأمَة خاصة ، كفّارة اليمين ، إذ التحريم له تأثير في الأبضاع عنده ، دون غيرها : وأيضاً فإن سبب نزول الآية تحريم الجارية ، فلا يخرج محل السبب عن الحكم ، ويتعلق بغيره . ومنازعوه يقولون : النص علق فرض تحلة اليمين بتحريم الحلال ، وهو أعمّ من تحريم الأمَةِ وغيرها ، فتجب الكفار حيث وجد سببها . وقد تقدّم تحريره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا ، قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

« وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ » يعني محمداً ﷺ « إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ » هي حفصة في قول الرواة : ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والشعبيّ والضحاك ـ كما نقله ابن جرير ـ « حَدِيثًا » وهو تحريم فتاته في قولهم . قال ابن جرير[(١)] : أو ماحرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد أحلّه له ، وقوله : لاتذكرى ذلك لأحد .

« فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ » أي أخبرت بالسرّ ، صاحبتَها كما تقدم ، « وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ » أي أطلعه على تحديثها به ، « عَرَّفَ بَعْضَهُ » أي عرّفها بعض ماأفشته مُعاتِباً « وَأَعْرَضَ

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

عَنۢ بَعْضٍ » أى بعض الحديث تكرُّماً ، « فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ » أى الذى لا تخفى عليه خافية .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمانه . وفيهــا حُسْن المعاشرة مع الزوجات ، والتلطُّف فى العتب ، والإعراض عن استقصاء الذَّنْب .

وحكى الزمخشرىّ عن سفيان قال : ما زال التغافل من فعل الكرام .

ثم أشار تعالى إلى غضبه لنبيّه، صلوات الله عليه، مما أتت به من إفشاء السرّ إلى صاحبتها، ومن مظاهرتهما على ما يقلق راحته ، وأن ذلك ذنب تجب التوبة منه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

« إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » أى إلى الحق . وهو ماوجب من مجانبة ما يسخط رسوله . وقد صح[1] عن ابن عباس أنه سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عن المتظاهرتين على رسول الله ﷺ فقال : عائشة وحفصة .

وفى خطابهما ، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، مبالغة ، فإن المبالغ فى العتاب يصير المعاتب مطرودًا بعيدًا عن ساحة الحضور. ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد. «وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ »أى تتظاهرا وتتفقا على ما يسوؤه ، « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ٢ ـ باب تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ، حديث رقم ٧٦ ، وهو حديث طويل ممتع كل الإمتاع .

وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ » أى متظاهرون على من أراد مساءته ، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه ؟ ولما كانت الملائكة أعظم المخلوقات وأكثرهم ، ختم الظهراء بهم ليكون أفخم فى التنويه بالنبيّ صلوات الله عليه ، وعظم مكانته ، والانتصار له ، إذ هى هنا بمثابة جيش جرار ، يملأ القفار ، يتأثر أميره وقائده ، ليحمل على عدوّه ومناوئه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا)

«عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ» أى خاضعات لله بالطاعة « مُّؤْمِنَٰتٍ » أى مصدّقات بالله ورسوله « قَٰنِتَٰتٍ » أى مطيعات لما يؤمرن به « تَٰٓئِبَٰتٍ » أى من الذنوب لا يصررن عليها « عَٰبِدَٰتٍ » أى متعبّدات لله ، كأن العبادة امتزجت بقلوبهن ، حتى صارت ملكة لهن « سَٰٓئِحَٰتٍ » قيل : معناه صائمات ـ وسننبه على ما فيه ـ « ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا » .

اعلم أن فى توصيف المبدلات بهذه الصفات ، تعريضاً بوجوب اتصاف الأزواج بها ، لا سيما أزواج النبيّ ﷺ .

تنبيه :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من (سائحات) صائمات أو مهاجرات . وقد قدمنا فى سورة التوبة فى تفسير (السائحون) أن الحق فيه هو المعنى الحقيقيّ ، لعدم مايمنع منه ، ولا يصار إلى المجاز إلا لمانع . ولذا قال بعض المحققين : إنه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء ، كما هى كذلك للرجال ، فمعنى قوله تعالى (سَٰٓئِحَٰتٍ) مسافرات ، سواء كان السفر لهجرة أو اعتبار أو اطلاع على آثار الأمم البائدة . وقد خصصت السنة عموم سفرهن بكونه مع زوج أو محرم لهن ، حفظاً لهن .

• ثم قال: كأن الذى دعا البعض لتفسير (السائحات) بالصائمات، أو بخصوص المهاجرات، تصوره أن السياحة فى البلاد لاتناسب طبيعة النساء المأمورات بالحجاب ، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد ، أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء ، أو كأنهن لم يخلقن إلا لسجون البيوت التى ربما تكون أنكى من أعمق سجون الجناة، أو كأنهن لم يخلق لهن من هذه الدنيا الرحيبة سوى بيت واحد ؟! وأما قوله تعالى[١] : (خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً) فكأنه مخصوص بالرجل ، أو كأن الآيات الآمرة بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة ، نازلة من السماء ليس للأمة جميعاً ، بل للنصف منها، وهو الرجال. وحاشا أن يكون ذلك ! أين هديه ﷺ فى سفره مع أزواجه ؟ فقد كان يقرع بينهن ، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها ، وسافرت معه . وقد صار ذلك شريعة معمولاً بها فى الدين . وهكذا صح[٢] أنه ﷺ لما قدم بصفية أردفها خلفه وهو مع الركب .

وبالجملة فالسياحة فى القرآن الكريم ليست ترمى إلى غاية واحدة ، بل إلى عدة غايات وفوائد .

أولاً ـ إدراك المعقولات ، والإحاطة بعظات المسموعات، كما نتعلمه من آية[٣] : (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ) .

ثانياً ـ الوقوف على أحوال الأمم البائدة ، وما لهم من جليل الآثار الداعية للاعتبار ، كما نتعلمه من قول الكتاب الحكيم[٤] : (أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٩] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ١٠٤ ـ باب قول الرجل جعلنى الله فداك ، حديث رقم ٢٤٦ ، عن أنس بن مالك .

(٣) [٢٢ / الحج / ٤٦] . (٤) [٤٠ / غافر / ٢١] .

بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ) وقوله[١] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

ثالثاً ـ البحث والتنقيب فى أنحاء المسكونة بالنظر فى الكون، وفى الفنون، للوصول إلى معرفة مبدع هذا العالم تعالى، كما يحثنا الكتاب الكريم على تسنم هذا المرتقى العالى بقوله[٢] (قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ).

رابعاً ـ الحصول على ربح التجارة كما نتعلم ذلك من قول الكتاب الكريم[٣] (وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ).

فهل ترى هـذه الفوائد ذات البال مختصة بالرجل دون الأنثى، حتى يكون السير خاصًّا بالرجل ؟ كلا ! وقد امتن الله على أهل سبأ بما حكاه بقوله[٤]: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ). وامتن على جميع عباده بقوله[٥]: (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ) وقال تعالى[٦] (مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) فهل يجوز أن نذهب إلى أن هـذه المنن هى من مخصوصات الرجل دون النساء ؟ كلا ! بل الكل مغمور بهذه المنّات ، كما هو مقتضى عموم الآيات . انتهى ملخصاً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» أى سببها. وذلك بترك المعاصى،

(١) [٣٠ / الروم / ٩] .
(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] .
(٣) [٧٣ / المزمل / ٢٠] .
(٤) [٣٤ / سبأ / ١٨] .
(٥) [١٠ / يونس / ٢٢] .
(٦) [٥ / المائدة / ٩٦] .

وفعل الطاعات، والقيام على تأديب الأهل، وأخذهن بما تأخذون به أنفسكم « وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ » أى تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب « عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ » أى تلى أمرها وتعذيب أهلها ، زبانية « غِلَاظٌ شِدَادٌ » أى جفاة قساة « لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » قال الزمخشرىّ . وليست الجملتان فى معنى واحد . فإن معنى الأولى : أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية: أنهم يؤدون مايؤمرون به ، لا يتثاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه . انتهى .

وقيل : الجملة الأولى لبيان استمرار إتيانهم بأوامره ، والثانية لأنهم لا يفعلون شيئاً مالم يؤمروا به ، كقوله[1] تعالى (وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ) فإن استمرارهم على فعل ما يؤمرون به يفيده ، فلا تكرار . وقيل : إنه من الطرد والعكس ، وهو يكون فى كلامين ، يقرر منطوق أحدهما مفهوم الآخر ، وبالعكس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى يقال لهم ذلك عند دخولهم النار . فالمراد بـ (اليوم) وقت دخولهم إياها ، فتعريفه للعهد ، والنهى عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم ، أو العذر لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا » أى توبة ترقع الخروق، وترتق الفتوق ، وتصلح الفاسد ، وتسد الخلل . من (النصح) بمعنى الخياطة . أو توبة خالصة عن شوب الميل إلى الحال الذى تاب عنه ، والنظر إليه بعدم الالتفات ، وقطع النظر عنه . من (النصوح) بمعنى الخلوص « عَسَىٰ رَبُّكُمْ » أى بمناصحة أنفسكم بالتوبة النصوح « أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ » أى لا يذلهم . تعريض لأعدائهم بالخزى والصغار « نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا» أى أدمه أو زده « وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ » أى بالسنان والبرهان «وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ» أى فيما تجاهدهم به ، لتنكسر صلابتهم، وتلين شكيمتهم وعريكتهم ، فتنقهر نفوسهم وتذل وتخضع . « وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ)

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ » أى حالها « كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا » أى بالمظاهرة عليهما والكفر والعصيان، مع تمكنهما من الطاعة والإيمان «فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ» أى من عذابه «شَيْـًٔا وَقِيلَ» أى لهما عند موتهما ، أو يوم القيامة : « ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ » أى مع سائر الداخلين من الفجرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[١٢] (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ)

«وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى من عملهم وعذابهم « وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أى حفظته وصانته « فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا » يعنى: جبريل عليه السلام، أو من روح خلقناه بلا توسط، وهو عيسى عليه السلام«وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا»أى بصحفه المنزلة من عنده«وَكُتُبِهِۦ »أى الموحاة. والعطف للتفسير ، أو الكلمات أعم من المكتوب والمحفوظ من أوامره ووصاياه المتوارثة ، والكتب خاصة بالمخطوط من الأسفار . « وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ » أى من المواظبين على الطاعة لله، والخضوع لأحكامه . والتذكير للتغليب .

تنبيهات :

الأول : قال الزمخشرىّ : مثل الله عز وجل حال الكفار فى أنهم يعاقبون على كفرهم

وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم ، من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب ، أو وصلة صهر ، لأن عدواتهم لهم ، وكفرهم بالله ورسوله، قطع العلائق ، وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر ، نبيًّا من أنبياء الله ـ بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما ، بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج ، إغناء ما من عذاب الله . ومثل حال المؤمنين فى وصلة الكافرين لاتضرهم ، ولاتنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله ـ بحال امرأة فرعون ، ومنزلتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، الناطق بالكلمة العظمى . ومريم ابنة عمران ، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أن قومها كانوا كفاراً . وفى طىّ هذين التمثيلين تعريض بأمَّى المؤمنين المذكورتين فى أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ ، بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما فى التمثيل من ذكر الكفر . ونحوه فى التغليظ قوله تعالى[(١)] : (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ) وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا فى الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتيْن ، وأن لاتتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ ، فإن ذلك الفضل لاينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين . والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله . وأسرارُ التنزيل ورموزه فى كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء حدًّا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى .

الثانى : قال الإمام ابن القيم فى (أعلام الموقعين) اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : مثل للكفار ، ومثلين للمؤمنين .

فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب ، أو وصلة صهر ، أو سبب من

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩٧] .

أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ، إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدى رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح ، مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التى كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما . فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله، وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبيّ، ولو كان بينهما فى الدنيا أشد الاتصال. فلا اتصال فوق اتصال البنوّة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولوط عن امرأتيهما من الله شيئاً . قال تعالى(١) : (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ، يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) : وقال تعالى(٢) : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا) وقال تعالى(٣) (وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا) وقال(٤) (وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ، إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ) وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة ؛ أن من تعلقوا به من دون الله، من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة ، أو يجيرهم من عذاب الله أو يشفع لهم عند الله. وهذا أصل ضلال بنى آدم وشركهم وهو الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الذى بعث الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه ، بإبطاله ، ومحاربة أهله ومعاداتهم .

وأما المثلان اللذان للمؤمنين . فأحدهما امرأة فرعون ، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه فى كفره وعمله ، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً فى الآخرة، وإن تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتى عامة . فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به ، وهو أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالها بهما ، وهما رسولا رب العالمين .

المثل الثانى للمؤمنين : مريم ، التى لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر .

(١) [٦٠ / الممتحنة / ٣] . (٢) [٨٢ / الانفطار / ١٩] .
(٣) [٢ / البقرة / ٤٨ و ١٢٣] . (٤) [٣١ / لقمان / ٣٣] .

فذكر ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد . فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها ، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها ، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً .

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة ، فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرهن عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله، ويردن الدار الآخرة ، لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ ، كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالها بهما ، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة . ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة . وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم اعتبار آخر : وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً ، قذفُ أعداء الله اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأها الله عنه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه . وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها . كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتاه في حق النبي ﷺ . فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن ، والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليه . وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون . انتهى .

الثالث ـ قال القاشاني : بيّن تعالى أن الوصل الطبيعية، والاتصالات الصورية غير معتبرة في الأمور الأخروية . بل المحبة الحقيقية ، والاتصالات الروحانية ، هي المؤثرة فحسب . والصورية التي بحسب اللحمة الطبيعية والخلطة والمعاشرة لا يبقى لها أثر فيما بعد الموت ، ولا تكون إلا في الدنيا ، بالتمثيلين المذكورين . وإن المعتبر في استحقاق الكرامة عند الله هو العمل الصالح ، والاعتقاد الحق ، كإحصان مريم ، وتصديقها بكلمات ربها ، وطاعتها المعدة إياها

لقبول نفخ روح الله فيها . وقد يلوح بينهما أن النفس الخائنة التى لاتفى بالطاعة ، ولا تحفظ الأسرار ، وتبيح المخالفة ، داخلة فى نار الحرمان ، وجحيم الهجران مع المحجوبين ، ولا تغنى هداية الروح عنها شيئاً من الإغناء فى باب العذاب . وأن القلب المقهور تحت استيلاء النفس الأمارة الفرعونية ، الطالب للخلاص بالالتجاء إلى الحق الذى قويت فيه قوة محبة الله لصفائه ، وضعفت قوة قهره للنفس والشيطان لعجزه وضعفه ، لايبقى فى العذاب مخلدا ويخلص إلى النجاة ، ويبقى فى النعيم سرمدا ، وإن تعذب بمجاورتها حيناً ، وتألم بأفعالها برهة . وأن النفس المتزينة بفضيلة العفة المشار إليها بإحصان الفرج ، هى القابلة لفيض روح القدس . المتنورة بنور الروح المصدقة بكلمات الرب ، من العقائد الحكمية ، والشرائع الإلهية ، المطيعة لله مطلقاً ، علما وعملا ، سرًّا وجهراً . انتهى ملخصاً .

الرابع ـ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ) على صحة أنكحة الكفار . أقول : ويستدل بقوله تعالى (ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ إلى قوله : فَخَانَتَاهُمَا) على جواز استدامة الرجل الصالح نكاح امرأته الفاسقة العاصية ، وعلى أن استبقاءها بدون مفارقة لايعد من قلة التورع . وهو جلىّ . ويستدل بذلك أيضاً على أن نكاح المشركات كان جائزاً فى شرع من قبلنا ، وقد حظره الإسلام أشد الحظر ، كما مرّ فى آيات عديدة .

الخامس : قال ابن كثير فى قوله تعالى عن حكاية امرأة فرعون (رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ) قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شىء من ذلك فى حديث مرفوع .

السادس ـ قال الزمخشرىّ : فى دعاء امرأة فرعون دليل على أن الاستعاذة بالله ، والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ، وسنن الأنبياء والمرسلين [1] (فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ)[2] .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] . (١) [١٠ / يونس / ٨٥و٨٦] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

٦٧ – سُورَة المُلك

قال المهايمى : سميت به لاشتمالها على كثير مما ينبغى أن يكون عليه الملك من كثرة الخيرات ، وعموم القدرة ، والإحياء والإماتة ، واختبار أعمال الناس ، والغلبة والغفران ، ورفع الأبنية لخدامه وعدم التفاوت فى رعاياه ، وتزيين بلاده ، والقهر على الأعداء ، والترحم على الأولياء ، والأمن ورخص الأسعار ، وأن لا يقدر أحد على نصر من عاداه ، ولا على رزق من منعه . انتهى .

وتسمى سورة (تبارك) . وهى مكية . وآيها ثلاثون .

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » قال ابن جرير[١] : أى تعاظم الذى بيده ملك الدنيا والآخرة ، وسلطانهما ، نافذ فيهما أمره وقضاؤه ، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة ، لا يمنعه مانع ، ولا يحول بينه وبينه عجز .

وقال القاشانىّ : الملك ، عالم الأجسام ، كما أن الملكوت عالم النفوس . ولذلك وصف ذاته باعتبار تصريفه عالم الملك ، بحسب مشيئته بالتبارك ، الذى هو غاية العظمة ، ونهاية الازدياد فى العلوّ والبركة . وباعتبار تسخيره عالم الملكوت ، بمقتضى إرادته بالتسبيح ، الذى هو التنزيه ، كقوله[٢] (فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) كلاًّ بما يناسبه ، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام ، والتنزه يناسب المجردات عن المادة . فمعنى (تبارك) تعالى وتعاظم ، الذى يتصرف فى عالم الملك بيد قدرته ، لا يتصرف فيه غيره فبيده كل ما وجد من الأجسام ، لا بيد غيره ، يصرفها كما يشاء ، وهو القادر على كل ما عدم من الممكنات ، يوجدها على ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ)

« ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى : قدر الموت والحياة

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٣] .

فأمات من شاء وما شاء ، وأحيي من أراد وما أراد ، إلى أجل معلوم . أو أوجد الحياة ، وأزالها حسبما قدّره .

قال القاشانيّ : الموت والحياة من باب العدم والملكة. فإن الحياة هى الإحساس والحركة الإرادية ولو اضطرارية كالتنفس . والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له. وعدم الملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود. والألم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجوديّ، فلذلك صح تعلق الخلق به، كتعلقه بالحياة،وجعل الغرض من خلقهما ، بلاء الإنسان فى حسن العمل وقبحه، أى العلم التابع للمعلوم الذى يترتب عليه الجزاء، وهو العلم الذى يظهر على المظاهر الإنسانية بعد وقوع المعلوم ، فإنه ليس إلا علم الله الكامن فى الغيب ، الظاهر بظهور المعلوم، لأن الحياة هى التى يتمكن بها على الأعمال ، والموت هو الداعى إلى حسن العمل الباعث عليه ، وبه يظهر آثار الأعمال ، كما أن الحياة يظهر بها أصولها، وبهما تتفاضل النفوس فى الدرجات، وتتفاوت فى الهلاك والنجاة . وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت فى عالم الملك ذاتىّ ، والحياة عرضية . وقيل : إن أريد به العدم السابق ، فتقدمه ظاهر ، لسبقه على الوجود . أو العدم اللاحق ، فتقديمه لأن فيه عظة وتذكرة ، وردعاً عن ارتكاب المعاصى .

« وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى : الغالب الذى يقهر من أساء العمل « ٱلْغَفُورُ » أى لذنوب من أناب إليه وأحسن العمل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ)

« ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا » قال ابن جرير[١] : طبقاً فوق طبق ، بعضها فوق بعض .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقال المهايمىّ : أى يوافق بعضها بعضاً بلا تضاد ، ليتم أمر الحكمة فى السكوائن والفواسد .

وقال بعض علماء الفلك : اعلم أن لفظ (السماء) يطلق لغة على كل ما علا الإنسان، فإنه من السموّ ، وهو العلو ، فسقف البيت سماء . ومنه قوله تعالى[1] (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ) أى فليمدد بحبل إلى سقف بيته . وهذا الفضاء اللانهائىّ سماء . ومنه قوله تعالى[2] : (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ) . والسحاب سماء ، ومنه قوله تعالى[3] (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) والكواكب سماوات. فالسموات السبع المذكورة كثيراً فى القرآن الشريف ، هى هذه السيارات السبع ، وهى طباق ، أى : أن بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

« مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ » أى : تخالف وعدم تناسب فى رعاية الحكمة ، بل راعاها فى كل خلقه .

« فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ » أى إن شككت، فكرر النظر « هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ؟ » أى: خلل . وأصل (الفطور) الصدوع والشقوق . أريد به لازمه . كذا قالوه ، والصحيح أنه على حقيقته أى : هل ترى من انشقاق وانقطاع بين السموات ، بحيث تذهب باتصالات الكواكب فتفرقها ، وتقطع علاقاتها وأحبال تجاذبها ؟ كلا ! بل هى متجاذبة ، مرتبط بعضها ببعض من كل جهة ، كما تقدم فى سورة (ق) فى آية[4]: (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) .

---

(١) [٢٢ / الحج / ١٥] . (٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٤] .
(٣) [٢ / البقرة / ٢٢] . (٤) [٥٠ / ق / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)

« ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ » أى كرره « كَرَّتَيْنِ » أى : رجعتين أخريين ، ابتغاء الخلل والفساد والعبث . والمراد بالتثنية التكرير . « يَنقَلِبْ » أى:يرجع « إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا » أى : مطروداً عن إصابة المطلوب . « وَهُوَ حَسِيرٌ » أى : معيي كالٌّ .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب الزمخشريّ إلى أن قوله تعالى (مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ) صفة ثانية لقوله : (سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ) وضع فيها ـ خلق الرحمن ـ موضع الضمير للتعظيم ، والأصل (فِيهِنَّ) وتابعه القاضي والقاشانيّ ، وعبارته :

نهاية كمال عالم الملك فى خلق السموات ، لاترى أحكم خلقاً ، وأحسن نظاماً وطباقاً منها . وأضاف خلقها إلى الرحمن ، لأنها من أصول النعم الظاهرة ، ومبادىء سائر النعم الدنيوية ، وسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً ، وحسن انتظامها وتناسبها . وإنما قال (ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) لأن تكرار النظر ، وتجوال الفكر ، مما يفيد تحقق الحقائق وإذا كان ذلك فيها عند طلب الخروق والشقوق ، لايفيد إلا الخسوء والحسور ، تحقق الامتناع ، وما أتعب من طلب وجود الممتنع . انتهى .

ولو جعل قوله تعالى : (مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ) مستأنفاً ، مقرراً بعمومه لتناسب خلقه وإتقانه ، وتناهى حسنه ، فيشمل ما قبله ـ لكان أولى من تخصيصه بوصفية ماقبله ، ويكون كآية[١] : (أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ)وآية[٢]: (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) وتلطف بعضهم فقال : فى الآية إشارة إلى قياس تقديره : ماترى فيها من تفاوت لأنها من خلقه تعالى . وما ترى فى خلقه من تفاوت .

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثانى ـ للإمام ابن حزم رحمه الله كلام فى هذه الآية فى كتاب (الفِصَل) ساقه فى مباحثه مع المعتزلة ، نأثره هنا لنفاسته ، قال رحمه الله :

التفاوت المعهود هو ما نافر النفوس ، أو خرج عن المعهود ، فنحن نسمى الصورة المضطربة بأن فيها تفاوتاً ، فليس هذا التفاوت الذى نفاه الله تعالى عن خلقه ، فإذن ليس هو الذى يسميه الناس تفاوتاً ، فلم يبق إلا أن التفاوت الذى نفاه الله تعالى عما خلق هو شىء غير موجود فيه البتة ، لأنه لو وجد فى خلق الله تعالى تفاوت ، لكذب قول الله عز وجل (مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ) ولا يكذب الله تعالى إلا كافر، فبطل ظن المعتزلة أن الكفر والظلم والكذب والجور تفاوت ، لأن كل ذلك موجود فى خلق الله عز وجل ، مرئىّ فيه ، مشاهد بالعيان فيه ، فبطل احتجاجهم .

فإن قال قائل : فما هذا التفاوت الذى أخبر الله عز وجل أنه لا يرى فى خلقه ؟

قيل لهم : هو اسم لايقع على مسمى موجود فى العالم أصلاً ، بل هو معدوم جملة ، إذ لو كان شيئاً موجوداً فى العالم ، لوجد التفاوت فى خلق الله تعالى . والله تعالى قد أكذب هذا ، وأخبر أنه لا يرى فى خلقه .

ثم نقول ، وبالله تعالى التوفيق : إن العالم كله مادون الله تعالى، وهو كله مخلوق لله تعالى، أجسامه وأعراضه كلها ، لا نحاشى شيئاً منها . ثم إذا نظر الناظر فى تقسيم أنواع أعراضه ، وأنواع أجسامه ، جرت القسمة جرياً مستوياً فى تفضيل أجناسه وأنواعه، بحدودها المميزة لها، وفصولها المفرقة بينها ، على رتبة واحدة ، وهيأة واحدة ، إلى أن يبلغ إلى الأشخاص التى تلى أنواع ، الأنواع ؛ لا تفاوت فى شىء من ذلك البتة ، بوجه من الوجوه ، ولا تخالف فى شىء منه أصلاً . ومن وقف على هذا علم أن الصورة المستقبحة عندنا ، والصورة المستحسنة عندنا . واقعتان معاً تحت نوع الشكل والتخطيط ، ثم تحت نوع الكيفية ، ثم تحت اسم العرض ، وقوعاً مستوياً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت فى هذا بوجه من التقسيم .

وكذلك أيضا نعلم أن الكفر والإيمان بالقلب واقعان تحت نوع الاعتقاد ، ثم تحت

فعل النفس ، ثم تحت الكيفية والعرض ، وقوعا مستويا لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت من هذا الوجه من التقسيم . وكذلك أيضا نعلم أن الإيمان والكفر باللسان واقعان تحت نوع فرع الهواء بآلات الكلام ، ثم تحت نوع الحركة وتحت نوع الكيفة ، وتحت اسم العرض ، وقوعا حقا مستويا لاتفاوت فيه ولا اختلاف .

وهكذا القول فى الظلم والإنصاف ، وفى العدل والجور ، وفى الصدق والكذب ، وفى الزنا والوطء الحلال . وكذلك كل ما فى العالم ، حتى يرجع جميع الموجودات إلى الرؤوس الأول التى ليس فوقها رأس يجمعها إلا كونها مخلوقة لله تعالى . وهى الجوهر والكم والكيف والإضافة . فانتفى التفاوت عن كل ما خلق الله تعالى ، وعادت الآية المذكورة حجة على المعتزلة ، ضرورة لامنفك لهم عنها ، وهى أنه لو كان وجود الكفر والكذب والظلم تفاوتاً كما زعموا ، لكان التفاوت موجوداً فى خلق الرحمن . وقد كذب الله تعالى ذلك ، وهى أن يرى فى خلقه تفاوت . انتهى كلامه .

الثالث ــ قال الناصر : فى قوله تعالى (يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا) وضع للظاهر موضع المضمر . وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذى يرجع خاسئاً حسيراً غير مدركٍ الفطور ، هو الآلة التى يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شىء ، دل على أنه لاشىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ)

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ » قال ابن جرير [(١)] : وهى النجوم . وجعلها (مَصَابِيحَ) لإضاءتها . وكذلك الصبح ، إنما قيل له صبح ، للضوء الذى يضىء للناس من النهار . « وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ » قال ابن كثير : عاد الضمير فى قوله تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(وَجَعَلْنَـٰهَا) على جنس المصابيح ، لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ـ والله أعلم ـ .

وقال القاضي : أى وجعلنا لها فائدة أخرى هى رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل : معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس ـ وهم المنجمون ـ .

قال الشهاب : مرّضه لأنه خلاف الظاهر المأثور . و (الرجم) يكون بمعنى الظن ، مجازاً معروفاً . والآية بمعنى آية الصافات[1] (إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) « وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ » أى فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

[٧] (إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ)

[٨] (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ، كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

[٩] (قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ)

[١٠] (وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ)

[١١] (فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ)

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٦ ـ ١٠] .

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » أى المرجع ذلك العذاب المحرق .

قال الناصر : هذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين ، استطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً .

« إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا » أى لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ، الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسىّ ، أو لأنفسهم . فإنهم يصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت ، كقوله (١) (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) . أولها نفسها ، تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، وهو الصوت الذى يخرج من الجوف بشدة ، كصوت الحمار .

« وَهِىَ تَفُورُ » أى : تغلى بهم وتعلو .

« تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ » أى تتفرق أجزاؤها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله . شبهت فى شدة غليانها ، وقوة تأثيرها فى أهلها ، بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ فى إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهى الغضب الباعث على ذلك . واستعير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ ـ كما فى شرح المفتاح الشريفى ـ وأما ثبوت الغيظ الحقيقىّ لها ، بخلق الله فيها إدراكا ، فبحث آخر . لكنه قد قيل هنا : إنه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فيه ، لأن (تكاد) تأباه ، كما فى قوله (٢) : (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ) وقد صرح به علماء المعانى فى بحث المبالغة والغلوّ . وجوز أن يراد غيظ الزبانية . فالإسناد مجازىّ ، أو على تقدير مضاف ـ كما فى (العناية) ـ .

« كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ » أى : جماعة من الكفرة « سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » أى : فى الدنيا ينذركم هذا العذاب .

قال فى (الإكليل) : استدل به على أنه لا تكليف قبل البعثة .

---

(١) [١١ / هود / ١٠٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٥] .

« قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ » أي : فكذبنا الرسل ، وأفرطنا في التكذيب، حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً ، وبالغنا في نسبتهم إلى الضلال .

« وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ » أي : من النُّذُر ما جاءت به ، سماعَ طالب الحق ، وعقلَ مَن نبذ الهوى « مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ » أي : في عداد أهل النار .

تنبيهان :

الأول ـ قال الناصر : لو تفطن نبيهٌ لهذه الآية لعدها دليلا على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

الثاني ـ قال ابن السمعانيّ في (القواطع) : استدل به من قال بتحكيم العقل .

وقال الزمخشريّ : قيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

« فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ » أي : فأقروا بجحدهم الحق ، وتكذيبهم الرسل ، فبعداً لهم ، اعترفوا أو أنكروا ، فإن ذلك لا ينفعهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ » أي يخافونه أو يخافون عذابه، وهم لم يروه « لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

« وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أي بضمائرها، فكيف بما نطق به ؟ والمعنى : فاتقوه واخشوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » أى : ألا يعلم السر والجهر، مَن خلق الأشياء، والخلق يستلزم العلم كما قال : « وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » أى اللطيف بعباده ، الخبير بأعمالهم . وقيل : معنى الآية : ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة فـ(من) مفعول ، والعائد مقدر .

قال الغزالىّ : إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، وما لطف منها ، ثم يسلك فى إيصال مايصلحها سبيل الرفق، دون العنف. و (الخبير) هو الذى لايعزب عن علمه الأمور الباطنة ، فلا تتحرك فى الملك والملكوت ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس ، إلا وعنده خبرها . وهو بمعنى العليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا » أى لينة سهلة المسالك . « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا » أى : فى نواحيها وجوانبها على التشبيه .

قال ابن جرير[١] : لأن نواحيها نظير مناكب الإنسان التى هى من أطرافه .

« وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » أى التمسوا من نعمه تعالى .

قال الشهاب : فالأكل والرزق ، أريد به طلب النعم مطلقاً ، وتحصيلها أكلاً وغيره . فهو اقتصار على الأهم الأعم ، على طريق المجاز أو الحقيقة .

قال : وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا ، وما فيها ، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله ،

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandl.com

وما سواه متمم له ، أو دافع للضرر عنه .

« وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ » أى : نشوركم من قبوركم للجزاء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ) الأمر بالتسبب والكسب .

وقال ابن كثير : فى الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه فى تسخيره لهم الأرض ، وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ، ومواضع الزرع والثمار . والمعنى : سافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها ، فى أنواع المكاسب والتجارات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ)

[١٧] (أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

« ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ » خطاب للكافرين . أى أأمنتم العلىّ الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم إلى أسفل سافلين . « فَإِذَا هِىَ تَمُورُ » أى : تضطرب وتهتز هزاً شديداً بكم ، وترتفع فوقكم ، وتنقلب عليكم .

« أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا » وهو التراب ، فيه الحصباء الصغار ، « فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ » قال ابن جرير[١] : أى عاقبة نذيرى لكم ، إذا كذّبتم به ، ورددتموه على رسولى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وقد بيّن تعالى نذيره لهم فى غير ما آية ، وهو زهوق باطلهم إذا أصرُّوا، ونصر رسوله، وغلبة جنده ، كما قال تعالى[1] (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ) .

قال الشهاب : (النذير) مصدر ، والياء محذوفة ، والقرّاء مختلفون فيها : فمنهم من حذفها وَصْلًا ، وأثبتها وَقْفاً ، ومنهم من حذفها فى الحالين اكتفاء بالكسرة وكذا الحال فى (نكير) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨] (وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ، إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ)

«وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أى مع كونهم أشد منهم عَدَدًا وعُدَدًا «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى نكيرى تكذيبهم . وذلك بإنزال العذاب بهم ، ودحر باطلهم .

قال القاضى : هو تسلية للرسول ﷺ ، وتهديد لقومه المشركين .

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ » أى باسطات أجنحتهن فى الجوّ عند طيرانها ، « وَيَقْبِضْنَ » أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وقت ، للاستظهار . ولتجدده عبر عنه بالفعل ، إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف . يفعل فى بعض الأحيان للتقوّى بالتحريك . كما يفعله السابح فى الماء ، يقيم بدنه أحياناً ، بخلاف البسط والصف ، فإنه الأصل الثابت فى حالة الطيران ، ولذا اختير له الاسم .

« مَا يُمْسِكُهُنَّ » أى فى الجو « إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ » أى المفيض لكلٍّ ما قُدّر له ، حسب استعداده بسعة رحمته . ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجرى فى الجوّ .

« إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ » قال القاشانىّ : أى فيعطيه ما يليق به ، ويسوّيه بحسب

(١) [٣٨ / ص / ٨٨] .

مشيئته ، ويودع فيه ما يريده بمقتضى حكمته ، ثم يهديه إليه بتوفيقه .

ثم بكّت تعالى المشركين ، بنفي أن يكون لهم ناصر غيره سبحانه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ، إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

« أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ » أي معشر المشركين « يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ » أي إن أراد بكم سوءًا ، فيدفع عنكم بأسه. « إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » أي من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضرّ . أو أنها تقرّبهم إلى الله زلفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ، بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾

« أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ » يعني المطر ونحوها « بَل لَّجُّواْ » أي تمادوا « فِي عُتُوٍّ » أي عناد وطغيان « وَنُفُورٍ » أي شراد عن الحق واستكبار ، مع وضوح براهينه ، فأصرّوا على اعتقاد أنهم يُحفظون من النوائب ، ويُرزقون ببركة آلهتهم ، وأنهم الجند الناصر الرازق ، مكابرة وعنادًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

« أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

تمثيل للضالين والمهتدين . و (المكب) هو المتعثر الذى يخرّ على وجهه لوعورة طريقه ، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً . والذى يمشى سويًّا هو القائم السالم من العثار، لاستواء طريقه ، واستقامة سطحه .

قال القاضى : والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين ، والدينين بالمسلكين . ولعل الاكتفاء بما فى الكبّ من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ماعليه المشرك لايستأهل أن يسمى طريقاً . أى : فلذلك ذكر المسلك فى الثانى دون الأول .

القول فى تأويل قولة تعالى :

[٢٣] (قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

[٢٤] (قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[٢٥] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٢٦] (قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ هُوَ » أى المستحق للعبادة وحده ، وسلوك صراطه « ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أى العقول والإدراكات « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى باستعمالها فيما خلقت له « قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى خلقكم فيها لتعبدوه، وتقوموا بالقسط الذى أمر به « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى الإنذار به ، والترهيب منه « قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بيّن الحجة على ما أنذركم به ، من زهوق باطلكم إذا جاء أجله . وأما تعيين وقته ، فليس إلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ » أى : ما وعدوا به من العذاب ، وزهوق باطلهم « زُلْفَةً » أى : قريباً، أو ذا زلفة ، أى قرب «سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى ظهر عليها آثار الاستياء من الكآبة والغم والانكسار والحزن « وَقِيلَ » أى لهم تبكيتا « هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ » أى تطلبون وتستعجلون به، من الدعاء ، أو تدّعون أن لا بعث ، من (الدعوى).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » كان كفار مكة يتربصون بالنبى ﷺ ريب المنون، تخلصاً من دعوته وانتشارها، فأمر أن يقول لهم ذلك. أى أخبرونى إن أماتنى الله ومن معى من المؤمنين، أو رحمنا بتأجيل آجالنا وانتصارنا ، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم ؟ .

قال ابن كثير : أى خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ماتتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم . والمعنىّ بالعذاب : إما الدنيوىّ ، وهو خزيهم بالانتصار عليهم ، ودحور ضلالهم . أو الأخروىّ ، وهو أشد وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا » أى اعتمدنا فى أمورنا ، لا على ما تتكلون عليه من رجالكم وأموالكم . « فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى فى ذهاب عن الحق ، وانحراف عن طريقه منا ومنكم ، إذا جاء نصر الله والفتح فى الدنيا، ونشأته الثانية فى الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا » أى غائراً لا تناله الدلاء، أو ذاهباً فى الأرض « فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ؟ » أى جار ظاهر سهل التناول .

قال الرازىّ: المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى، ليريهم قبح ماهم عليه من الكفر. أى: أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهباً فى الأرض ، فمن يأتيكم بماء معين ؟ فلابد وأن يقولوا : هو الله . فيقال لهم حينئذ : فلم تجعلون من لا يقدر على شىء أصلا، شريكاً له فى العبودية . وهو كقوله تعالى(١) : (أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ . ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ؟) أى بل هو الذى أنزله وسلكه ينابيع ، رحمة بالعباد ، فله الحمد .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٨ - سورة ن

وتسمى سورة القلم . وهى مكية . وآيها ثنتان وخمسون .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (نٓ ، وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

[٢] (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[٣] (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

[٤] (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

« نٓ » بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف، قصد به التحدى. أو اسم للسورة، منصوب بـ (اذكر) أو مرفوع خبراً لمحذوف « وَٱلْقَلَمِ » أى الذى يخط به «وَمَا يَسْطُرُونَ» أى يكتبون . و(مَا) مصدرية أو موصولة . وقوله « مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » جواب القسم ، قصد به تكذيب المشركين فى إفكهم المحدث عنه بآية[١] : (وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) .

قال الزجاج : (أَنتَ) هو اسم (ما) ، و (بمجنون) الخبر . وقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) كلام وقع فى البين . والمعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله فهم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت ، بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه. فالباء فى (بِنِعْمَةِ) متعلقة بمعنى النفى المدلول عليه بـ (ما) والباء فى (بِمَجْنُونٍ) زائدة .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا » أى ثواباً على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن، والصبر عليه « غَيْرَ مَمْنُونٍ » أى غير منقوص ولا مقطوع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال ابن جرير[1] : من قولهم (حبل منين) إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منته ، أى : قوته . أو غير ممنون به عليك ، زيادة فى العناية به ﷺ ، والتنويه بمقامه .

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » قال ابن جرير[1] : أى أدب عظيم . وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه .

قالت عائشة[2] : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . أى كما هو فى القرآن .

قال الرازىّ: وهذا كالتفسير لقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) والدلالة القاطعة على براءته مما رمى به، لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه. وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافى حصول الجنون . فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأحرى بأن يرمى بما قذف به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

[٦] (بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ)

[٧] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » أى أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة .

« بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ » أى المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهابا ، إلى أن المصدر يجىء على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى (فى). أى: من كوشف بأسرار العلوم، وأوتى جوامع الكلم ، أم من حجب عما فى نفسه من آيات الله والعبر ، وفتن بعبادة الصنم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ (طبعتنا) ، وهو حديث طويل جمّ الفوائد .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ » أى : عن طريق الحق الذى أمر به ، « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى بمن اتبع الحق ، وسلك سبيله ، فسيجزى الفريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)

[٩] (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[١٠] (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)

[١١] (هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ)

[١٢] (مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

[١٣] (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ)

[١٤] (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

[١٥] (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[١٦] (سَنَسِمُهُۥ عَلَى الْخُرْطُومِ)

« فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله ، وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشرىّ : تهييج وإلهاب على معاصاتهم .

« وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » أى : ودوا لو تركن إلى آلهتهم ، وتترك ما أنت عليه من الحق ، فيمالئونك ــ رواه ابن جرير[1] عن مجاهد ــ ثم قال : أى : لو تلين لهم فى دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلٰهك ، كما قال جل ثناؤه[2] . (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ

(١) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٧٤،٧٥] .

وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ) وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين فى القول بتليين الدهن .

« وَلَا تُطِـعْ كُلَّ حَلَّافٍ » أى : كثير الحلف . قال الزمخشرىّ : وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله تعالى[١] (وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ) . « مَّهِينٍ » أى : حقير الرأى والتميز .

« هَمَّازٍ » أى : عيّاب طعان : قال ابن جرير[٢] : والهمز أصله الغمز . فقيل للمغتاب : هماز ، لأنه يطعن فى أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم . « مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ » أى نقّال لحديث الناس بعضهم فى بعض ، للإفساد بينهم .

« مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ » أى بخيل بالمال ، ضنين به . والخير المال . أو صادّ عن الإسلام .

« مُعْتَدٍ » أى : على الناس ، متجاوز فى ظلمهم . « أَثِيمٍ » كثير الآثام .

« عُتُلٍّ » أى جاف غليظ . دعىّ « بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ » أى : دعىّ ملصق فى النسب ، ليس منهم . أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير[٣] : ومعنى (بعد) فى هذا الموضع معنى (مع) . وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص ، لا للأخير فقط . وهى للدلالة على أن ما بعده أعظم فى القباحة . فـ (بعد) هنا كـ (ثم) الدالة على التفاوت الرتبىّ ، كما مر فى قوله[٤] (بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) .

« أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » قال الزمخشرىّ : متعلق بقوله (وَلَا تُطِعْ) يعنى : ولا تطعه مع هذه المثالب ، لأَنْ كان ذا مال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهراً بالبنين ، كذب بآياتنا .

« إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا » أى : تقرأ عليه آيات كتابنا « قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ »

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٤) [٦٦ / التحريم / ٤] .

أى : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .

وقوله: « سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ » عِدَةٌ منه تعالى بغاية إذلاله ، بعد تناهى كبره وعجبه وزهوه وعتوه . تقول العرب : وسمته بميسم السوء : يريدون أنه ألصق به من العار مالا يفارقه . قال جرير (١) :

لمـا وضعتُ على الفرزدقِ ميسَمى   وعلى البعيثِ، جدعْتُ أنفَ الأخطَلِ

قال الزمخشرىّ : الوجه أكرم موضع فى الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه ، لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة ، واشتقوا منه (الأَنَفَة) وقالوا : الأنف فى الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين . وقالوا فى الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه . فعبّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أباعره فى وجوهها ، فقال له رسول الله ﷺ : أكرموا الوجوه ، فوسمها فى جواعرها . وفى لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة ، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل . وقيل : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم . انتهى .

تنبيه :

قيل : عنى بالآية الأخنس بن شريق . قال ابن جرير (٢) : وأصله من ثقيف ، وعداده فى بنى زهرة . أى : لأنه التحق بهم حتى كان منهم فى الجاهلية . ولذا سمى زنيما للصوقه بالقوم ، وليس منهم وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة من مولده .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لِمَنِ الديارُ كأنها لم تُحْلَلِ   بين الكِناس وبين طَلْحِ الأعزلِ

الكناس : ببلاد غنى . والأعزل : لبنى كلب وبه ماء يسمى الأعزل . والطلح شجر من العضاه . (شرح ديوان جرير ص ٤٤٢) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

[١٨] (وَلَا يَسْتَثْنُونَ)

« إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ » أى بلونا مشركى مكة ، فاختبرنا بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ، فلا تكون عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة فى امتحانهم الآتى ، ثم دمارهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببلية ، وهى القحط والجوع ، بدعوة رسول الله ﷺ ، (كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ) وهم قوم من أهل الكتاب ـ على ماروى عن ابن عباس ـ أو ناس من الحبشة ـ فى قول عكرمة ـ أى : كتابيون . فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به ، تعيين أهله ، لولا محبة المأثور « إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » أى: ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لايعلم مسكين بذلك « وَلَا يَسْتَثْنُونَ » قال المهايمى: أى: ولا يخرجون شيئاً من حق المساكين ، واقتصر عليه . وحكاه الرازى والقاضى قولاً ثانياً . والأول أن معناه : ولا يقولون إن شاء الله ـ واقتصر عليه ابن جرير[١] والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسى ، والجملة معطوفة على لَيَصْرِمُنَّهَا) ومقسم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ)

[٢٠] (فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ)

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ » أى فطرق جنة هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله لتدميرها .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

قال ابن جرير[١] : ولا يكون الطائف فى كلام العرب إلا ليلًا ، ولا يكون نهاراً . وقد يقولون : أطفت بها نهاراً . وذكر الفراء أن أبا الجراح أنشده[٢] :

أَطَفْتَ بِها نَهَارًا غيرَ لَيْلٍ وَأَلْهَى رَبَّهَا طَلَبُ الرِّخَالِ

و (الرخال) أولاد الضأن الإناث .

فقوله : « وَهُمْ نَآئِمُونَ » أى مستغرقون فى سباتهم ، غافلون عما يمكر بهم . تأكيد على الأول ، وتأسيس على الثانى « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » أى كالبستان الذى صرم ثمره ، بحيث لم يبق فيه شىء . أو كالليل الأسود لاحتراقها . وأنشد فى ذلك ابن جرير لأبى عمرو[٣] ابن العلاء :

ألا بَكَرَتْ وعَاذِلَتِى تَلُومُ تهجّدنى وما انْكَشَفَ الصَّرِيمُ

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن (الورقة ٣٩٣) عند قوله تعالى : فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ. قال: لا يكون الطائف إلا ليلا، ولا يكون نهارا. وقد تكلّم به العرب فيقولون : أطفت به نهارا ، وليس موضعه بالنهار، ولكنه بمنزلة قولك: لو ترك القطا ليلا لنام . لأن القطا لا يسرى ليلا .

قال : أنشدنى أبو الجراح العقيلىّ : (أطفت بها نهارا ...) البيت اه .

والرخال جمع رخل (بكسر الراء وفتحها) : الأنثى من أولاد الضأن . والذكر : حمل. والجمع أرخل ورخال (بكسر الراء وضمها) ورخلان أيضا (حاشية ابن جرير) .

(٣) نسب المؤلف البيت إلى أبى عمرو بن العلاء . ولعله يريد أنه مما أنشده أبو عمرو . يقول : استيقظت هذه المرأة قبل أن ينكشف الليل عن الصبح . توقظنى حين هبت عاذلتى تلومنى . قال فى اللسان : هجد (قال ابن بزرج : أهجدت الرجل : أنمته ، وهجدته) بالتشديد أيقظته والصريم : الليل . =

وقال أيضاً[(١)] :

تَطاوَلَ لَيْلُكَ الْجَوْنُ الْبَهِيمُ ... فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحٍ صَرِيمُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾

[٢٢] ﴿أَنِ اغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾

[٢٣] ﴿فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾

[٢٤] ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾

[٢٥] ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾

[٢٦] ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾

[٢٧] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

« فَتَنَادَوْاْ » أى فنادى بعضهم بعضاً « مُصْبِحِينَ » أى وقت الصبح ، ولم يشعروا

= وقال الفرّاء فى معانى القرآن (٣٣٩) فأصبحت كالصريم : أى احترقت ، فصارت سوداء مثل الليل المسود اهـ . وفى اللسان (صرم) عن ثعلب : فأصبحت كالصريم أى احترقت فصارت سوداء مثل الليل اهـ . ويقال : كالشىء المصروم ، الذى ذهب ما فيه . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . وقال الجوهرىّ : أى احترقت واسودت (حاشية ابن جرير) .

(١) الجون : الأسود . والبهيم : الخالص السواد ، لا بياض فيه . وينجاب : ينكشف ويزول . وصريم : أى ليل .

وهذا الشاهد فى معنى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الصريم بمعنى الليل الشديد السواد (حاشية ابن جرير) .

بما جرى عليهم بالليل « أَنِ اغْدُوا » أى اخرجوا غدوة « عَلَىٰ حَرْثِكُمْ » أى زرعكم « إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ » أى قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها « فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ » أى يكتمون ذهابهم ويتسارّون فيما بينهم « أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ » أى فقير . فالجملة مفسرة . أو (أن) مصدرية . أى بأن .

قال الزمخشريّ : والنهي عن الدخول للمسكين ، نهى لهم عن تمكينه منه . أى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل . كقولك : لا أرينّك ههنا .

« وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ » أى غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجدّ من أمرهم ، أو على منع وغضب « قَٰدِرِينَ » أى فى زعمهم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين . « فَلَمَّا رَأَوْهَا » أى فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقاً حرثها « قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى أنكروها وشكوا فيها . هل هى جنتهم أم لا . فقال بعضهم لأصحابه : ظنا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التى رأوها غيرها : إنا ، أيها القوم، لضالون طريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن ، أيها القوم ، محرومون ، حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)

[٢٩] (قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

[٣٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ)

[٣١] (قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ)

[٣٢] (عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ)

« قَالَ أَوْسَطُهُمْ » أى أعدلهم وخيرهم رأياً « أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ » أى :

تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من المجرمين . وكان أوسطهم وعظهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة ، فعصوه ، فعيّرهم . « قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ » أى فى ترك استثناء حق المساكين، ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ » أى يلوم بعضهم بعضاً . « قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ » أى متجاوزين حدود الله تعالى فى تفريطنا وعزمنا السيّئ « عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ » أى بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله . « إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ » أى فى العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فاتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)

« كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ » أى فى الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبغى الفساد فى الأرض . « وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ » أى أعظم منه « لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » أى لارتدعوا وتابوا وأنابوا . فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيداً لما قبله ، إذ لا مدخلية لعلمهم فى كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : قال ابن الفرَس : استدل بهذه القصة عبدالوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها . ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم. وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالنهى عنه فى الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزمخشريّ عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تعباً .

وعن مجاهد : تابوا فأُبدلوا خيراً منها ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)

[٣٥] (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ)

[٣٦] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[٣٧] (أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)

[٣٨] (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ)

[٣٩] (أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)

[٤٠] (سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ)

[٤١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ)

[٤٢] (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٤٣] (خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ)

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ » أى فى الكرامة والمثوبة الحسنى ، والعاقبة الحميدة . « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » أى بما ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان فى قضيته . « أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ » أى من الأمور لأنفسكم ، وتشتهونه لكم ، كقوله[1] : (أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ) وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل،

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٠] .

ويتمنون من الأماني الكاذبة «أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ» أى تقضون من أمانيكم ومزاعمكم .

قال الزمخشرى : يقال : لفلان علىّ يمين بكذا، إذا ضمنته منه ، وحلفت له على الوفاء به. يعنى : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد. و(إنّ لكم لما تحكمون) جواب القسم ، لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم . فـ (بالغة) ـ كما قال الشهاب ـ معناه المراد منه ، متناهية فى التوكيد . وأصله بالغة أقصى ما يمكن ، فحذف منه اختصاراً ، وشاع فى هذا المعنى .

« سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ » أى : الحكم « زَعِيمٌ » أى كفيل به ، يدعيه ويصححه . « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ » أى ناس يشاركونهم فى هذا الزعم ، ويوافقونهم عليه . « فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ » أى : فى دعواهم .

قال الزمخشرى : يعنى أن أحدا لايسلّم لهم بهذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد به عند الله، ولازعيم لهم يقوم به . ففيه تنبيه على نفى جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل .

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ » قال ابن عباس : أى عن أمر شديد مفظع من هول يوم القيامة . ألا تسمع العرب تقول: شالت الحرب عن ساق ؟ ـ رواه ابن جرير(١) .

« وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى لما أحاط بهم من العذاب الهائل الحائل. « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى : تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم . « وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ » أى : لامانع يمنعهم منه . والمراد من السجود : عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه له ، والعمل بما أمر به من الصالحات .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

تنبيه :

ما أثرناه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى (عَن سَاقٍ) هو المعنى الظاهر المناسب للتهويل المطرد فى توصيف ذلك اليوم . فى أمثال هذه الآية، وعليه اقتصر الزمخشرى، وعبارته: الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب . وأصله فى الروع والهزيمة ، وتشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم(١) :

أخو الحرب ، إن عَضَّتْ به الحربُ عَضَّهَا   وإن شَمَّرَتْ عن ساقِهَا الحربُ شَمَّرَا

وقال ابن الرقيات(٢) :

تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه ، وتُبْدِى   عن خِدَامِ العقيلةِ العذراءِ

وجاءت منكّرة للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة، منكر خارج عن المألوف كقوله(٣): (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ) ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

حَنَنتُ إلى الأَجْبَالِ ، أجبال طيءٍ   وحنَّت قَلُوصى أن رأت سَوْطَ أحمَرَا

ص ٦٧ من الديوان .

(٢) فى الديوان : * عن بُرَاها العقيلةُ العذراء *

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أقفرت بعد عبد شمسٍ كُدَاءُ   فَكُدَىٌّ فالركن فالبطحاءُ

كداء : جبل بمكة وهو عرفة . كدىّ : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليمانى ، ركن البيت الحرام . البطحاء : بطحاء مكة (الديوان ص ٨٧) .

وقال شارح شواهد الكشاف : إنما خص الشيخ لوفور عقله وممارسته الشدائد ، وإما لفرط محبته للأولاد . والخدمة : الخلخال . والعقيلة من النساء التى عقلت فى بيتها ، أى خدرت وحبست . وعقيلة كل شىء أكرمه. ورفع الشعواء فى البيت قبله، وخفض العذراء، إقواء . يتساهل الشعراء فيه .   (٣) [٥٤ / القمر / ٦] .

وقال أبو سعيد الضرير : أى يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذى به قوامه ، كساق الشجر وساق الإنسان . أى : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته . استعارة من ساق الشجر ، وفى (الكشف) تجوّز آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى (الفِصَل) : ماصح عن النبيّ ﷺ عن يوم القيامة أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرون سجداً . فهذا كما قال الله عز وجل فى القرآن : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ) . وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير[١] :

ألا ربَّ سامى الطرفِ من آل مازنٍ   إذا شمَّرَتْ عن ساقها الحربُ شمَّرَا

والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح . وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصًّا . ولكن من ضاق علمه أنكر ما لاعلم له به . وقد عاب الله هذا فقال[٢] (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ) انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهانىّ إلى أن الآية وعيد دنيوىّ للمشركين ، لا أخروىّ . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم[٣] : (وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل فى دنياه ، كقوله تعالى[٤] : (يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ) ثم إنه يرى الناس يدعون

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لمن رسمُ دارٍ همَّ أن يتغيرا   تَرَاوَحُهُ الأرواح والقَطْرُ أعْصُرَا

أى أن القطر يتراوحه مرة ، والرياح تتراوحه أخرى . والأعصر : الدهور (شرح ديوان جرير ص ٢٤٠) .

(٢) [١٠ / يونس / ٣٩] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٤٢] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] .

إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لايستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذى لاينفع نفساً إيمانها . وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله[1] (فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ) انتهى .

قال الرازىّ : واعلم أنه لانزاع فى أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم . فأما قوله إنه لايمكن حمله على القيامة، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل هٰهنا، والتكاليف زائلة يوم القيامة، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلتم إن ذلك غير جائز ؟

ثم تأثر تعالى تخويفهم بعظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفى قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ » أى كِلْهُ إلىّ فإنى أكفيكه ، وهذا من بليغ الكناية . كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه ، أن تكل أمره إلىّ ، وتخلّى بينى وبينه ، فإنى عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك . « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ، وزيادة النعم ، من حيث لايعلمون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم . يقال : استدرجه إلى كذا ، أى : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورّطه فيه .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأُمْلِي لَهُمْ » أى أمهلهم وأُنسِئُ فى آجالهم ملاوةً من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم . « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى كيدى بأهل الكفر شديد قوىّ .

قال الزمخشرىّ : الصحة والرزق والمدّ فى العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يجعلونه سبباً فى الكفر باختيارهم . فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرَج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى إحسانه وتمكينه (كيداً) ، كما سماه استدراجاً ، لكونه فى صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط فى الهلكة . ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه فى التسبب للهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤٧] (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق . « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ » أى من عزة ذلك الأجر مثقلون . أى أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً ، فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان . « أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغنون عن وحيه وتنزيله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾

[٤٩] ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾

[٥٠] ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

« فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » وهو إمهالهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أى لا يثنينّك ، عن تبليغ ما أمرت به ، أذاهم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه « وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ » يعنى : يونس عليه السلام « إِذْ نَادَىٰ » أى دعا ربه فى بطن الحوت « وَهُوَ مَكْظُومٌ » أى مملوء غيظاً وغمّاً . والمعنى : لا يوجدْ منك ما وجد منه من الضجر والونَى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه « لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ » وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله « لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » قال الزمخشرىّ : يعنى أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذم . والعراء : الفضاء من الأرض .

« فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ » أى برحمته . قال القاشانىّ : لمكان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعداده ، وعدم رسوخ الهيأة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه « فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ » أى لمقام النبوة والرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾

[٥٢] ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

« وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ » قال الزمخشرىّ : يعنى أنهم

من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون المداوة والبغضاء ، يكادون يُزلّون قدمك ، أو يهلكونك . من قولهم (نظر إلى نظراً يكاد يصرعنى ، ويكاد يأكلنى) أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال[1] :

يتقارضون ، إذا التقوا فى موطن ، نظراً يُزِلّ مواطئ الأقدام

وأنشد ابن عباس ـ وقد مرّ بأقوام حددوا النظر إليه ـ :

نظروا إلىّ بأعين محمرةٍ نظر التيوس إلى شِفَارِ الجازِرِ

وبيّن تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم فى حال قراءة النبىّ ﷺ للقرآن ، وهو قوله تعالى: « لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ » أى القرآن، معاداة لحكمته . « وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ » أى من الهذيان الذى يهذى به فى جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه. « وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ » أى عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم ، على ما فى عقولهم وفطرهم من التوحيد . فكيف يجنّن من جاء بمثله ؟ ـ وبالله التوفيق ـ .

---

(١) قال شارح شواهد الكشاف :

كل أمر به يتجازى الناس فهو قرض . وهما يتقارضان الثناء ، أى كل واحد منهما يثنى على صاحبه .

يقول : إذا التقوا فى موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق ، حتى يكاد يصرعه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٩ ـ سورة الحاقة

مكية . وآيها إحدى وخمسون .

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْحَآقَّةُ)

[٢] (مَا ٱلْحَآقَّةُ)

[٣] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ)

« ٱلْحَآقَّةُ » أى الساعة الحاقة التى تحق فيها الأمور ، ويجب فيها الجزاء على الأعمال . من قولهم : حق عليه الشىء ، إذا وجب. وقوله : « مَا ٱلْحَآقَّةُ » من وضع الظاهر موضع المضمر ، تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها . « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ » قال بعضهم : من عوائد العرب فى محاوراتهم اللطيفة، إذا أرادوا تشويق المخاطب فى معرفة شىء ودرايته، أتوْا بإجمال وتفصيل . أى : أىّ شىء أعلم المخاطب ماهى ؟ تأكيداً لتفخيم شأنها ، حتى كأنها خرجت عن دائرة علم المخاطب . على معنى: أن عظم شأنها ، وما اشتملت عليه من الأوصاف، مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين، ولم تصل إليه معرفة أحد من السامعين، ولا أدركه وهمه، وكيفما قدر حالها، فهى وراء ذلك وأعظم . ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه، من أنها لاتعلم ، ولا يصل إليها دراية دارٍ ، ولا تبلغها الأفكار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ)

[٥] (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ)

[٦] (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

[٧] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾

[٨] ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ » أى بالساعة التى تقرع الناس بأهوالها وهجومها عليهم. قال الزمخشرىّ: ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع فى الحاقة، زيادة فى وصف شدتها . ولمّا ذكرها ونخمها ، أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها ، وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيراً لأهل مكة ، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم .

« فَأَمَّا ثَمُودُ » وهم قوم صالح عليه السلام « فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ » أى بالواقعة المجاوزة للحد فى الشدة ، أو بطغيانهم . و (الطاغية) مصدر كالعافية .

« وَأَمَّا عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ » أى : شديدة العصوف والبرد « عَاتِيَةٍ » أى : متجاوزة الحد المعروف فى الهبوب والبرودة .

« سَخَّرَهَا » أى: سلطها « عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعات من (حسمت الدابة) ، إذا تابعت بين كيّها. شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكىّ القاطع للداء . أو معناه : نحسات ، حسمت كل خير واستأصلته . أو قاطعات، قطعت دابرهم . هذا على أن (حُسُومًا) جمع حاسم ، كشهود وقعود . فإن كان مصدراً فنصبه بمضمر . أى تحسم حسوماً ، أو بأنه مفعول له . أى سخرها عليهم للحسوم، أى الاستئصال. وقد قيل: إن تلك الأيام هى أيام العجز . والعامة تقول : (العجوز) وهى التى تكون فى عجز الشتاء، أى آخره.

« فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ » أى هلكى ، جمع صريع « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ » أى ساقطة مجتثة من أصولها كآية[1] : (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ)

« فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ » أى : بقاء . أو نفس باقية ، أو بقية .

(١) [٥٤ / القمر / ٢٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾

[١٠] ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾

[١١] ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾

[١٢] ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾

« وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ » أى : من الأمم المكذبة ، كقوم نوح وعاد وثمود « وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ » وهى قرى قوم لوط « بِٱلْخَاطِئَةِ » أى : بالخطأ ، أو الأفعال الخاطئة ، على المجاز فى النسبة. « فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً » أى: زائدة فى الشدة. « إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ » أى: كثر وتجاوز حده المعروف ، بسبب إصرار قوم نوح على الكفر والمعاصى ، وتكذيبه ، عليه السلام « حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ » أى السفينة التى تجرى فى الماء.

قال ابن جرير(١) : خاطب الذين نزل فيهم القرآن ، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده ، لأن الذين خوطبوا بذلك ، ولد الذين حُملوا فى الجارية ، فكان حملُ الذين حملوا فيها من الأجداد ، حملًا لذريتهم .

« لِنَجْعَلَهَا » أى تلك الفعلة التى هى إنجاء المؤمنين ، وإغراق الكافرين « لَكُمْ تَذْكِرَةً » أى : آية وعبرة تذكرون بها صدق وعده فى نصر رسله ، وتدمير أعدائه .

« وَتَعِيَهَآ » أى تحفظها « أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ » أى حافظة لما سمعت عن الله ، متفكرة فيه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ)

[١٤] (وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً)

[١٥] (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ)

[١٦] (وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)

[١٧] (وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ)

« فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ » أى : لخراب العالم .

قال أبو السعود : هذا شروع فى بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها .

« وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً » أى : رفعتا وضربتا ببعضهما من شدة الزلازل . وفى توصيفها بالوحدة تعظيم لها ، وإشعار بأن المؤثر لدكّ الأرض والجبال وخراب العالم ، هى وحدها ، غير محتاجة إلى أخرى .

« فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ » أى : نزلت النازلة ، وهى القيامة .

« وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ » أى : انصدعت « فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » متمزقة .

« وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا » أى : جوانبها وأطرافها حين تشقق . « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ » أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها « يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ » أى : من الملائكة أو من صفوفها .

قال ابن كثير : يحتمل أن يكون المراد بهذا العرش (العرش العظيم) ، أو العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة ، لفصل القضاء ، ــ والله أعلم ــ انتهى .

ومثله ، من الغيوب التى يؤمن بها ، ولا يجب اكتناهها . وتقدم فى سورة الأعراف ،

فى تفسير آية(١) (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) كلام لبعض علماء الفلك على هذه الآية، فتذكره .

وذهب بعض منهم إلى أن المراد بالعرش ملكه تعالى للسموات والأرض ، وبـ (الثمانية) السموات السبع والأرض . وعبارته : (وَيَحْمِلُ) بالجذب (عَرْشَ رَبِّكَ) أى : ملك ربك للأرض والسموات (فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ) أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها يوم القيامة ، (ثَمَـٰنِيَةٌ) أى : السموات السبع والأرض .

قال : وهـذا يدل على أن (السبع) ليس للكثرة ، بل المراد به الحقيقة . فهم ثمانية يحملون العرش ، أى : ملك الأرض والسموات السبع بالجذب ، كما هو حاصل اليوم . ولكن ذلك يكون بشكل عظيم جدًّا .

ثم قال : ولا وجه لمعترض يقول : إن حملة العرش مسبحة ، لقوله تعالى(٢) : (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) فكيف تسبح السموات والأرض؟ لأنه يجاب بقوله تعالى(٣) : (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) . اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ)

[١٩] (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ)

[٢٠] (إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ)

[٢١] (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)

[٢٢] (فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[٢٣] (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[٢٤] (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ)

(١) [٧/ الأعراف / ٥٤]. (٢) [٤٠/ غافر / ٧]. (٣) [١٧/ الإسراء / ٤٤].

« يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ » أى : على ربكم للحساب والمجازاة « لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ » أى سريرة كانت تخفى فى الدنيا بستر الله .

« فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ » أى : علامة لفوزه « فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَـٰبِيَهْ » أى : تعالوا ، أو خذوا . والهاء للسكت ، لا ضمير غيبة .

قال الشهاب : فحقها أن تحذف وصلا ، وتثبت وقفاً ، لتصان حركة الموقوف عليه ، فإذا وصل استغنى عنها . ومنهم من أثبتها فى الوصل لإجرائه مجرى الوقف ، أو لأنه وصل بنيّة الوقف . وإثباتها وصلًا قراءة صحيحة ، ولا يلتفت لقول بعض النحاة : إنها لحن .

« إِنِّي ظَنَنتُ » أى : علمت « أَنِّي مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ » أى جزائى يوم القيامة . أى : فأعددت له عدته من الإيمان والعمل الصالح .

« فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ » أى : ذات رضا ، ملتبسة به ، فيكون بمعنى (مرضية) . أو الأصل : راض صاحبها ، فأسند الرضا إليها ، لجعلها ، لخلوصها عن الشوائب ، كأنها نفسها راضية مجازاً . ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية وتخييلية ، كما فصل فى (المطول) .

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا » جمع قِطْف بكسر القاف ، وهو ما يقطف من ثمرها « دَانِيَةٌ » أى قريبة سهلة التناول .

« كُلُوا » أى: يقال لهم كلوا « وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » أى : الماضية فى الحياة الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ)

[٢٦] (وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ)

[٢٧] (يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ)

[٢٨] (مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ)

obeikandl.com

[٢٩] (هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ)

[٣٠] (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

[٣١] (ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ)

[٣٢] (ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ)

[٣٣] (إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ)

[٣٤] (وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ)

[٣٥] (فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ)

[٣٦] (وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ)

[٣٧] (لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ)

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ » أى : عندما يلاقى العذاب « يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ » أىْ : أىُّ شىء حسابى .

« يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ » قال ابن جرير(١) : أى ياليت الموتة التى متُّها فى الدنيا كانت هى الفراغ من كل مابعدها ، ولم يكن بعدها حياة ولا بعث . و (القضاء) هوالفراغ . وقيل : إنه تمنى الموت الذى يقضى عليه ، فتخرج منه نفسه .

« مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ » أى : ما دفع من عذاب الله شيئاً .

« هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ » أى ملكى وتسلطى على الناس . أو حجتى ، فلا حجة لى أحتج بها .

« خُذُوهُ » أى : يقال لخزنة النار : خذوه بالقهر والشدة « فَغُلُّوهُ » أى : ضموا يده إلى عنقه ، إذ لم يشكر ما ملكته .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ » أى : أدخلوه ليصلىٰ فيها ، لأنه لم يشكر شيئاً من النعم ، فأذيقوه شدائد النقم .

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ » أى حلقة منتظمة بأخرى ، وهى بثالثة ، وهلم جرا .

« ذَرْعُهَا » أى : مقدارها « سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ » فأدخلوه فيها . أى : لفّوه بها ، بحيث يكون فيما بين حلقها مرهقاً ، لا يقدر على حركة .

قال القاشانىّ : والسبعون فى العرف عبارة عن الكثرة غير المحصورة ، لا العدد المعيّن ثم علل استحقاقه ذلك، على طريقة الاستئناف ، بقوله : « إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ » أى : المستحق للعظمة وحده ، بل كان يشرك معه الجماد المهين .

« وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » أى : إطعامه ، فضلًا عن بذله ، لتناهى شحه.

« فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ » أى : قريب تأخذه الحمية له .

« وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » أى : من غسالة أهل النار وصديدهم .

قال ابن جرير(١) : كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : كل جرح غسلته فخرج منه شيء فهو (غسلين) ـ فعلين ـ من الغسل من الجراح والدَّبَر ، وزيد فيه الياء والنون بمنزلة عفرين.

« لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ »أى . الآثمون، أصحاب الخطايا . يقال : خطيء الرجل، إذا تعمد الخطأ . قال الرازىّ : الطعام ما هيئ للأكل . فلما هيئ الصديد ليأكله أهل النار كان طعاماً لهم . ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم مقام الطعام ، فسمى طعاماً . كما قال(٢):

* تحيَّةُ بَيْنِهِمْ ضرب وجيعُ *

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) صدره : * وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيلٍ *

وقائله عمرو بن معدى كَرِبَ (نوادر أبى زيد ص ١٤٩) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)

[٣٩] (وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[٤٠] (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[٤١] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ)

[٤٢] (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٤٣] (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ »أى: بالمشاهدات والمغيبات . وهذا القسم ـ كما قال الرازىّ ـ يعم جميع الأشياء على الشمول ، لأنها لاتخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشمل الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والعالم العلوىّ والسفلىّ ، وهكذا . وتقدم فى (الواقعة) الكلام على كلمة (لا أقسم) فتذكر .

« إِنَّهُۥ » أى : القرآن « لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » وهو محمد ﷺ، يبلغه عن الله تعالى، لأن الرسول لايبلغ عن نفسه .

« وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ » أى : كما تزعمون ، فإن بين أسلوبه وحقائقه ، وبين وزن الشعلة وخيالاته ، بعد المشرقين .

« قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ » . تصدقون بما ظهر صدقه وبرهانه،عناداً وعتوًّا . والقلة كناية عن النفى والعدم . ونصب (قَلِيلًا) على أنه نعت لمصدر ، أو زمان مقدر . أى إيمانًا وزمانًا. والناصب (تُؤْمِنُونَ) أو (تَذَكَّرُونَ) . و (مَّا) زائدة ـ هـذا ما قاله ابن عادل ـ وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون نافية ومصدرية .

« وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ » أى كما تدعون أخرى بأنه من سجع الكهان « قَلِيلًا

مَّا تَذَكَّرُونَ » أى تتعظون وتعتبرون . قيل : نفى الإيمان فى الأول ، والذكرى فى الثانى ، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن ، لاينكره إلا معاند . فلا عذر لقائله فى ترك الإيمان ، وهو أكفر من حمار . وأما مباينته للكهانة ، فيتوقف على تذكّرٍ ما ، لأن الكاهن يأخذ جُعْلًا ، ويجيب عما سئل عنه ، ويتكلف السجع ، ويكذب كثيراً ، وإن التبس على الحمق لإخباره عن بعض المغيبات بكلام منثور ، فتأمّل .

« تَنزِيلٌ » أى هو تنزيل « مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » أى ممن ربّاهم بصنوف نعمه ، ومنها ما نزله وأوحاه ليهتدوا به إلى سبل السعادة ، ومناهج الفلاح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾

[٤٥] ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾

[٤٦] ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾

[٤٧] ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ » أى افترى علينا . وسمى الكذب تقوّلًا ، لأنه قول متكلف ، كما تشعر به صيغة التفعّل . و (الْأَقَاوِيلِ) إما جمع (قول) على غير القياس ، أو جمع الجمع كالأناعيم ، جمع أقوال وأنعام . قيل: تسمية الأقوال المفتراة (أقاويل) تحقيراً لها ، كأنها جمع أفعولة من القول ، كالأضاحيك .

« لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » قال ابن جرير[1] : أى لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة ، ثم لقطعنا منه نياط القلب . وإنما يعنى بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤخّره بها . وقد قيل: إن معنى قوله (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لأخذنا منه باليد اليمنى

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

من يديه . قال : وإنما ذلك كقول ذى السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض مَن بين يديه لبعض أعوانه : خذ بيده، فأقمه ، وافعل به كذا و كذا: قالوا : وكذلك معنى قوله (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) أى لَأَهَنَّاهُ . كالذى يفعل بالذى وصفنا حاله . انتهى .

وقال الزمخشرىّ : المعنى لو ادّعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم ، معاجلة بالسخط والانتقام . فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول . وهو أن يؤخذ بيده ، وتضرب رقبته . وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه فى جيده ، وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور ، لنظره إلى السيف ، أخذ بيمينه . فمعنى (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لأخذنا بيمينه . كما أن قوله (لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) لقطعنا وتينه ، وهذا بيّن . انتهى .

وما قرره الزمخشرىّ أبلغ فى المراد ، وهو بيان المعاقبة بأشد العقوبة ، إذ على الأول يفوت التصوير والتفصيل والإجمال ، لأن قوله (بِالْيَمِينِ) بعد (لَأَخَذْنَا مِنْهُ) بيان بعد الإبهام ، ويصير قوله (مِنْهُ) زائداً من غير فائدة ، ويرتكب المجاز من غير فائدة أيضاً ـ كما فى (العناية) ـ .

« فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » أى ليس أحد منكم يحجزنا عنه ، ويحول بيننا وبين عقوبته ، لو تقوّل علينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ)

[٥٠] (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[٥١] (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ)

[٥٢] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« وَإِنَّهُۥ » أى القرآن « لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ » أى عظة لمن يتقى عقاب الله بالإيمان به وحده ، وما نزل من عنده . « وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ » أى له ، إيثاراً للدنيا والهوى . أى فنجازيكم على إعراضكم . « وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » أى ندامة عليهم ، إذا رأوا ثواب المؤمنين به . « وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ » أى للحق اليقين الذى لا ريب فيه . « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى دُمْ على ذكر اسمه ، وداأب على الدعوة إليه وحده ، وإلى ما أوحاه إليك . فالعاقبة لك ، ولمن اتبعك من المؤمنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٠ — سُورَةُ المَعَارِجِ

وتسمى سورة « سَأَلَ سَآئِلُ » . وهى مكية . وآيها أربع وأربعون .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

[٢] (لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ)

[٣] (مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ)

« سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَـٰفِرِينَ » قال مجاهد: أى دعا داعٍ بعذاب يقع فى الآخرة، وهو قولهم(١) (ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . والسائل هو النضر بن الحارث بن كلدة ـ فيما رواه النسائىّ عن ابن عباس ـ وقد قيل: إن الموعود بوقوعه عذاب الدنيا . وقد قتل النضر ببدر، ففى الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه . و (لِّلْكَـٰفِرِينَ) صفة ثانية لـ (عذاب) ، أو صلة لـ (واقع) . واللام للتعليل، أو بمعنى (على) . « لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّـهِ » أى رادّ يرده من جهته، لتعلق إرادته به . وهذا كقوله تعالى(٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّـهُ وَعْدَهُۥ) .

وقوله تعالى « ذِى ٱلْمَعَارِجِ » قال الرازىّ : المعارج جمع معرج ، وهو المصعد . ومنه قوله تعالى(٣) (وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) .

والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها ـ قال ابن عباس فى رواية : أى ذى السموات . وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] .

وثانيها ـ قال قتادة : ذى الفواضل والنعم . وذلك لأن لأياديه ووجوده إنعامه مراتب، وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

وثالثها ـ أن المعارج هى الدرجات التى يعطيها أولياءه فى الجنة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

« تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »

قال ابن جرير[١] : أى تصعد الملائكة والروح ، وهو جبريل ، إليه عز وجل ، فى يوم كان مقدار صعودهم ذلك ، فى يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة . وذلك أنها تصعد من منتهى أسفل الأرض ، إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع .

وقيل : بل معناه تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ، كان قدر ذلك اليوم الذى فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .

وقد قيل : إن (فى يوم) متعلق بـ (واقع) . والمراد به يوم القيامة .

فعن ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة . والمقدار المذكور إما حقيقىّ ، أو مجاز عن الاستطالة .

قال الشهاب : وهكذا زمان كل شدة ، كما قيل :

تمتعْ بأيام السرورِ ، فإنها قِصارٌ ، وأيامُ الغُمُومِ طوالُ

ونقل الرازىّ عن أبى مسلم أن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها ، من أول ما خلق الله إلى آخر الفناء . فبين تعالى أنه لابدّ فى يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة . ثم لايلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوما ، لأنا لا ندرى كم مضى وكم بقى . انتهى . وهو بعيد ، وهذه الآية كآية[٢] (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ

(١) انظر الصفحة رقم ٧٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣٢ / السجدة / ٥] .

ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا منافاة فى التقدير ، لأن المعنىّ به الاستطالة ، لشدته على الكفار ، أو لكثرة مافيه من الحالات والمحاسبات . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)

[٦] (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا)

[٧] (وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا)

[٨] (يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ)

[٩] (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ)

[١٠] (وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا)

[١١] (يُبَصَّرُونَهُمْ ، يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ)

[١٢] (وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ)

[١٣] (وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ)

[١٤] (وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ)

« فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » أى: على مايقولون. ولا يضق صدرك ، فقدقرب الانتقام منهم. « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ » أى : العذاب الدنيوىّ أو الأخروىّ « بَعِيدًا » أى: وقوعه، لعدم إيمانهم بوعيده تعالى . « وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا » أى قريب الحضور . « يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ » أى كالشيء المذاب، أو دردىّ الزيت. و(يوم) إما ظرف لـ(قريبا) ، أو لمحذوف .

« وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ » أى : كالصوف .

« وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » أى قريب قريباً عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه .

« يُبَصَّرُونَهُمْ » أى يعرّفون أقرباءهم ، ومع ذلك يفر بعضهم من بعض . وفيه تنبيه على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل ، لا احتجاب بعضهم من بعض .

« يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ » أى يتمنى الكافر « لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ » أى الذين هم محل شفقته .

« وَصَٰحِبَتِهِۦ » أى التى هى أحب إليه « وَأَخِيهِ » أى الذى يستعين به فى النوائب .

« وَفَصِيلَتِهِ » أى عشيرته « ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ » أى تضمه إليها عند الشدائد .

« وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ » أى الافتداء . أو المذكور . أو من فى الأرض . عطف على (يفتدى) . و (ثم) للاستبعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ)

[١٦] (نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ)

[١٧] (تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٨] (وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ)

« كَلَّآ » أى لا يكون ذلك « إِنَّهَا » أى النار الموعود بها المجرم « لَظَىٰ » أى لهب خالص . « نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ » أى الأطراف ، كاليد والرجل . أو جمع (شواة) وهى جلدة الرأس . « تَدْعُواْ » أى إلى صليها « مَنْ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَتَوَلَّىٰ » أى عن الطاعة . « وَجَمَعَ » أى المال « فَأَوْعَىٰٓ » أى جعله فى وعاء وَكَنَزَهُ ، ومنع حق الله منه ، فلم يزكّ ، ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾

[٢٠] ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾

[٢١] ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾

« إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا » أى قليل الصبر ، شديد الحرص ، كما بيّنه بقوله : « إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ » أى الضرّ والبلاء « جَزُوعًا » أى كثير الجزع من قلة صبره . « وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ » أى كثر ماله ، وناله الغنى «مَنُوعًا» أى لما فى يده ، بخيل به ، لشدة حرصه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾

[٢٣] ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾

[٢٤] ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾

[٢٥] ﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾

[٢٦] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

[٢٧] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾

[٢٨] ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾

[٢٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾

[٣٠] ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾

[٣١] ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾

[٣٢] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ)

[٣٣] (وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ)

[٣٤] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[٣٥] (أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ)

« إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ » أى مقيمون ، لا يضيعّون منها شيئاً . « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى المتعفّف الذى أدبرت عنه الدنيا ، فلا يسأل الناس . وقيل : الذى لا ينمى له مال . وقيل : المصاب ثمره ، أخذاً من قول أصحاب الجنة فى السورة قبل[1] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) . واللفظ أعمّ من ذلك كله .

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن الحق المعلوم أهو الزكاة ؟ فقال : إن عليك حقوقا سوى ذلك .

ومثله عن ابن عباس قال : هو سوى الصدقة ، يصل بها رَحِماً ، أو يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كَلًّا ، أو يعين بها محروماً .

وعن الشعبيّ : أن فى المال حقًّا سوى الزكاة .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء . « وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ » قال ابن جرير[2] : أى وَجِلون أن يعذبهم فى الآخرة ، فهم من خشية ذلك لا يضيعّون له فرضاً ، ولا يتعدّون له حدًّا . « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » أى أن ينال من عصاه ، وخالف أمره . « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ » أى لغلبة ملكة الصبر ،

(١) [٦٨ / القلم / ٢٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وامتلاك ناصيته . « إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ » قال ابن جرير[1] : أى التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ملك يمينه . . « فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ » أى الذين عدوا ما أحل الله لهم، إلى ما حرّمه عليهم. «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ » قال ابن جرير[1]: أى لأمانات الله التى ائتمنهم عليها من فرائضه ، وأمانات عباده التى ائتمنوا عليها ، وعهوده التى أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التى أعطاهم ، على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيّعونه . «وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ» أى لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ولـكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها ، غير مغيّرة ولا مبدّلة . « وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى لا يضيّعون لها ميقاتاً ولا حدًّا . قيل: الحفظ عن الضياع، استعير للإتمام والتـكميل للأركان والهيئات. ولذا قال القاضى: وتـكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولًا وآخرًا ، باعتبارين: للدلالة على فضلها ، وإنافتها على غيرها . « أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ » أى بثواب الله تعالى ، لاتصافهم بمكارم الأخلاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

[٣٧] (عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ)

[٣٨] (أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

[٣٩] (كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ)

«فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ» أى مسرعين للحضور، ليظفروا بما يتخذونه هزؤاً . وعن ابن زيد : (المهطع) الذى لا يطرف .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ » أى متفرقين حلقاً ومجالس ، جماعة جماعة ، معرضين عنك ، وعن كتاب الله . « أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ » أى ولم يتّصف بصفات أهلها المنوّه بها قبل . « كَلَّآ » أى لا يكون ذلك ، لأنه طمع فى غير مطمع . « إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ » أى من النطف . يعنى : ومن قدر على ذلك ، فلا يعجزه إهلاكهم ، فليحذروا عاقبة البغى والفساد . ولذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ)

[٤١] (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٤٢] (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ)

[٤٣] (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ)

[٤٤] (خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ » يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو الأقطار التى تشرق فيها الشمس وتغرب . « إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين ، إن أردنا ذلك . « فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » أى أخذهم فيه وهلاكهم . « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ » أى يسرعون . و (النصب) الصنم المنصوب للعبادة ، أو العلم المنصوب على الطريق ليهتدى به السالك ، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره . فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم ، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها . أو إسراع الجند إلى راية الأمير . « خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ » أى من الخزى والهوان . « تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى تغشاهم ذلة من هول ما حاق بهم . « ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ » أى بأنهم ملاقوه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧١ – سورة نوح

عليه السلام

قال المهايميّ : سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . وهي مكية . وآيها ثمان وعشرون .

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢] (قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[٣] (أَنِ اعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)

[٤] (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » يعنى عذاب الطوفان « قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ » أى يعفو عنها . و (مِّن) إما مزيدة ، أو تبعيضية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله « وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أى فلا يعاجلكم بعذاب غرق أو نحوه . « إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ » أى الذى كتبه على من كذب وتولى « إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم والنظر لآمنتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا)

[٦] (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا)

[٧] (وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا)

[٨] (ثُمَّ إِنِّىٓ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)

[٩] (ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)

[١٠] (فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا)

[١١] (يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا)

[١٢] (وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا)

[١٣] (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)

[١٤] (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

« قَالَ » أى نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاقت عليه الحيل ، فى تلك المدد الطوال ، «رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى» أى إلى التوحيد والعمل الصالح «لَيْلًا وَنَهَارًا» أى دائما بلا فتور ولا توان . « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا » أى من الحق الذى أرسلتنى به « وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ » أى إلى الإيمان « لِتَغْفِرَ لَهُمْ » أى بسببه «جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ» أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة «وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ» أى تغطوا بها من كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم فى الدين «وَأَصَرُّوا۟» أى على الشر والكفر «وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا» أى تعاظموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة « ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ

جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا» أى دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه متنوعة ، مابين مجاهرة وإظهار بلا خفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بينى وبينهم فى خفاء . وهـذه المراتب أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر . « فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ » أى سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح «إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا» أى لذنوب من تاب وأناب . «يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ» أى المطر «عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» أى متتابعاً . « وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ » أى فيكثرها عندكم «وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا » أى لسقيا جناتكم ومزارعكم . « مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه ما لا يسمع ولا يبصر . فنفى الرجاء مراد به نفى لازمه ، وهو الاعتقاد، مبالغةً . وجوّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون عظمة الله. ومنه قوله[1] :

* إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا *

قال الشهاب : وهو أظهر .

---

(١) قائله أبو ذؤيب الهذلىّ ، من قصيدته التى مطلعها :

أساءلتَ رسمَ الدار أم لم تُسائلِ عن السَّكْن أم عن عهده بالأوائلِ ؟

السكن : جمع ساكن وهم أهل الدار وسكانها من يهوى ـ أى يرتفع إليهم ويريدهم ، ومنه قوله تعالى: فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ـ والمسكن : المنزل نفسه .

ويروى بيت الشاهد هكذا :

إذا لسعته الدَّبْرُ لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نُوبٍ عَوَاسِلِ

قال : وربما أنشدت * وحالفها * وقوله : لم يرج لسعها أى لم يخش لسعها . والنوب : التى تنوب ، تجىء وتذهب .

انظر الصفحة رقم ١٤٣ ، من ديوان الهذليين ، القسم الأول .

obeikandi.com

« وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » أى تارات ، تراباً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنّة ، وهكذا طوراً بعد طور . أى ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته. هذا فى أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته الكونية . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)

[١٦] (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

[١٧] (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

[١٨] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[١٩] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا)

[٢٠] (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

«أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » أى يزيل ظلمة الليل، وينير وجه الأرض. « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » أى أنشأكم منها . « ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا » أى للحساب والجزاء. « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا » أى تستقرون عليها وتمتهدونها. « لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » أى طرقاً مختلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا)

[٢٢] (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)

[٢٣] ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾

[٢٤] ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾

[٢٥] ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾

« قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي » أى خالفوا أمرى وردّوا علىّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد ، « وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا » أى رؤساءهم المتبوعين ، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

« وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا » أى متناهياً كبره ، فإن (الكبّار) أكبر من (الكبير).

« وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان (ود) لكلب بدومة الجندل ، وكانت (سواع) لهذيل ، وكان (يغوث) لبنى غطيف من مراد بالجرف ، وكان (يعوق) لهمدان ، وكان (نسر) لذى الكلاع من حمير .

وقال (فى رواية) : والله ما عدا ـ أى كلٌّ منها ـ خشبة أو طينة أو حجراً .

وقال ابن جرير[1] : كان من خبرهم ـ فيما بلغنا ـ من محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصورهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

وروى البخاريّ (١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب ، بعدُ : أما (ود) ، فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما (سواع) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبنى غُطَيف بالجرف عند سبا ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فكانت لحمير لآل ذى الكَلَاع : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ العلمُ ، عبدت.

تنبيهات :

الأول ـ قال الرازىّ : فى انتقالها عن قوم نوح إلى العرب . إشكال ، لأن الدنيا قد خربت فى زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام وضعها فى السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها فى السفينة سعياً منه فى حفظها؟ انتهى كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهىّ ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعوائدهم ، على ألسنة الرحّل والسمّار ، لأن سيرة القرن المتقدم فى العصر المتأخر ، وسنة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلىّ أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم ، لاسيما إذا زين لها المنكر بصفة تميل إليها ، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخارىّ : حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم ، عبدت . وعجيب من الرازىّ أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثُّمَام .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧١ ـ سورة نوح ، ١ ـ باب وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ، حديث رقم ٢٠٦٦ .

الثاني ـ قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : حكى الواقدىّ قال : كان (ود) على صورة رجل ، و (سواع) على صورة امرأة و (يغوث) على صورة أسد ، و (يعوق) على صورة فرس ، و (نسر) على صورة طائر . وهذا شاذ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار فى سبب عبادتها . انتهى .

الثالث ـ قال ابن القيّم فى (إغاثة اللهفان) أول ما كاد به الشيطان عبّاد الأصنام ، من جهة العكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم فى كتابه فقال: (وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ..) الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن[1] النبىّ ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل[2] ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً ، وقال[3] : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله ، إما جهلًا ، وإما عناداً لأهل التوحيد ، ولم يضرهم ذلك شيئاً .... إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٦٢ ـ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، حديث رقم ٢٨٥ ، عن عائشة .

وإلى الحديث الذى أخرجه كذلك فى: ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧١ ـ باب بناء المسجد على القبر ، حديث رقم ٢٨١ ، عن عائشة أيضاً .

(٢) يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز، حديث رقم ٩٢ عن فَضالة بن عُبَيْد ، و ٩٣ عن علىّ بن أبى طالب .

وقوله تعالى: «وَقَدْ أَضَلُّوا۟» أى : الرؤساء «كَثِيرًا» ، أى خلقاً كثيراً ، أو الأصنام كقوله تعالى(١) : (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ) . «وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا» أى خذلانا واستدراجا . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به «مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ» أى من أجلها «أُغْرِقُوا۟» أى بالطوفان «فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا» أى أذيقوا به عذاب النار «فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا» .

قال الزمخشريّ : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله، كقوله تعالى(٢) : (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا) .

وقال الرازيّ : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا)

[٢٧] (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)

[٢٨] (رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا)

«وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا» أى أحداً .

قال ابن جرير(٣) : يعنى بـ (الديّار) من يدور فى الأرض فيذهب ويجىء فيها، وهو (فيْعال) من الدوران ، ديوارا اجتمعت الياء والواو ، فسبقت الياء الواو وهى ساكنة، وأدغمت الواو فيها، وصيرتا ياء مشددة . والعرب تقول: مابها ديّار ولاعريب ولا دَوِيّ ولاصافر ولانافخ ضَرَمة

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

« إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ » عن طريق الحق . « وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » قال أبو السعود : أى إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال، مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم ، بعد ما جرّبهم واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

وقال بعضهم : ملَّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذى غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التى تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتتربى بهيآتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبذر الذى لا ينبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

« رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ » قال ابن جرير[1] : أى رب اعف عنى، واستر علىّ ذنوبى وعلى والدىّ ، « وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا » قال ابن جرير[1] : أى ولمن دخل مسجدى ومصلاى، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه. وقيل: بيتى منزلى . «وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا » أى هلاكاً وخساراً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٢ ــ سورة الجن

قال المهايمىّ : سميت بها لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم فى تحسين الإيمان ، وتقبيح الكفر ، مع كون أقوالهم أشد تأثيرا فى قلوب العامة ، لتعظيمهم إياهم .

وهى مكية . وآيها ثمان وعشرون .

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)

[٢] (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ » أى لهذا القرآن الحكيم . والمشهور أن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهط ـ كما فى (المجمل) ـ .

قال القاشانىّ : قد مرّ أن فى الوجود نفوساً أرضية قوية ، لا فى غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكثافتها ، وقلة إدراكها ، ولا على هيآت النفوس الإنسانية واستعداداتها ، ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة ، الغالب عليها الأرضية ، ولا فى صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوىّ ، وتتجرد متعلقةً بأجرام عنصرية لطيفة ، غلبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية ، على اختلاف أحوالها . سماها بعض الحكماء الصور المعلقة ، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا . ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملكوت السماوية ، أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب ، فلا تستبعد أن ترتقى إلى أفق السماء ، فتسترق السمع من كلام الملائكة ، أى النفوس المجردة . ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية ، تأثرت بتأثير تلك القوى ، فرجمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها ، وإدراك مداها من العلوم . ولا ينكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك ، أو تنزجر من الارتقاء إلى الأفق السماوى فتتسفل ، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان ، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان ، الصادقون من الأنبياء والأولياء ، خصوصاً أكملهم نبيّنا محمدا ﷺ . انتهى .

وفى الآية ـ كما قال القاضى ـ دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم، ولم يقرأ عليهم، وإنما اتفق حضورهم فى بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله .

« فَقَالُوٓاْ » أى لما رجعوا إلى قومهم « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا » قال المهايمىّ أى كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية ، والأحكام والمواعظ ، وجميع ما يحتاج إليه فى أمر الدارين .

« عَجَبًا » أى غريباً ، لا تناسبه عبارة الخلق ، ولا يدخل تحت قدرتهم .

« يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ » أى إلى الحق وسبيل الصواب « فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا » أى من خلقه ، فى العبادة معه .

تنبيهات

الأول ـ هذا المقام شبيه بقوله تعالى[1] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ) الآية . وقد روى البخارىّ[2] عن ابن عباس قال . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ! فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب ! قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ! قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ياقومنا ! إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : (قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ) وإنما

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧٢ ـ سورة الجن .

أوحى إليه قول الجن . ورواه مسلم[1] أيضاً وزاد فى أوله : ماقرأ رسول ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق . . . إلى آخره .

الثانى ـ قال الماوردىّ : ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن . قال : والإيمان يقع بأحد أمرين : إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز ، وشروط المعجزة ، فيقع له العلم بصدق الرسول. أو يكون عنده علم من الكتب الأولى ، فيها دلائل على أنه النبىّ المبشر به ، وكلا الأمرين فى الجن محتمل . انتهى .

الثالث ـ قال الرازىّ : فى الآية فوائد :

إحداها ـ أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .

وثانيها ـ أن يعلم قريش أن الجن ، مع تمردهم ، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فآمنوا بالرسول .

وثالثها ـ أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .

ورابعها ـ أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ، ويفهمون لغاتنا .

وخامسها ـ أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .

وفى كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس . انتهى .

ولما سمعوا القرآن ، ووفِّقوا للتوحيد والإيمان ، تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه ، واتخاذه صاحبة وولداً ، فاستعظموه ، ونزهوه عنه ، فقالوا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾

« وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا » أى تعالى ملكه وعظمته ، وصدق ربوبيته ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

---

(١) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٤٩ (طبعتنا) .

قال ابن جرير (١): الجَدُّ بمعنى الحظ . يقال : فلان ذو جَدّ فى هـذا الأمر إذا كان له حظ فيه ، وهو الذى يقال له بالفارسيّة (البخت) . والمعنى : أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية ، فلا تـكون له صاحبة ولا ولد ، لأن الصاحبة إنما تـكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها ، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذى يحدث منه الولد . فقال النفر من الجن : علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو وقاع شىء يكون منه ولد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا)

[٥] (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)

[٦] (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

« وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا » يعنون به مضلّهم ومغويهم « عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا » أى قولاً ذا شطط . صفة لقول مقدر بتقدير مضاف . أو جعل عين الشطط مبالغة فيه . وأصله مجاوزة الحدّ . والمراد منه نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى . « وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى فى نسبة ما ليس بحق، إليه سبحانه . وهو اعتذار عن اتباعهم السفيه فى ذلك ، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، حتى تبيّن لهم بالقرآن كذب السفيه وافتراؤه . « وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » روى ابن جرير (٢) عن ابن عباس قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادى فى الجاهلية فيقول : أعوذ بعزيز هذا الوادى ، فزادهم ذلك إثماً . ففى الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

فى الجاهلية من أن الوديان مقر الجن وأن رؤساءها تحميهم منهم . وهكذا قال إبراهيم : كانوا إذا نزلوا الوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرًّا ولا نفعاً .

وقال الربيع بن أنس : كانوا يقولون : فلان من الجن رب هذا الوادى ، فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله . قال : فيزيدهم ذلك رهقاً ، وهو الفرَق .

وقال ابن زيد : كان الرجل فى الجاهلية إذا نزل بواد قبل الإسلام قال: إنى أعوذ بكبير هذا الوادى . فلما جاء الإسلام ، عاذوا بالله وتركوهم . انتهى .

أى : لأن ذلك من الشرك ، ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره . وكذلك أذكار الاستعاذات المأثورة ، فإنها للإرشاد لذلك .

روى مسلم [١] عن خولة بنت حكيم قالت : من نزل منزلًا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرحل من منزله ذلك .

قال بعضهم : فى الحديث تفسير آية الجن ، وأن ما فيها من الشرك ، وأن كون الشىء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر ، أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وفى الآية تأويل غريب نقله الرازىّ . وهو أن المراد كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى . وأصحاب هذا التأويل ، إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الأنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف ، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلًا . انتهى .

والضمير المرفوع فى (فزادوهم) . للجن ، على معنى : فزادوهم باستعاذتهم بهم ، غيًّا وإثماً وضلالًا . أو للإنس على معنى : فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتوًّا .

و (الرهق) فى الأصل غشيان الشىء ، نخص بما يعرض من الكبر أو الضلال .

---

(١) أخرجه فى مسلم : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٥٤ و ٥٥ (طبعتنا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا)

[٨] (وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)

[٩] (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا)

« وَأَنَّهُمْ » أى وأوحى إلىّ أن الجن « ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ » أى فى جاهليتكم « أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا » أى رسولًا إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده وما فيه سعادتهم. أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء .

وقيل: الضمير فى (وَأَنَّهُمْ) للإنس، ذهاباً إلى أن قوله (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ) (وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ) من كلام الجن ، والخطاب لهم .

« وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ » أى تطلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها « فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا » أى حفظة ورواجم . « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا » أى كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث ، وما يكون فيها، فمن يستمع الآن فيها يجد له شهاب نار قد رصد له .

قال الزمخشرىّ : وفى قوله (مُلِئَتْ) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة . وكذلك قوله (نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ) أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب . والآن ملئت المقاعد كلها . وهذا ذكر ما حملهم على الضرب فى البلاد حتى عثروا على رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠] (وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

« وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » يعنون

أن ما حدث من منعهم السمع من السماء ، ورجم من استمع منهم بالشهب ، كان يقولون هو لأمر عظيم أراده الله بأهل الأرض ، إما عذاب أو رحمة . أى : حتى علموا بعد باستماعهم القرآن ، أنه لخير أريد بهم ، وذلك ببعثة نبيّ مصلح يرشد إلى الحق .

قال الناصر : ولقد أحسنوا الأدب فى ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل . والمراد بالمريد هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ، كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾

[١٢] ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾

[١٣] ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ، فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾

[١٤] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾

[١٥] ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾

[١٦] ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾

[١٧] ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾

« وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ » أى المسلمون العاملون بطاعة الله « وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ » أى قوم دون ذلك، وهم المقتصدون فى الصلاح غير الكاملين فيه، أو الكافرون « كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا » أى أهواء مختلفة ، وفرقاً شتى . وهذا بيان للقسمة قبلُ . أى كنا مثلها أو ذويها . و (الطرائق) : جمع طريقة ، وهى طريقة الرجل ومذهبه. و (القدد) الضروب والأجناس المختلفة ، جمع (قدّة) كالقطعة .

« وَأَنَّا ظَنَنَّآ » أى علمنا « أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى إن أراد بنا سوءًا « وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا » أى إن طلبنا .

قال الزمخشرىّ : هذه صفة أحوال الجن ، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ، منهم أخيار وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لايفوته مطلب ، ولا يُنْجِى عنه مهرب .

« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ » أى القرآن الذى يهدى إلى الطريق المستقيم « ءَامَنَّا بِهِۦ » أى صدّقنا بأنه حق من عند الله ، « فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا » أى أن ينقص من حسناته فلا يجازى عليها « وَلَا رَهَقًا » أى أن ترهقه ذلّة ، وتلحقه هيأة معذبة موجبة للخسوء والطرد . يعنى : أنه يجزى الجزاء الأوفى ، وتكون له فى العز العاقبة الحسنى . « وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ » أى الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، « فَمَنْ أَسْلَمَ » أى أذعن وانقاد « فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا » أى ترجّوا وتوخوا رشداً عظيماً ، وقصدوا صواباً واستقامة .

وقوله (فَمَنْ أَسْلَمَ ..) الخ من كلام الله أو الجن . قال الزمخشرىّ : وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً ، أن الله تعالى أوعد قاسطيهم ، وماوعد مسلميهم ، وكفى به وعداً أن قال (فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا) فذكر سبب الثواب وموجبه . والله أعدل من أن يعاقب القاسط ، ولا يثيب الراشد . « وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » أى توقد بهم ، كما توقد بكفار الإنس . « وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ » أى الجن أو الإنس أو كلاهما « عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ » أى طريقة الحق والعدل « لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا » أى لوسعنا عليهم الرزق . وإنما تجوز بالماء الغدق ، وهو الكثير ، عما ذكر ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ، ولعزة وجوده بين العرب . أو لأن غيره يعلم منه بالأولى . « لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيه كيف يشكرون ماخولوا منه . « وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ » أى عبادته أو موعظته « يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا » أى شديداً شاقًّا .

قال الزمخشريّ : الصعد : مصدر صعد. يقال : صعد صَعَدًا وصعوداً. فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب ، أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

« وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ » أى مختصة به « فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا » أى فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام، ونصبهم فيه التماثيل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب . فإن المساجد لم تُشَدْ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجتمع فى دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾

« وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ » يعنى محمداً ﷺ ، « يَدْعُوهُ » أى يعبد ربه ، « كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى جماعات بعضها فوق بعض ، تعجُّباً مما رأوه من عبادته، واقتداء أصحابه به ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . فالضمير فى (كَادُواْ) للجن . وقد بيّن ذلك حديث البخاريّ كما تقدم . وجوّز رجوعه للمشركين بمكة . والمعنى: لما قام رسولًا يعبد الله وحده، مخالفاً للمشركين فى عبادتهم الآلهة من دونه ، كاد المشركون لتظاهرهم عليه ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين ـ حكاه الزمخشريّ ـ ثم قال : (لِبَدًا) جمع لبدة ، وهو ما تلبد بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا)

[٢١] (قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

« قُلْ » وقرئ (قال) « إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى » أى أعبده ، وأبتهل إليه وحده ، « وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا » أى فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم ، أو إطباقكم على مقتى . « قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لأن ذلك لله تعالى وحده ، فلا تستعجلونى بالعذاب .

قال الشهاب فى توضيح ما للقاضى هنا : إما أن يراد بالرشد النفع ، تعبيراً باسم السبب عن المسبب ، أو يراد بالضرّ الغىّ ، تعبيراً باسم المسبب عن السبب . ويجوز أن يجرد من كل منهما ما ذكر فى الآخر ، فيكون احتباكاً . والتقدير : لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، ولا غيًّا ولا رشداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا)

[٢٣] (إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ، وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا)

[٢٤] (حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)

« قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ » أى إن أراد بى سوءاً « وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا » أى ملتجأً إن أهلكنى . وأصله : المدخل من اللحد . وقوله « إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ » استثناء من قوله (لَآ أَمْلِكُ) فإن التبليغ إرشاد ونفع . فهو متصل ، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة . أى لا أملك إلا التبليغ والرسالات ، من معانى

الوحى ، وأحكام الحق . « وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فلم يسمع ما جاء به، ولم يقبل ما يبلغه « فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا * حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ » أى فى الرسالات الإلهية ، من الظهور عليهم والفتح ، أو العذاب الأخروىّ . « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا » أى أجند الرحمن أو إخوان الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا)

[٢٦] (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا)

[٢٧] (إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا)

« قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا» أى غاية تطول مدتها. «عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا» أى حرسًا من الملائكة يحفظونه من تخاليط الشياطين ووساوسهم ، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه .

قال القاشانىّ : (رصداً) أى حفظة إما من جهة الله التى إليها وجهه ، فروح القدس والأنوار الملكوتية والربانية . وإما من جهة البدن ، فالملكات الفاضلة والهيآت النورية الحاصلة من هيا كل الطاعات والعبادات ، يحفظونه من تخبيط الجن ، وخلط كلامهم من الوساوس والأوهام والخيالات ، بمعارفها اليقينية ، ومعانيها القدسية ، والواردات الغيبية، والكشوف الحقيقية . انتهى .

تنبيه .

قال الزمخشرىّ : يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى .

قال : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين،

فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله فى السخط . انتهى .

وأجاب أبو السعود بأن معنى الآية : فلا يطلع على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جلية الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ، إلا من ارتضى من رسول . أى إلا رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته ، كما يعرب عنه بيان (من ارتضى) بالرسول تعلقاً تاماً ، إما لكونه من مبادئ رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية التى أمر بها المكلفون ، وكيفيات أعمالهم، وأجزيتها المترتبة عليها فى الآخرة ، وما تتوقف هى عليه من أحوال الآخرة التى من جملتها قيام الساعة والبعث ، وغير ذلك من الأمور الغيبية التى بيانها من وظائف الرسالة . وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب ، التى من جملتها قيام الساعة، فلا يظهر عليه أحداً أبدا . على أن بيان وقته مُخلّ بالحكمة التشريعية التى عليها يدور فلك الرسالة . وليس فيه ما يدل على نفى كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف . فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل، لا يستلزم عدم حصول مرتبةٍ ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاً ، ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما فى رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحى الصريح . انتهى

وملخصه تقييد الغيب بما هو معجزة أو من وظائف الرسالة . وهكذا نحا النسفىّ فى الجواب ، مع بيان الفارق وعبارته : أى إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، فإنه يطلعه على غيبه ما شاء : و (من رسول) بيان ا (من ارتضى) . والولىّ إذا أخبر بشيء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر بناء على رؤياه ، أو بالفراسة . على أن كل كرامة للولىّ فهى معجزة للرسول . انتهى .

وقال الرازىّ : وعندى أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه ـ يعنى الزمخشرىّ ومن تابعه ـ والذى تدل عليه أن قوله (على غيبه) ليس فيه صيغة عموم ، فيكفى فى العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فنحمله على وقت وقوع القيامة ،

فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى فى الآية دلالة على أنه لايظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

قال : والذى يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله: (إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا) يعنى : لاأدرى وقت وقوع القيامة . ثم قال بعده : (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا) أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لايظهره الله لأحد . وبالجملة فقوله : (على غيبه) لفظ مفرد مضاف ، فيكفى فى العمل به حمله على غيب واحد . فأما العموم فليس فى اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال : (إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) مع أنه لايظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال[1] (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا) ولا شك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام القيامة . وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً، كأنه قال: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص ، وهو يوم القيامة ، أحداً . ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن . لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به، والاستحقار لدينه ومقالته . اهـ .

وملخصه تخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة بدلالة السياق ، والرسول بالملك .

وناقشه فى العناية بأن المرضىّ حمل الرسول على المتعارف لدلالة السباق والسياق عليه .

هذا ، ونقل النسفى عن التأويلات ما مثاله :

قال بعضهم: فى هذه الآية تكذيب المنجمة، وليس كذلك، فإن فيهم من يصدق خبره، وكذلك المتطببة فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وذا لايعرف بالتأمل ، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسولٍ انقطع أثره، وبقى علمه فى الخلق . انتهى .

وهذا الجواب يلجأ إليه المتفقهة زعماً بأن معرفة مواقيت الكسوف، وخواص المفردات

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

مما يشمله علم الغيب. والصواب عدم شموله لمثله، لأنه مما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية. وبالجملة فكل ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يكون من الغيب في شيء. ولذا قال بعض الحكماء: لو كان من وظيفة النبيّ أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل، وينزع الاستقلال من الإنسان، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من كل شيء بالتسليم، ولوجب أن يكون عدد الرسل في كل أمة كافيا لتعليم أفرادها في كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم. وإن شئت فقل: لوجب أن لا يكون الإنسان هذا النوع الذي نعرفه. نعم، إن الأنبياء ينبهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التي ترتقي بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد في العبرة. وقد أرشدنا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه في مسائل دنيانا في واقعة تأبير النخل إذ قال[1] (أنتم أعلم بأمور دنياكم) انتهى. فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٨] (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)

«لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ» متعلق بـ (يَسْلُكُ) غاية له. والضمير إما لـ (الرصد)، وإما لـ (مَنِ ارْتَضَىٰ). والجمع باعتبار معنى (من). أي ليبلغوا، فيظهر متعلق علمه. وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ، والإشعار بترتب الجزاء عليه، والمبالغة في الحث عليه، والتحذير عن التفريط فيه. «وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» أي بما عند الرصد، أو الرسل عليهم السلام. حال من فاعل (يَسْلُكُ) جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد. «وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» أي فردًا فردًا لسعة علمه. تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في: ٤٣ ـ كتاب الفضائل، حديث ١٤١ (طبعتنا).

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٣ – سُورَة المزمِّل

قال المهايميّ : سميت به لدلالته على عظم أمر الوحى ، لأن أقوى الخلائق كان يرتعد عنده فيتزمل .

وهى مكية ، قيل : إلا قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ » إلى آخر السورة ، وآيها عشرون .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾

[٢] ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[٣] ﴿ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾

[٤] ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ » أى المتزمل . من (تزمل) بثيابه إذا تلفف بها . فأدغم التاء فى الزّاى خوطب ﷺ بحكاية حاله وقت نزول الوحى ، ملاطفةً وتأنيساً وتنشيطاً للتشمر لقيام الليل ، وقيل : معناه المتحمل أعباء النبوة ، من تزمل الزِّمْلَ ، إذا تحمل الحمل . ففيه استعارة . شبَّهَ إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل ، بجامع المشقة .

قال الشهاب : وأورد عليه أنه مع صحة المعنى الحقيقىّ ، واعتضاده بالأحاديث الصحيحة ، لا وجه لادعاء التجوز فيه .

وقد يجاب بأن الأحاديث رويت فى نزول سورة (المدثر) لا فى هذه السورة ، كما سيأتى إن شاء الله ، إلا أن يقال : هما بمعنى واحد .

« قُمِ ٱلَّيْلَ » أى : فيه للصلاة ، ودع التزمل للهجوع « إِلَّا قَلِيلًا » أى بحكم الضرورة للاستراحة ، ومصالح البدن ومهماته التى لا يمكن بقاؤه بدونها .

ثم بيّن تعالى قدر القيام مخيراً له بقوله : « نِّصْفَهُۥٓ » أى نصف الليل بدل من الليل . « أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ » أى من النصف « قَلِيلًا » أى إلى الثلث .

« أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » أى النصف إلى الثلثين ، والمقصود التخيير بين قيام النصف وما فوقه وما دونه . ولا يقال : كيف يكون النصف قليلًا وهو مساوٍ للنصف الآخر ؟ لأن القلة بالنسبة إلى الكل ، لا إلى عديله .

« وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا » أى بيِّنه تبييناً ، وترسّل فيه ترسلًا .

قال الزمخشريّ : ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة ، بتبيين الحرف ، وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتل ، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وأن لا يهذّه هذًّا ، ولا يسرده سرداً .

تنبيه :

قال السيوطىّ : فى الآية استحباب ترتيل القراءة، وأنه أفضل من الهذّ به، وهو واضح. وقد ثبت فى السُّنَّة أنه ﷺ كان يقطع قراءته آية آية ، وأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً، وأنه كان يقف على رؤوس الآى .

واستدل بالآية على أن الترتيل والتدبُّر ، مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها ، لأن المقصود من القرآن فهمه وتدبُّره ، والفقه فيه ، والعمل به .

قال ابن مسعود : لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل. قفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » أى رصيناً ، لرزانة لفظه ، ومتانة معناه ، ورجحانه فيهما على ما عداه . ولما كان الراجح من شأنه ذلك ، تجوّز بالثقيل عنه . أو ثقيلًا على المتأمّل فيه ، لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر ، وتجريد للنظر . أو ثقيلًا تلقيه ، لقول عائشة(١) رضى الله عنها : رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وعلى كل فالجملة معللة للأمر بالترتيل ، وأن ثقله مما يستدعيه .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٤ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٢ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا)

« إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ » أى نشأته وطبيعة خلقه ومظهره « هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا » أى موافقة لما يراد منها من جمع الهم ، وهدوء البال . « وَأَقْوَمُ قِيلًا » أى أسدّ مقالًا وأصوبه .

قال ابن قتيبة : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، ويخلص القول، ولا يكون دون تسمّعه وتفهمه حائل .

ونقل السيوطىّ عن الجاحظ قال : ناشئة الليل هى المعانى المستنبطة من القرآن بالليل ، أشد وطأً أبين أثراً . وأقوم قيلًا ، أصحّ مما تخرجه الأفكار بالنهار ، لخلوّ السمع والبصر عن الاشتغال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا)

[٨] (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)

[٩] (رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا)

« إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » أى تقلباً فى مهماتك ، واشتغالًا بها، فلذا أمرت بقيام الليل . « وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ » أى دم على ذكره ليلًا ونهاراً . قال الزمخشرىّ : وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره. « وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » أى أخلص إليه ، بتجريد النفس عن غيره ، إخلاصاً عظيما . « رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا » أى تـكل إليه مهامك، فإنه سيكفيكها.

قال ابن جرير[1] : أى فيما يأمرك ، وفوض إليه أسبابك .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا)

[١١] (وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا)

[١٢] (إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا)

[١٣] (وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)

[١٤] (يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا)

« وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى من الأذى والفرْى « وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » أى بالإعراض عن مكافأتهم بالمثل ، كما قال تعالى(١) (وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ) « وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ » أى دعنى وإياهم ، وكِلْ أمرهم إلىّ ، فإن بى غنية عنك فى الانتقام منهم . « أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ » أى التنعم ، يريد صناديد قريش ومترفيهم . « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » أى تمهل عليهم زماناً ، أو إمهالًا قليلًا . « إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا » أى قيودًا «وَجَحِيماً» أى ناراً شديدة الحرّ والاتقاد « وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ » أى يغصُّ به آكله فلا يسيغه ، « وَعَذَاباً أَلِيماً » أى ونوعاً آخر من أنواع العذاب مؤلمًا لايعرف كنهه . أى فلا ترى موكولًا إليه أمرهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام . « يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ » أى تضطرب وترتجّ بالزلزال ، « وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلًا » أى رملًا متفرقاً منثوراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا)

[١٦] (فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا)

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] .

« إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ » أى بإجابة من أجاب وإباء من أبى « كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا » أى يدعوه إلى الحق. « فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا » أى ثقيلًا ، وذلك بإهلاكه ومن معه ، غرقاً فى اليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا)

[١٨] (ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ، كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا)

[١٩] (إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا)

« فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا » أى كيف تقون أنفسكم إن بقيتم على كفركم ، ولم تؤمنوا بالحق ، يوم القيامة ، وحاله فى الهول ما ذكر .

قال ابن أبى الحديد : يقال فى اليوم الشديد : إنه ليشيب نواصى الأطفال ، كلام جار مجرى المثل. وليس ذلك على حقيقته، لأن الأمة مجمعة على أن الأطفال لا تتغير حُلاهم فى الآخرة إلى الشيب . والأصل فى هذا أن الهموم والأحزان إذا توالت على الإنسان شاب سريعاً . قال أبو الطيب(١) :

والهم يخترم الجسيم نحافةً ويشيب ناصية الصبيّ ويُهرِمُ

« ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ » قال الزمخشريّ : وصف لليوم بالشدة أيضاً. وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟

قال السمين : وإنما لم تؤنث الصفة لأحد وجوه : منها ـ تأويله بالمشتق . ومنها ـ أنها على النسب ، أى ذات انفطار ، نحو : مرضع وحائض . ومنها ـ أنها تذكر وتؤنث .

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لِهَوَى القلوب سريرة لا تعلَمُ عَرَضاً نظرتُ وخِلْتُ أنّى أسْلَمُ

الديوان ص ٢١٨ (طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤) .

ومنها ـ أنها اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، فيقال : سماءة ، وفى اسم الجنس التذكير والتأنيث . والباء فى (بِهِ) سببية أو للاستعانة ، أو بمعنى (فى) .

« كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا » أى لأنه لا يخلف وعده ، فاحذروا ذلك اليوم . « إِنَّ هَٰذِهِۦ » أى الآيات الناطقة بالوعيد الشديد « تَذْكِرَةٌ » أى موعظة لمن اعتبر بها واتعظ، « فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا » أى بالإيمان به ، والعمل بطاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ، وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ، عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ)

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ » أى تتهجد فيه هذه التارات المختلفة ، وتتشمر للعبادة فيه هذا التشمر امتثالا لأمره وتبتلا إليه ، « وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ » أى يعلمهم كذلك ، « وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ » أى أن يجعلهما على مقادير يجريان عليها، فتارة يعتدلان، وتارة يزيد أحدهما فى الآخر ، وبالعكس مما يشق لأجله المواظبة على قيامه بما علمه منكم ـ أشار إليه ابن كثير ـ . أو المعنى : يقدر فيهما ما شاء من الأوامر . ومنه تقديره فى قيام الليل ما قدره ، مما أمر به أول السورة من التخيير ، ترخيصاً وتيسيراً . « عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ » أى قيام الليل ، على النحو الذى

دأبتم عليه ، أو قيام الليل كله ، للحرج والعسر « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أي عاد عليكم باليسر ورفع الحرج . « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ » أي في صلاة الليل بلاتقدير . أو المراد : لاتتجاوزوا ماقدره لكم، رحمة بأنفسكم . وفيه رد من غلوهم في قيام الليل كله، أو الحرص عليه ، شوقاً إلى العبادة ، وسبقاً إلى الكمالات .

قال مقاتل : كان الرجل يصلي الليل كله ، مخافة أن لايصيب مما أمر به من قيام مافرض عليه ـ نقله الرازيّ ـ .

« عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ » أي يضعفهم المرض عن قيام الليل « وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » أي للتجارة وغيرها ، فيقعدهم ذلك عن قيام الليل « وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أي لنصرة الدين ، فلا يتفرّغون للقيام فيه « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » أي من القرآن. ولا تحرّجوا أنفسكم، لأنه تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب كثير من السلف إلى وجوب قيام الليل المفهوم من الأمر به طليعة السورة ، منسوخ بهذه الآيات .

روى ابن جرير[1] عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله ﷺ وسلم حصيراً يصلي عليه من الليل ، فتسامع به الناس فاجتمعوا ، فخرج كالمغضب ـ وكان بهم رحيماً ـ فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل ، فقال : ياأيها الناس ؟ اكلفوا من الأعمال ماتطيقون، فإن الله لايمل من الثواب ، حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال مادمتم عليه . ونزل القرآن . (يَـٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ...) الآية، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله مايبتغون من رضوانه فرحمهم ، فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل

قال ابن كثير : والحديث في الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة . وهذا السياق قد يوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هي مكية . انتهى كلامه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

أقول : وبمثل هـــذه الرواية يستدل على أن مراد السلف بقولهم : (ونزلت الآية) الاستشهاد بها فى قضية تنطبق عليها ـ كابيناه مراراً ـ .

وأخرج أيضاً [١] عن ابن عباس قال : أمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلًا . فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف عنهم فرحمهم ، وأنزل الله بعد هذا (عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم . . .) الآية . فوسع الله ـ وله الحمد ـ ولم يضيق .

وعن أبى عبد الرحمن قال : لما نزلت (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ) قاموا بها حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت (فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) فاستراح الناس .

وهكذا روى عن سعيد والحسن وعكرمة وقتادة .

قال ابن حجر فى (شرح البخارىّ) : ذهب بعضهم إلى أن صلاة الليل كانت مفروضة ، ثم نسخت بقيام بعض الليل مطلقاً ، ثم نسخ بالخمس . وأنكره المروزىّ . وذهب بعضهم إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : قوله تعالى (قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) هو منسوخ بعد أن كان واجباً ، بآخر السورة . وقيل : محكم ، فاستدل به على ندب قيام الليل . واستدل به طائفة على وجوبه على النبىّ ﷺ خاصة . وآخرون على وجوبه على الأمة أيضاً، ولكن ليس الليل كله ، بل صلاة مّا فيه . وعليه الحسن وابن سيرين . انتهى .

أقول : من ذهب إلى أن الأمر محكم وأنه للندب، يرى أن آخر السورة تعليمٌ لهم الرفقَ بأنفسهم ، لأنه تاب عليهم باليسر ، ورفع عنهم الآصار . وفيه مايدل على عنايتهم بالمندوب ، وحرصهم عليه ، حتى أفضى الحال إلى الرفق بهم فيه . ويدل عليه أثر عائشة فى ربطهم الحبل للتعلق به ، استعانة على قراءة القرآن ، وكثرة تلاوته .

الثانى ـ قال ابن كثير : فى قوله تعالى (فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ) تعبير عن

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة سبحان [١] (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءتك .
وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة رحمه الله ، بهذه الآية ، على أنه لا تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه . واعتضدوا بحديث (المسىء صلاته) الذى فى الصحيحين [٢] : ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين [٣] أيضاً ، أن رسول الله ﷺ قال : لا صلاة إلا أن تقرأ بفاتحة الكتاب . انتهى .

الثالث ـ فى قوله تعالى (وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) علم من أعلام النبوّة .
قال ابن كثير : هذه الآية ، بل السورة كلها ، مكية . ولم يكن القتال شرع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوّة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة .

الرابع ـ قال ابن الفرس : فى قوله (وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ) فضيلة التجارة ، لسوقها فى الآية مع الجهاد .
أخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : ما من حال يأتينى عليه الموت بعد الجهاد فى سبيل الله ، أحب إلىّ أن يأتينى وأنا ألتمس من فضل الله . ثم تلا هذه الآية .
وقال السيوطىّ : هذه الآية أصل فى التجارة .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦١ ، عن أبى هريرة .
وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٤٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦٠ .
وأخرجه مسلم فى كتاب الصلاة ، حديث ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعتنا) .

« وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ » أى زكاة أموالكم .

قال ابن كثير : وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة .

«وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » يعنى به بذل المال فى سبيل الخيرات على أحسن وجه ، كأن يكون من أطيب المال ، وإعطاءه للمستحق من غير تأخير ، واتقاء المنّ والأذى . وسر الأمر بـ (الحسن) أن القرض لما كان يعطى بنية الأخذ ، لا يبالى بأى شىء وأى مقدار يعطى منه ، فأشير إلى إيثار المقام الأرفع . ولكونه محقق الرجوع إليه دل التعبير به على تحقق العوض هنا . « وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ » أى فى الدنيا من صدقة أو نفقة فى وجوه الخير ، أو عمل بطاعة الله ، أو غير ذلك من أعمال البر « تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا » أى ثوابًا مما عندكم من متاع الدنيا . « وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ » أى سلوه غفران ذنوبكم ، « إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »أى ذو مغفرة لذنوب من تاب إليه وأناب ، ورحمة أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٤ – سورة المدثر

مكية . وآيها ست وخمسون آية .

قال ابن كثير : ثبت فى صحيح البخارىّ عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولًا قوله تعالى (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) كما سيأتى بيان ذلك هنالك ، إن شاء الله تعالى .

روى البخارىّ[(١)] عن يحيى بن كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول مانزل من القرآن فقال : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) . قلت: يقولون (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلّا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى ، فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا علىّ ماء بارداً . قال ، فدثرونى وصبوا علىّ ماء بارداً . فنزلت (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ) .

وروى الشيخان أيضاً[(١)] عن الزهرىّ قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٧٤ ـ سورة المدثر، ١ ـ حدثنى يحيى حديث رقم ٤ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٥ (طبعتنا) .

ابن عبد الله قال : سمعت النبيّ ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، فجُئِثْتُ منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى . فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . . » الآيات .

قال ابن كثير : وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا لقوله (فإذا الملك الذى جاءنى بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعدُ . هذا وجه الجمع : أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة .

وروى الطبرانىّ عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون فى هـذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر ، فأنزل الله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . .) الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ)

[٢] (قُمْ فَأَنذِرْ)

[٣] (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)

[٤] (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)

[٥] (وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ)

[٦] (وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ)

[٧] (وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ » أى المتلفف بثيابه لنوم أو استدفاء ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار . والشعار الثوب الذى يلى الجسد . وأصله (المتدثر) فأدغم . خوطب بذلك لحالته التى كان عليها وقت نزول الوحى . أو لقوله : دثرونى ـ كما تقدم ـ . وقيل : معناه المدثر بدثار النبوة والرسالة ، من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى ، وزينه برداء العلم. ويقال : تلبس فلان بأمر كذا . فجعل النبوة كالدثار واللباس مجازاً .

قال الشهاب : إما أن يراد المتحلى بها والمتزين ، كما أن اللباس الذى فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة . وكذا يسمى (خلة) . والتشبيه بالدثار فى ظهورها ، أو فى الإحاطة. والأول أتم .

« قُمْ » أى من مضجعك ودثارك . أو قيام عزم وجد « فَأَنذِرْ » أى فحذر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا .

قال الشهاب : لم يقل (وَبَشِّرْ) لأن كان فى ابتداء النبوة ، والإنذار هو الغالب ، لأن البشارة لمن آمن ، ولم يكن إذ ذاك . أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير.

« وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قال ابن جرير[١] أى فعظم بعبادته ، والرغبة إليه فى حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال القاشانىّ : أى إن كنت تكبر شيئاً وتعظم قدره ، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير، لا يعظم فى عينك غيره ، ويصغر فى قلبك كل ما سواه ، بمشاهدة كبريائه .

«وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» أى: بالماء من الأنجاس . قال ابن زيد ، كان المشركون لا يتطهرون، فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه . وقيل هو أمر بتطهير القلب مما يستقذر من الآثام .

قال قتادة : العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دنس الثياب . وإذا وفى وأصلح ، قالوا : مطهر الثياب .

وعن ابن عباس : أى لا تلبسها على معصية ، ولا على غدرة . ثم أنشد لغيلان بن سلمة[٢] الثقفىّ :

وإنى ، بحمد الله ، لا ثوبَ فاجر لبستُ ، ولا مِنْ غَدْرَةٍ أتَقَنَّعُ

وفى الوجه الأول بقاء لفظى الثياب والتطهير على حقيقتهما ، وفى الثانى تجوّز بهما . وبقى وجه ثالث ، وهو حمل الثياب على حقيقتها ، والتطهير على مجازه، وهو التبصير . لأن العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويجرّون أذيالهم خيلاء وكبراً ، فأمر بمخالفتهم . ورابع وهو عكس

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) البيت لغيلان بن سلمة الثقفىّ .

قال فى اللسان (ث و ب) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول : لا تلبس ثيابك على معصية ، ولا على فجورٍ كفرٍ . واحتجّ بقول الشاعر :

إنى بحمد الله ، لا ثوب غادر لبستُ ولا عن خَزْيَةٍ أتَقَنَّعُ

هذا ، وذلك ، بحمل الثياب على الجسد أو النفس كناية ، كما قال عنترة (١) :

* فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابَهُ *

أى : نفسه . ولذا قال :

* ليس الكريم على القنا بِمُحَرَّمِ *

واستصوب ابن الأثير فى (المثل السائر) الوجه الأول . قال فى الفصل الثالث من فصول مقدمته : اعلم أن الأصل فى المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) . فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس . ومن تأول ، ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لا الملبوس . وهذا لا بد له من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

ثم قال : المعنى المحمول على ظاهره لايقع فى تفسيره خلاف . والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ، إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون فى هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل ، فيكسوه بعبارته قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف بضاربه (٢) :

إن السيوفَ مع الذين قلوبهم ... كقلوبهن ، إذا التقى الجمعانِ
تلقى الحسامَ على جراءة حدِّه ... مثلَ الجبان بكفِّ كل جبانِ

. انتهى

ويكفى دليلًا ما للعرب من الشواهد والأمثال . والاستعمال لا ينحصر فى الحقيقة . نعم ، المتبادر أولى وأجدر ، وهو عنوان الحقيقة .

(١) من معلقته التى أولها :

هل غادر الشعراء من متردَّمِ ... أم هل عرفتَ الدار بعد توهمِ ؟

المتردَّم : الموضع الذى يسترقع ويستصلح ، لما اعتراه من الوهن والوهى .

(٢) قائله أبو الطيّب المتنبي ، من قصيدته التى مطلعها :

الرأى قبل شجاعة الشجعانِ ... هو أولٌ ، وهى المحل الثانى

الديوان (ص ٤١٢) طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤ .

وقوله تعالى : « وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ » أى اتركه . و (الرجز) بكسر الراء كالرجس والسين والزاى يتبادلان ، لأنهما من حروف الصفير .

و (الرجس) اسم للقبيح المستقذر . كنى به عن عبادة الأوثان خاصة ، لقوله [١] : (فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ) أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق . والجملة من جوامع الكلم فى مكارم الأخلاق ، كأنه قيل : اهجر الجفا والسفه وكل قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز .

وقيل : المراد بالرجز العذاب ، وهجره كناية عن هجر مايؤدى إليه من الشرك والمعاصى . فالرجز مجاز ، وقد أقيم مقام سببه . أو هو بتقدير مضاف ، أى أسباب الرجز . أو التجوز بالتشبيه .

وقرئ بضم الراء ، وهو لغة فى المكسور ، وهما بمعنى ، وهو العذاب .

وعن مجاهد أنه بالضم بمعنى الصنم ، وبالكسر العذاب .

وأمره ﷺ بذلك ، وهو برىء منه ، إما أمر لغيره تعريضاً ، أو المراد الدوام على هجره .

« وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ » أى لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها ، بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه . يقال : مننت فلاناً كذا ، أى أعطيته . كما قال [٢] : (هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ) أى فأعط أو أمسك . وأصله أن من أعطى فقد منّ ، فسميت العطية بالمنّ على سبيل الاستعارة . وجوّز القفّالُ أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العوض كيف كان زائداً أو مساوياً . قال : وإنما حسنت هذه الاستعارة ، لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء . فسمى طلب الثواب استكثاراً حملًا للشىء على أغلب أحواله . وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج ، ولها ولد ، للحاجة إلى من يربى ولدها ، فسمى الولد ربيباً ، ثم اتسع الأمر ، فسمى ربيباً ، وإن كان ، حين تتزوج أمه ، كبيراً .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٩] .

وسر النهى أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض، والتفات النفس إليه تعففاً وكمالًا وعلوّ همة .

وقيل : معنى الآية لا تعط عطاءً مستكثراً له ، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء ، وإن كان كثيراً ، فالسين للمدّ والوجدان . وسبق فى سورة الروم فى قوله تعالى(١) : (وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ) كلام فى هذه الآية أيضاً فارجع إليه .

« وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » أى على أذى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ)

[٩] (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

[١٠] (عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

« فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ » أى نفخ فى الصور. و (الناقور) من النقر ، بمعنى التصويت . وأصله القرع الذي هو سبب الصوت . ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به أى : لما كان الصوت يحدث بالقرع . تجوز به عنه ، وأريد به النفخ لأنه نوع من الصوت .

« فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ » أى شديد .

« عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » أى هيّن ، لما يحيق بهم من صنوف الردى . وفى قوله (غَيْرُ يَسِيرٍ) تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ، ويشعر بيسره على المؤمنين . ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)

[١٢] (وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا)

[١٣] (وَبَنِينَ شُهُودًا)

[١٤] (وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا)

[١٥] (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

[١٦] (كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا)

[١٧] (سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا)

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » أى لا مال له ولا ولد .

« وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا » أى مبسوطاً كثيراً ، أو ممدوداً بالنماء .

« وَبَنِينَ شُهُودًا » أى رجالًا يشهدون معه المحافل والمجامع، أو حضوراً معه يأنس بهم، لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار ، لاستغنائهم عن التكسب والمدح .

« وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا » أى بسطت له فى العيش والجاه والرياسة .

« ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . أى من المال والولد والجاه . أو من النعيم الأخروىّ . وهذا أظهر لقوله « كَلَّآ » أى لا يكون مايأمل ويرجو ، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون ، لا هو ، « إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا » أى معانداً للحجج المنزلة والمرسلة .

« سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا » أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد . وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق ـ قاله الزمخشرىّ ـ .

قال الشهاب: ومعنى كونه مثلًا ، أنه شبه مايسوقه الله له من المصائب ، بتكليف الصعود

فى الجبال الوعرة الشاهقة ، وأطلق لفظه عليه . فهو استعارة تمثيلية .

ثم علل إرهاقه ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾

[١٩] ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾

[٢٠] ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾

« إِنَّهُۥ فَكَّرَ » أى ماذا يقول فى هذه الآيات الكريمة والذكر الحكيم « وَقَدَّرَ » أى فى نفسه ما يقوله وهيأه .

« فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » أى لعن ، كيف قدر ذلك الافتراء الباطل ، واختلاق ما يكذبه وجدانه فيه .

« ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » تكرير للمبالغة فى التعجب منه ، وقد اعتيد فيمن عجب غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره .

و (ثُمَّ) للدلالة على الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى للعطف بـ (ثُمَّ) الدالة على تفاوت الرتبة . فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا بل قتل بأشده وأشده . ولذا ساغ العطف فيه ، مع أنه تأكيد .

وقد جوز الزمخشرىّ فى هذه الجملة ثلاثة أوجه : أن تكون تعجيبا من تقديره وإصابته فيه المحزّ ورميه الغرض الذى كان تنتحيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ، أو حكاية لما ذكره من قولهم (قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله .

ثم قال : ومعنى قول القائل : قتله الله ، ما أشجعه ، وأخزاه الله ، ما أشعره ، الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ثُمَّ نَظَرَ)

[٢٢] (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

[٢٣] (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

[٢٤] (فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)

[٢٥] (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ)

« ثُمَّ نَظَرَ » أى فى ذلك المقدّر . أى تروّى فيه . قال الرازىّ : وهـذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه . فالنظر الأول للاستخراج ، واللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط .

وقال غيره : (ثُمَّ نَظَرَ) أى فى وجوه القوم .

« ثُمَّ عَبَسَ » أى قطب وجهه كبراً وتهيؤاً لقذف تلك الـكبيرة « وَبَسَرَ » أى كلح وجهه . شأن اللئيم فى مراوغته ومخاتلتـه ، والحسود فى آثار حقده على صفحات وجهه . « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَاسْتَكْبَرَ » أى عن الإيمان به . « فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » أى ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويتعلم . أى يأثره عن غيره . « إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ » أى ليس بكلام الله ، كما يقوله .

تنبيه :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومىّ ، أحد رؤساء قريش ، لعنه الله . وكان من خبره ما رواه ابن إسحاق؛ أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هـذا ، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولـكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس !

فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا ، والله ما هو بكاهن ! لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ! قالو : ما هو بساحر . لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال: والله ! إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول ، هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرّقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم . لا يمرّ بهم أحد إلا حذَّروه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة ، وفى ذلك ، من قوله (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...) الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله الآيات ـ رواه بن جرير (١) ـ .

وثم روايات بنحو ما ذكر .

وقد روى عن مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة . وحكى الثعلبيّ عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة : خالد وعمار وهشام . قال ابن حجر فى (الإصابة) : والصواب خالد وهشام والوليد . فأما عمارة ، فإنه مات كافراً ، لأن قريشا بعثوه للنجاشيّ ، فجرت له معه قصة ، فأصيب بعقله . وقد ثبت أنه ممن دعا النبيّ ﷺ عليهم من قريش ، لما وضع عقبة بن أبى معيط سلى الجزور على ظهره ، وهو يصلّى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[٢٧] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ)

[٢٨] (لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

[٢٩] (لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ)

[٣٠] (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » أى جهنم. وهو بدل من (سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا) بدل اشتمال، لاشتمال (سَقَرَ) على الشدائد . « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ » قال الزمخشرىّ : أى لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد . أو لا تبقى على شىء ، ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة . « لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ » أى محرقة للجلود ، من (لوّحته الشمس) إذا سوّدت ظاهره وأطرافه . و (البَشَر) جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد. أو اسم جنس بمعنى الناس. وجوّز أن يكون المعنى: لائحة للناس، من (لاح) بمعنى ظهر ، والبَشَر بمعنى الناس . « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » أى من الخزنة المتولّين أمرها ، والتسلط على أهلها ، وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأخروىّ ، تفوق زبانية الجبابرة فى الدنيا أضعافاً مضاعفة ، تنبيهاً على هول العذاب ، وكبر مكانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ)

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ » أى خزنتها « إِلَّا مَلَائِكَةً » أى وهم أقوى الخلق بأسًا، وأشدهم غضباً لله ، ليباينوا جنس المعذبين ، فلا يستروحون لهم . « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مشركى قريش . أى إلا عدة من شأنها أن يفتتن بها الكافرون ، فيجعلوها موضع البحث والهزء .

قال الجبائىّ : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوّى هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء .

وقال الكعبىّ : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوّض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعيّن إلى علم الخالق سبحانه . قال : وهذا من المتشابه الذى أمروا بالإيمان به .

« لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى رسالة النبىّ صلوات الله عليه لإنبائه من وعيد الجاحدين المفسدين ما لديهم مصداقه . واللام متعلقة بـ (جَعَلْنَا) الثانية .

فإن قيل : كيف يصح جعلهم فى نفس الأمر على هذا العدد، معللًا باستيقان أهل الكتاب، وازدياد المؤمنين ، واستبعاد أهل الشك والنفاق ، وليس إيجادهم تسعة عشر سبباً لشىء من ذلك ، وإنما السبب لما ذكر ، هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر ؟

والجواب : أن الجعل يطلق على معنيين :

أحدهما ـ جعل الشىء متصفاً بصفة فى نفس الأمر .

وثانيهما ـ الإخبار باتصافه بها ، ويقال له : الجعل بالقول . أى وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عددًا يقتضى فتنتهم ، لاستيقان أهل الكتاب ... الخ . أى وقلنا ذلك

وأخبرنا به لاستيقان. . . الخ. وعبر عن الإخبار بالجعل ، لمشاكلة قوله (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ . . . الخ ـ هذا ما قرّره شرّاح القاضى ـ .

«وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا» أى تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله . «وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا» أى حتى يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت: كيف ذكر الذين فى قلوبهم مرض، وهم المنافقون، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون فى مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ، والكافرون بمكة ، ماذا أراد الله بهذا مثلاً . وليس فى ذلك إلا إخبار بما سيكون ، كسائر الإخبارات بالغيوب . وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكّين ، وبعضهم قاطعين بالكذب . انتهى .

وقال الرازىّ : إن قيل : لم سموه مثلاً ؟

فالجواب : أنه لما كان هذا عدداً عجيباً ، ظن القوم أنه ربما لم يكن مرادُ الله منه ما أشعر به ظاهره ، بل جعله مثلاً لشىء آخر ، وتنبيهاً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

« كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ » أى إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال : عند مشاهدته آيات الله الناطقة بالحق . « وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » أى هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » قال الزمخشرىّ : أى وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما فى اختصاص كل جند بعدده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعزّ عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها . انتهى .

ويجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدم مثلاً . أي أن المؤمنين يستيقنون بأن عدتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين . ومن سنته تعالى ضرب الأمثال في تنزيله، وإلا فلا يعلم جنوده التي يسلطها على تعذيب من يشاء إلا هو . وهذا معنى آخر، لم أقف الآن على من نبه عليه . ويؤيده قوله :

« وَمَا هِيَ » أي عدتهم المذكورة « إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ » أي عظة يرهبون منها عذاب النار ، وهول أصحابها .

وقيل الضمير لـ (سقر) . وقيل : للآيات . والأقرب عندي هو الأول لسلامته من دعوى كون ما قبله معترضاً ، إذا أعيد الضمير لغيره ، ولتأييده لما قبله بالمعنى الذي ذكرناه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (كَلَّا وَالْقَمَرِ)

[٣٣] (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ)

[٣٤] (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ)

[٣٥] (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ)

[٣٦] (نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ)

[٣٧] (لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)

« كَلَّا » ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات . أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ، « وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ » أي ولى ذاهباً بطلوع الفجر .

«وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ »أي أضاء. ومن فوائد القسم بها الاعتبار بفوائدها، والاستدلال بآياتها ، كما تقوم في سورة (الصافات) :

« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أي الأمور العظام .

« نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ » أى إنذاراً لهم، فنصبه على أنه تمييز عن (إحدى) لما تضمنه من معنى التعظيم ، كأنه قيل: أعظم الكبر إنذاراً. فـ(نذيراً) بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار. أو على أنه حال عما دلت عليه الجملة. أى كبرت منذرة ، فـ(نذيراً) مصدر مؤول بالوصف، أو وصف بمعنى منذرة .

« لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ » أى يسبق إلى الإيمان والطاعة « أَوْ يَتَأَخَّرَ » أى يتخلف. و (لمن) بدل من (للبشر) أى منذرة لمن شاءوا التقدم والفوز، أو التأخر والهلاك. أو خبر مقدم ، و (أَن يَتَقَدَّمَ) مبتدأ مؤخر ، كقولك لمن توضأ أن يصلى ، كآية[1] (فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ) وفى الثانى بُعْدٌ . وزعم أبو حيان أن اللفظ لا يحتمله ، ولم يسلم له .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٨] (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[٣٩] (إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ)

[٤٠] (فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ)

[٤١] (عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ)

[٤٢] (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)

[٤٣] (قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ)

[٤٤] (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ)

[٤٥] (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ)

(١) [١٨ / الكهف / ٣٩] .

obeikandi.com

[٤٦] (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ)

[٤٧] (حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ)

[٤٨] (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » أى مرهونة ومحبوسة به عند الله تعالى . « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » أى فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق . « فِي جَنَّاتٍ » أى هم فى جنات لايدرك وصفها « يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ » أى يسألون عنهم . وإيثار صيغة التفاعل للتكثير . ومنه (دعوته وتداعيناه) .

وقال القاشانيّ : أى يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين ، لاطلاعهم عليها، وما أوجب تعذيبهم وبقاءهم فى سقر ، فأجاب المسؤولون بأنا سألناهم عن حالهم بقولنا :

«مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا» أى بلسان الحال أو المقال «لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ » أى كنا موصوفين بهذه الرذائل من اختيار الراحات البدنية ، ومحبة المال ، وترك العبادات البدنية، والخوض فى الباطل، والهزء والهذيان، والتكذيب بالجزاء، وإنكار المعاد. « حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ » أى الموت ، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً . « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » أى من نبيّ أو ملَك ، لو قدر على سبيل فرض المحال ، لأنهم غير قابلين لها . فلا إذن فى الشفاعة لذلك . فلا شفاعة ، فلا تنفع .

قال ابن جرير(١) : أى فما يشفع لهم الذين شفعهم الله فى أهل الذنوب من أهل التوحيد، فتنفعهم شفاعتهم . وفى هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره ، مشفِّع بعض خلقه فى بعض .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ)

[٥٠] (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ)

[٥١] (فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ)

[٥٢] (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً)

[٥٣] (كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ)

[٥٤] (كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ)

[٥٥] (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ)

[٥٦] (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ)

« فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ » أى فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها ، فيتعظوا ويعتبروا . « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ » أى كأنهم فى الإعراض عن الذكرى ، وبلادة قلوبهم ، حمر شديدة النفار . « فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ » أى أسد ، أو عصبة قنص من الرماة . « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً » أى ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبىّ ﷺ . ونحوه آية(١) (وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ) وآية(٢) (وَلَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ) وآية(٣) (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ . . .) الآية .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٩٣] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٧] .

« كَلَّآ » أى لا يكون مرادهم ، ولا يتبع الحق أهواءهم . أو ليس إرادتهم تلك للرغبة فى الإيمان ، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره ، وإنما هم مردة الداء ، ولذا قال : « بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ » أى لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، ولا يخشون العقاب ، لإيثارهم العاجلة . أى فذلك الذى دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله ، والإباء عن الإيمان بتنزيله . « كَلَّا » ردع عن إعراضهم « إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ » أى فاتعظ وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه . « وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ » أى ذكرهم واتعاظهم ، لأنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه . وفيه ترويح لقلبه صلوات الله عليه ، مما كان يخامره من إعراضهم، ويحرص عليه من إيمانهم . « هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ » أى حقيق بأن يتقى عقابه ، ويؤمن به ويطاع . « وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ » أى حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٥ – سورة القيامة

قال المهايميّ : سميت به لتضمنها غاية تعظيم ذلك اليوم ، من لا يتناهى ثوابه وعقابه ، بحيث تتحسّر فيه كل نفس من تقصيرها ، وإن عملت ما عملت .

وهي مكية . وآيها أربعون .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ)

[٢] (وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ)

« لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ » قال القاشانى : جمع بين القيامة والنفس اللوامة ، فى القسم بهما ، تعظيما لشأنهما ، وتناسبًا بينهما . إذ النفس اللوامة ، هى المصدقة بها ، المقرة بوقوعها ، المهيئة لأسبابها ، لأنها تلوم نفسها أبداً فى التقصير ، والتقاعد عن الخيرات ، وإن أحسنت ، لحرصها على الزيادة فى الخير ، وأعمال البر ، تيقنًا بالجزاء ، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسيانا .

ومر الكلام على (لَآ أُقْسِمُ) فى مواقعه قبل هـذا فتذكر . وحذف جواب القسم لدلالة قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ)

[٤] (بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ)

« أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ » عليه ، وهو لتبعثن . قال القاشانى : المراد بالقيامة ، ههنا ، الصغرى ، لهذه الدلالة بعينها .

« بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ » أى بلى ! نجمع عظامه ، قادرين تسوية بنانه التى هى أطراف خلقته وتمامها ، على صغرها ولطافتها ، وضم بعضها إلى بعض ، فكيف بكبار العظام ؟ !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)

« بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ » أى ليدوم على الفجور، فيما يستقبله من الزمان، ولا يثنيه عنه شىء ، ولا يتوب منه أبداً .

قال الشهاب : (أَمَامَهُ) ظرف مكان ، استعير هنا للزمان المستقبل ، فيفيد الاستمرار . والضمير للإنسان ، أو ليوم القيامة . وقيل الدوام والاستمرار ، لأنه خبر عن حال الفاجر ، بأنه يريد ليفجر فى المستقبل . على أن إرادته وحسبانه هما عين الفجور . وفى إعادة المظهر مالا يخفى من التهديد ونعى قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأباه. وقيل: حمله على الاستمرار ليصح الإضراب ، ويصير المعنى : بل يريد الإنسان أن يستمر على فجوره ، ولا يتوب ، فلذا أنكر البعث .

وقال القاشانى : أى ليدوم على الفجور بالميل إلى اللذات البدنية ، والشهوات البهيمية، غارزا رأسه فيها ، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل ، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها ، وكونه مقصوراً على اللذات العاجلة ، وفرط تهالكه عليها، واحتجابه بها عن الآجلة، سائلاً عنها ، متعنتاً مستبعداً إياها ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)

[٧] (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ)

[٨] (وَخَسَفَ الْقَمَرُ)

[٩] (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[١٠] (يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)

[١١] (كَلَّا لَا وَزَرَ)

[١٢] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ)

[١٣] (يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

« يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ » أى متى يكون ؟ استبعاداً وهزؤاً . والجملة استئناف أو حال أو تفسير لقوله (يفجر) ، أو بدل منه والاستئناف بيانىّ ، كأنه قيل: لِمَ يريد الدوام على الفجور ؟ قيل: لأنه أنكر البعث واستهزأ به « فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ » أى تحير ودهش. أى لما أتى من أمر الله . قال مجاهد : أى عند الموت . « وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ » أى ذهب ضوؤه « وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ » أى جمع بينهما فى ذهاب الضوء ، فلاضوء لواحد منهما . وقيل: إنها يجمعان ثم يكوران ، كما قال جل ثناؤه(١) (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ) قال ابن زيد : جمعا فرمى بهما فى الأرض . « يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ » أى الفرار . أى يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته ، أو يقوله قول الآيس لعلمه بأنه لا قرار حينئذ . « كَلَّا » ردع له عن طلب المفر ، « لَا وَزَرَ » أى لا ملجأ . « إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ » أى مستقر العباد، من نار أو جنة . أى مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم ، أو استقرار أمرهم ، والحكم فيهم « يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ » أى من عمله الذى يوجب نجاته وثوابه ، من الخيرات والصالحات ، « وَأَخَّرَ » أى منه ففرط وقصر فيه ولم يعمله .

قال الشهاب : (مَا قَدَّمَ) كناية عما عمل ، و (ما أخر) ما تركه ولم يعمله . وهو مجاز مشهورفيما ذكر. أو ماقدمه، ماعمله، وماأخره، عمل من اقتدى به بعده عملًا له، كأنه وقع منه .

---

(١) [٨١ / التكوير / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ)

[١٥] (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ)

« بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ » قال القاشانىّ : أى حجة بينة ، يشهد بعمله ، لبقاء هيآت أعماله المكتوبة عليه فى نفسه، ورسوخها فى ذاته، وصيرورة صفاته صور أعضائه، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج .

قال الشهاب : (بَصِيرَةٌ) مجاز عن الحجة الظاهرة . أو (بَصِيرَةٌ) بمعنى بينة ، وهى صفة لحجة مقدرة . وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها يبصر بها ، فالإسناد مجازىّ . أو هى بمعنى دالة مجازًا. أوهو استعارة مكنية وتخييلية. و (ٱلْإِنسَـٰنُ) مبتدأ، و (بَصِيرَةٌ) خبره، و (عَلَىٰ) متعلق به . والتأنيث للمبالغة ، أو لكونه صفة (حجة) .

« وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ » أى ولو ألقى أعذاره مجادلًا عن نفسه بكل معذرة. وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث ، منكر باطل ، تنكره قلوبهم، وأنهم فى دفاعهم يجادلون بالباطل. ولا غرو أن ينكر القلب ماتدفعه الفطرة السليمة، والدين دين الفطرة .

قال الشهاب : شبه المجىء بالعذر بإلقاء الدلو فى البئر للاستقاء به ، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المروىّ للعطش .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ)

[١٧] (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ)

[١٨] (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ)

[١٩] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ)

« لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ » أى لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى ، لتأخذه على عجلة ، مخافة أن يتفلت منك . « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ » أى فى صدرك ، وإثبات حفظه فى قلبك ، بحيث لا يذهب عليك منه شىء . « وَقُرْءَانَهُۥ » أى أن تقرأه بعدُ فلا تنسى « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ » أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام ، « فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ » أى كن مقفياً له ولا تراسله . « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ » أى بيان ما فيه ، إذا أشكل عليك شىء من معانيه ، أو أن نُبَيِّنَه على لسانك .

تنبيهات :

الأول ـ ماذكرناه فى تأويل الآية هو المأثور فى الصحيحين وغيرهما . ولفظ البخارىّ(١) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يحرّك شفتيه إذا أُنزل عليه ، فقيل له (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ) يخشى أن يتفلت منه (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ) أن نجمعه فى صدرك (وَقُرْءَانَهُۥ) أن تقرأه (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) يقول أُنزل عليه (فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) أن نبيّنه على لسانك . زاد فى رواية : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك ، إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل ، قرأه النبىّ ﷺ كما قرأه .

قال ابن زيد : أى لا تكلم بالذى أوحينا إليك ، حتى يقضى إليك وحيه ، فإذا قضينا إليك وحيه ، فتكلم به . يعنى : أن هذه الآية نظير قوله تعالى(٢) (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٤ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل ، حديث رقم ٥ . (٢) [٢٠ / طه / ١١٤] .

قال ابن كثير : وهكذا قال الشعبيّ والحسن البصريّ وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد؛ أن هذه الآية نزلت في ذلك، وأنها تعليم من الله عز وجل لرسوله، كيفية تلقيه الوحي.

الثاني ـ ذكروا في مناسبة وقوع الآية معترضة في أحوال القيامة ـ على تأويلهم المتقدم ـ وجوهاً :

منها ـ تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الإنسان ـ والمرء مفتون بحب العاجل ـ حتى جعل مخلوقاً من عجل . ومن محبة العاجل ، وإيثاره على الآجل ، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة، الذي هو منشأ الكفر والعناد، المؤدي إلى إنكار الحشر والمعاد. فالنهي عن العجلة في هذا يقتضي النهي فيما عداه ، على آكد وجه. وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه. قاله الشهاب .

ومنها ـ أن عادة القرآن ، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، حيث يعرض يوم القيامة ، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً ، كما قال في الكهف[1] (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) إلى أن قال[2] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ) الآية . وقال في طه[3] (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) إلى أن قال[4] (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) .

ومنها ـ أن أول السورة لما نزل إلى قوله (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ) صادف أنه ﷺ في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وحرك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزلت (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلى قوله (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدأ به .

قال الفخر الرازيّ : ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مثلاً مسألة ، فتشاغل الطالب بشيء عرض له فقال له : ألق إليّ بالك ، وتفهم ما أقول . ثم كمل المسألة . فمن لا يعرف

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٩] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٠٢] . (٤) [٢٠ / طه / ١١٤] .

السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسباً للمسألة ، بخلاف من عرف ذلك ـ قاله الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) ـ .

الثالث ـ استدلوا على التأويل السابق بقوله تعالى (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، كما هو مذهب الجمهور لما تقتضيه (ثم) من التراخى . وأول من استدل لذلك بهذه الآية القاضى أبو بكر بن الطيب ، وتبعوه . وهذا لا يتم إلا على تأويل البيان بتبيين المعنى ، وإلا فإذا حمل على أن المراد استمرار حفظه له ، وظهوره على لسان ، فلا ! .

قال الآمدىّ : يجوز أن يراد بالبيان الإظهار ، لا بيان المجمل . يقال (بان الكوكب إذا ظهر) قال : ويؤيد ذلك أن المراد جميع القرآن ، والمجمل إنما هو بعضه ، ولا اختصاص بالأمر المذكور دون بعض .

وقال أبو الحسين البصرىّ : يجوز أن يراد البيان التفصيلىّ ، ولا يلزم منه جواز تأخير البيان الإجمالىّ ، فلا يتم الاستدلال . وتعقب باحتمال إرادة المعنيين : الإظهار والتفصيل وغير ذلك ، لأن قوله (بيانه) جنس مضاف ، فيعم جميع أصنافه من إظهاره وتبيين أحكامه ، وما يتعلق بها من تخصيص وتقييد ونسخ وغير ذلك ـ قاله الحافظ فى (الفتح) ـ .

وجوز القفال أن تكون (ثم) للترتيب فى الإخبار . أى ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه ، فلا تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب . وضعفه الرازىّ بأنه ترك للظاهر من غير دليل.

الرابع ـ ما قدمناه من معنى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ) الخ ، وما استفيد منه ، وما قيل فى مناسبته لما قبله ، كله إذا جرى على المأثور فيها . وحاول القفال معنى فقال كما نقله عنه الرازى ـ : إن قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ) ليس خطاباً مع الرسول ﷺ بل هو خطاب مع الإنسان المذكور فى قوله[1] (يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) فكان ذلك حال ما ينبأ بقبائح أفعاله ، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له[2] (ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) . فإذا أخذ فى القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف ،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٤] .

وسرعة القراءة ، فيقال له (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ) فإنه يجب علينا بحكم الوعد ، أو بحكم الحكمة ، أن نجمع أعمالك عليك ، وأن نقرأها عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه ، بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال . ثم إن علينا بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته . وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية : أن المراد منه ؛ أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله ، على سبيل التفصيل . وفيه أشد الوعيد فى الدنيا ، وأشد التهويل فى الآخرة .

ثم قال القفّال : فهذا وجه حسن ، ليس فى العقل ما يدفعه ، وإن كانت الآثار غير واردة به . انتهى .

ونقل الشهاب أن بعضهم ارتضى هذا الوجه ، وقدمه على الوجه السابق .

وزعم الحافظ ابن حجر أن الحامل على هـذا الوجه الأخير هو عسر بيان المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أحوال القيامة . أى ولما بيّن الأئمة المناسبة التى أثرناها عنهم ، لم يبق وجه للذهاب إلى هذا الوجه الأخير ، مع أن هذا الوجه ـ هو فيما يظهر ـ فيه غاية القوة والارتباط بما قبله وما بعده ، مما يؤثره على المأثور ، الذى قد يكون مدركه الاجتهاد ، والوقوف مع ظاهر ألفاظ الآية . ومما يؤيده ما أورد عليه أن ابن عباس لم ير النبىّ ﷺ فى تلك الحال ، لأن الظاهر أن ذلك كان فى مبدأ البعث النبوىّ ، ولم يكن ابن عباس وُلد حينئذ . ولا مانع ـ كما قال ابن حجر ـ أن يخبر النبىّ ﷺ بذلك بعدُ ، فيراه ابن عباس، أو يخبر به ، فيكون من مراسيل الصحابة ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ)

[٢١] (وَتَذَرُونَ ٱلْأٓخِرَةَ)

[٢٢] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ)

[٢٣] (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[٢٤] (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ)

[٢٥] (تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)

« كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ » أى الدنيا العاجلة ، بإيثار شهواتها . « وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ » أى بالإعراض عن الأعمال التى تورث منازلها ، أو تنسون الآخرة ووعيدها ، وهول حسابها وجزائها . « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ » أى حسنة جميلة من النعيم « إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » أى مشاهدة إياه ، ترى جمال ذاته العلية ، ونور وجهه الكريم ، كما وردت بذلك الأخبار والآثار عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه . « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ » أى كالحة ، لجهامة هيآتها ، وهول ما تراه هناك من الأهوال ، وأنواع العذاب والخسران . « تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » أى داهية تقصم فقار الظهر ، لشدتها وسوء حالها ووبالها . وشتان ما بين المرتبتين ! ويظهر أن فى عود الضمير من (بها) إلى الوجوه ـ مراداً بها الذوات ـ شبه استخدام . ولم أر من نبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ)

[٢٧] (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ)

[٢٨] (وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ)

[٢٩] (وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ)

[٣٠] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ)

« كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ » أى بلغت النفس أعالى الصدر . وإضمارها ، وإن لم يجر لها ذكر ، لدلالة السياق عليها ، كقول حاتم :

أماوِيّ مَا يُغْنِى الثَّراءُ عَنِ الْفَتَى إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

قال الرازيّ : يكنى ببلوغ النفس التراقى ، عن القرب من الموت ، ومنـــه قول دريد ابن الصمة :

ورب عظيمة دافعتُ عنها وقد بلغَتْ نفوسُهُمُ التَّراقِى

ونظيره قوله تعالى [1] : (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ) . « وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ » قال [2] ابن جرير : أى وقال أهله : مَنْ ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به ، وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذى قد نزل به شيئاً . أى فالاستفهام بمعنى الطلب لراقٍ أوطبيب. وجوز كونه بمعنى الإنـكار ، يأساً من أن يقدر أحد على نفعه برقية أو عوذة .

لطيفة .

قال الواحديّ : إن إظهار النون عند حروف الفم لحن . فلايجوز إظهار نون (مَنْ) فى قوله (مَنْ رَاقٍ) . وروى حفص عن عاصم إظهار النون فى قوله (مَنْ رَاق) و (بَلْ رَانَ) قال أبو على الفارسيّ : ولا أعرف وجه ذلك . قال الواحديّ : والوجه أن يقال قصد الوقف على (مَنْ) و (بَلْ) فأظهرهما . ثم ابتدأ بما بعدها . وهـذا غير مرضيّ من القراءة . انتهى نقله الرازيّ .

« وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ » أى وأيقن الذى قد نزل ذلك به، أنه فراق الدنيا والأهل والمال. « وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ » أى التوت ساقه بساقه ، فلا يقدر على تحريكها . وقيل : هما ساقاه ، إذا التفتا فى الـكفن . وقيل : الساق عبارة عن الشدة ، كما مر فى سورة (القلم) . والتعريف للعهد أيضاً .

قال الشهاب : فإن قلت : ما مرّ هو الـكشف عن الساق، ووجهه ظاهر، لأن المصاب يكشف عن ساقه ، فـكيف ينزل هذا عليه ؟

قلت : الأمر كما ذكرت ، لـكنه شاع فيه ، ففهم ذلك من الساق وحـده ، حتى صار

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٩٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

عبارة عن كل أمر فظيع ـ كما أشار إليه الراغب ـ انتهى .

« إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » أي سوقه إلى حكمه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ)

[٣٢] (وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[٣٣] (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ)

[٣٤] (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ)

[٣٥] (ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ)

[٣٦] (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

[٣٧] (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ)

[٣٨] (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣٩] (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ)

[٤٠] (أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ)

« فَلَا صَدَّقَ » أي بالدين والكتاب . أو صدق ماله ، أي ما زكاه « وَلَا صَلَّىٰ » أي الصلاة التي هي رأس العبادات ، التي سها عنها . « وَلَٰكِن كَذَّبَ » أي بدل التصديق « وَتَوَلَّىٰ » أي بدل الصلاة التي بها كمال التوجه إلى الله تعالى « ثُمَّ » أي مع هذه التقصيرات في جنب الله تعالى « ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ » أي يتبختر في مشيته . وأصله (يتمطط) أي يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه .

تنبيهات

الأول ـ الضمير في الآيات للإنسان المتقدم في قوله تعالى (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ) .

الثانى ـ قال الرازىّ : إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه ، وفيما يتعلق بدنياه . أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ماصدق بالدين ، ولـكن كذب به . وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ما صلى ، ولـكنه تولى ، وأعرض . وأما مايتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويختال فى مشيته .

الثالث ـ دلت الآية على أن الـكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة ، كما يستحقهما بترك الإيمان .

الرابع ـ قال الرازىّ : قال أهل العربية : (لا) ههنا فى موضع (لم) فقوله : (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) أى لم يصدق ولم يصلّ ، وهو كقوله [1] (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) أى لم يقتحم . وكذلك ما روى [2] : أرأيت من لا أكل ولا شرب ولا استهل . قال الـكسائىّ : لم أر العرب قالت فى مثل هذا كلمة وحدها ، حتى تتبعها بأخرى، إما مصرحاً بها ، أومقدراً. أما المصرح ، فلا يقولون لا عبد الله خارج ، حتى يقولوا ولا فلان ، ولا يقولون مررت برجل لا يحسن ،حتى يقولوا ولا يجمل . وأما المقدرفهو كقوله (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) ثم اعترض الـكلام فقال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ) وكان التقدير : لا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة . ومنهم من قال : التقدير فى قوله (فَلَا اقْتَحَمَ) أى أفلا اقتحم ، وهلا اقتحم . انتهى « أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ » أى ويل

---

(١) [٩٠ / البلد / ١١] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٦ ـ باب الـكهانة ، حديث رقم ٢٢٦٩ ، عن أبى هريرة ، ونصه : أن رسول الله ﷺ قضى فى امرأتين من هذيل اقتتلتا ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهى حامل ، فقتلت ولدها الذى فى بطنها . فاختصموا إلى النبىّ ﷺ فقضى أن دية ما فى بطنها غرةٌ : عبد أو أَمَةٌ . فقال ولىّ المرأة التى غرمت : كيف أغرم يارسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ ، ومثل ذلك بطل ؟ فقال النبىّ ﷺ : إنما هذا من إخوان الـكهّان .

لك مرة بعد مرة . دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه ولاء متكررا متضاعفاً .

وقيل : المعنى بُعْدًا لك . فبعداً فى أمر دنياك ، وبعداً لك فبعداً فى أمر أخراك ـ حكاه الرازىّ عن القاضى ـ ثم قال : قال القفال : هذا يحتمل وجوهاً :

أحدها ـ أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر .

والثانى ـ أنه شىء قاله النبىّ ﷺ لعدوه ـ يعنى أبا جهل ـ فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك .

والثالث ـ أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى : ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، فقل له يا محمد : أولى لك فأولى ، أى احذر ، فقد قرب منك ما لاقبل لك به من المكروه . انتهى والأظهر هو الأول ـ .

لطيفة :

تفسير (أَوْلَىٰ لَكَ) بـ (ويل لك) قال الشهاب: هو محصل معناه المراد منه ، فإنه مثله ، فيرد للدعاء عليه ، أو للتهديد والوعيد .

وعن الأصمعىّ أنها تكون للتحسر على أمر فات .

هذا هو المعنى المراد بها . وأما الكلام فى لفظها فقيل : هو فعل ماض دعائىّ من (الولى) واللام مزيدة . أى أولاك الله ما تكرهه . أو غير مزيدة ، أى أدنى الهلاك لك . وقريب منه قول الأصمعىّ : إن معناه قاربه ما يهلكه أن ينزل به . واستحسنه ثعلب .

وقيل : إنه اسم وزنه (أفعل) من الويل ، فقلب . وقيل فَعْلَىٰ، ولذا لم ينون . ومعناه ما ذكر ، وألفه للإلحاق لا للتأنيث . وعلى الاسمية هو مبتدأ ، و (لك) الخبر . وقيل : إنه اسم فعل مبنىّ ، ومعناه وَلِيَك شر بعد شر .

ونقل الزمخشرىّ عن أبى علىّ أنه عَلَمٌ لمعنى الويل ، وهو غير منصرف للعلمية ووزن الفعل . وقيل عليه : إن الويل غير متصرف ، ومثل (يوم أيوم) غير منقاس ، ولا يفرد عن الموصوف . وادعاء القلب من غير دليل، لا يسمع، وعلم الجنس خارج عن القياس . فما ذكر بعيد من وجوه عدة . وقيل : الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كما يليق بمقامه . فالتقدير هنا :

النار أولى لك . يعنى : أنت أحق بها ، وأهل لها . انتهى .

« أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى » أى : هملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى ، مع أنه الإنسان الذى أودع العقل وعلِّم البيان ، وغرز فى طبعه أن يعيش مجتمعاً ، وخص من المواهب ما فضل على غيره. فمن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته، وإعلامه بسبيل هدايته، وأن لا يترك خابطاً فى متاثه جهالته، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته ، كما أشار لذلك بقوله:

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ » أى يصب فى الرحم .

« ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً » أى دماً « فَخَلَقَ » أى قدّر أعضاءه « فَسَوَّىٰ » أى سوى تلك الأعضاء لأعمالها وعدّلها .

« فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ » أى الصنفين « ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ » أى لبقاء نوعه ، يعمر الدنيا إلى الأجل الذى كتبه وقدره .

«أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ» أى فيوجدهم بعد مماتهم لعمارة الآخرة.

وقد روى أن النبىّ ﷺ كان إذا قرأها قال: سبحانك ، فبلىٰ ـ رواه أبو داود عن رجل من الصحابة. ورواه أيضاً عن أبى هريرة بلفظ: من قرأ (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ) فانتهى إلى (أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ) فليقل : بلىٰ . ورواه الإمام أحمد والترمذى أيضاً ـ والله أعلم ـ .

بحمده تعالى وعونه ، كمل هذا الجزء فى أوائل محرم سنة ١٣٢٧

بمنزلنا فى زقاق الكتبى ، فى خط قصر حجاج

ظاهر باب الجابية . على يد جامعه وكاتبه

الحقير محمد جمال الدين القاسمىّ

الدمشقىّ

تمّ الجزء السادس عشر، ويليه إن شاء الله ، الجزء السابع عشر،

وفيه تفسير مابقى من سور الكتاب الكريم

فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء

رقم السورة واسمها	رقم الصفحة
٥٦ ـ سورة الواقعة	٥٦٤٥
٥٧ ـ سورة الحديد	٥٦٧٠
٥٨ ـ سورة المجادلة	٥٧٠٤
٥٩ ـ سورة الحشر	٥٧٣٣
٦٠ ـ سورة الممتحنة	٥٧٥٧
٦١ ـ سورة الصف	٥٧٨٠
٦٢ ـ سورة الجمعة	٥٧٩٦
٦٣ ـ سورة المنافقون	٥٨٠٦
٦٤ ـ سورة التغابن	٥٨١٧
٦٥ ـ سورة الطلاق	٥٨٢٨
٦٦ ـ سورة التحريم	٥٨٥١
٦٧ ـ سورة الملك	٥٨٧٤
٦٨ ـ سورة نٓ	٥٨٩١
٦٩ ـ سورة الحاقة	٥٩١٠
٧٠ ـ سورة المعارج	٥٩٢٣
٧١ ـ سورة نوح	٥٩٣٢
٧٢ ـ سورة الجن	٥٩٤٢
٧٣ ـ سورة المزّمل	٥٩٥٧
٧٤ ـ سورة المدّثر	٥٩٦٩
٧٥ ـ سورة القيامة	٥٩٨٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٣٤٩٤

obeikandl.com

obeikandl.com